د. أحمد خالد توفيق

أكواريل

و قصص اخرى

دار سما للنشر والتوزيع

فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

توفيق , أحمد خالد
أكواريل , د/ أحمد خالد توفيق , ط1 - الكويت:
دار سما للنشر والتوزيع , 2013
... ص , 19.5 سم
ردمك: 978-99966-55-30-2
1 - القصة العربية القصيرة - الكويت أ. العنوان
رقم الإيداع: 2013/564
تصميم الغلاف: صالح محمد
الإخراج الداخلي: محمد سعيد
نشر:
سما للنشر والتوزيع - الكويت



المدير العام:
يوسف العبد العيسى

www.Darsama-Kw.com
info@darsama-kw.com
Tel : +965 67076866

هذه قصص متفرقة

تتحدث عن الخوف.. كل الخوف.. ولا شيء سوى الخوف. سوف نعرف كل شيء عن القصيدة التي تكمل نفسها، والرواية التي تكتبها أرواح الموتى، والطبيب الذي تزوره جثث ضحاياه في عيادته الخاصة. سنعرف سر المدية الفضية عبر العصور، وقصة الحب بين شاب مكتمل الرجولة وجثة متعفنة. سنعرف قصة اللوحة التي تتغير كل-. دقيقة، وزيارات ناحيما الليلية..

سنعرف الكثير مما لا ينبغي أن نعرفه، وإذا عرفناه لا نتكلم عنه.



من رحمة الله بنا عجز العقل البشري عن استيعاب كل محتويات الكون. نحن نعيش فوق جزيرة هادئة من الجهل وسط بحار سود من اللانهاية، ولم نُخلق لنبحر بعيدًا. لم تستطع العلوم أن تؤذينا إلا قليلاً لكن يومًا ما سوف تجتمع قطع المعرفة المتناثرة وتفتح آفاقًا جديدة من الحقيقة.. عندها سوف نجن من هول الاكتشاف أو نفر من النور إلى حيث السلام والأمان في عصر مظلم جديد.

هـ ب. لافكرافت

الناس تعتقد أنني شخص غريب الأطوار لأكتب هذه القصص المرعبة. الحقيقة أن لدي قلب طفل.. أحتفظ به في وعاء زجاجي على مكتبي!

ستيفن كينج

الخوف هو أقدم وأقوى عاطفة عرفها الإنسان، وأقوى وأقدم

الروايـــة

اتجه للنافذة المطلة على البحر وراح يرمق الأمواج الغاضبة من وراء الزجاج، ثم قال بعد تفكير:

- في الحقيقة.. عملية الإلهام نفسها نوع من تلقي ما يملى عليك.. سلي عن هذا أي أديب موهوب. في لحظة من اللحظات يتحول إلى قلم تكتب به يد خفية. أنا قد بحثت عن أفكار في عالم الأبدية ووجدتها.. وضحيت بالكثير من أجل ذلك. إذن أنا أستحق المجد

عندما جاء الظلام وعندما انتصر الأسود العظيم على سائر الألوان، وعندما أعلنت العاصفة عن مجدها القادم..

عندها أغلق جيروم ماكبرايد النوافذ.. طبعًا أخذ شهيقًا عميقًا قبل كل شيء، ثم أغلق النوافذ.. عاد إلى غرفة المكتب حيث كانت أماندا جالسة ملتفة بذلك الشال الصوفي ذي الشراشيب.. شعرها الأشيب وشفتاها المزمومتان النحيلتان الشبيهتان بكيس مصرور.. شفتان تشيان بربو طويل الأمد. نظرات كئيبة من عينين رماديتين غلفت سحابتان قرنيتيهما. كل هذا يجعلها أقرب إلى ساحرة هندية عجوز تجلس أمام النار، منها زوجة لمحاسب من أدنبره..

الحقيقة أنها كانت كذلك... ساحرة هندية عجوزًا.. على الأقل نفسيًا..

كان الجو يقعقع بالانتشاء.. الكهرباء الاستاتيكية المصاحبة للعواصف لها قدرة السحر.. يمكنك أن تسمع شعيرات عنقك وهي تنتصب أو ترى ذرات الأكسجين تصطدم بذرات النتروجين في الهواء الخارج من صدرك..

يشعل ماكبرايد المدفأة.. اللهب يتوهج...

إن الكريسماس قريب، وهذا المشهد يجلب لهم ذكرى عزيزة مرتبطة بالطفولة، لكنه كذلك مشهد موجس يشعرك بخوف غامض....

اللهب يتراقص...

يجلس أمامها في توتر ويراقب شفتيها النحيلتين.

كانت أماندا هي أخته وهي أرملة الآن بعد وفاة زوجها المحاسب.

كانت تعرف الكثير.. وهذا الكثير ليس مما يريحك أن تعرفه..

هذه نتيجة قراءات استمرت لعدة أعوام في كتب عتيقة صفراء لو وجدتها محاكم التفتيش عندك لأحرقتك، ولو وجدها صائد الساحرات (ماثر) لديك لشنقك... بعض هذه الكتب لم يسمع عنها مؤلفا كتاب مطرقة الساحرات قط..

أماندا كانت تعرف الكثير، وقد جاء الوقت الذي تمنح فيه هذا العلم لأخيها..

جلب لها قدحًا ساخنًا يخرج منه بخار كثيف.. رائحة هذا المشروب غريبة.. في الحقيقة هي أعشاب عدة بينها الزنجبيل والقرفة وربما بعض الزعتر.. لست واثقًا...

ترشف رشفة من السائل الأحمر وتسعل..

تنظر له في ثبات...

تسأله:

-"هل أنت متأهب؟"

يقول لها بصوت مبحوح أنه متأهب.. فتبتسم ابتسامة خافتة..

تواصل الشرب ثم تطرق برأسها في نوع من الاستسلام، وتقول:

-"هل عرفت كل الخطوات؟.. الموقف لا يتحمل الأخطاء.."

-"عرفت.. لكن لا أجرؤ"

ونهض ليقف وراءها ومرر أنامله عبر خصلات شعرها الأشيب المجعد...

قالت وهي ترشف رشفة أخرى:

-"تذكر.. أنت تقف أمام باب عالم آخر.. ليس عليك سوى أن تمسك بالمقبض.."

كان يعرف ذلك، ويدرك أنه اختار اختياره ولن يتراجع.. هكذا أمسك بالسكين الطويلة القاطعة.. وبيد كادت ترتجف مررها تحت ذقن العجوز من الخلف..

برغم كل شيء كانت تبتسم تلك الابتسامة الغامضة المخيفة..

في تلك الليلة السوداء كانت العاصفة تهز الجدران هزًا، وراح البرد يرتطم بالنوافذ. كان من العسير ألا تصدق أن كل شياطين الجحيم قد هبطت على الأرض لتغزوها..

وكان هو مشغولاً في إعداد الطقوس الأخيرة..

الدم. الدم.. النجمة الخماسية على الأرض.. ثم سبع الجماجم..

وضع الجماجم الضامرة المغبرة جنبًا إلى جنب في صف طويل..

كان هناك نقش على قطعة قماش يمثل رأس كبش، وقد علقه على الجدار فوق الجماجم..

فتح النافذة ليراقب ألسنة البرق تشق عنان السماء.. إنها اللحظة.. لا شك أن أبواب الجحيم تنفتح. لا شك أن الرسالة الظامئة الملهوفة وصلت هناك..

لابد أن بلفيجور أصيب بالدهشة.. هذه التعويذة بالذات لم تُستعمل قط، وقد حسب البشر أضعف من أن ينفذوها.. لابد أنهم جميعًا تصايحوا في دهشة: "هناك شيء غريب يدور في اسكتلنده"..

استدار يرقب الجماجم.. يعرف ذلك التـأثير الناجم عن ضوء البرق، والذي يوحي بأن الأشياء تتحرك حركة متقطعة ويسمونها التأثير الستروبوسكوبي.. فعلاً يشعر كأن الجماجم دبت فيها الحياة، وأنها تغمز بعيونها...

القشعريرة تسري في عروقه..

بل الحقيقة أن الجماجم تغمز فعلاً.. لا شك في هذا..اتجه للشموع وأشعلها، وهكذا انتشر الضوء الكئيب الغامض في المكان..

وراح اللهب يتراقص من الهواء مما اضطره لأن يغلق النافذة..

جلس أمام الجماجم وقد اتسعت عيناه رعبًا وذهولاً.. يكفي أن ترى وجهه لترتجف فرقًا..

على بعد خطوات يوجد الرأس موضوعًا في إناء من خزف. لقد تخلص من الجسد لكن الرأس مهم للعملية..

البرق يضرب بقوة..

الآن هو يسمع يقينًا الصوت يصدر من الجمجمة الأولى:

ـ"ماذا تريد أيها الغريب؟؟"

ساماثتا كانت قلقة..

لم تلق جيروم منذ فترة ولا تعرف ما يفكر فيه، لكنها كانت تهيم به حبًا.. كانت تجد في عينيه الواسعتين براءة غير معتادة، وكانت تحب دهشته من العالم التي يبديها في كل حين.

عندما جلست مع صاحبتها في المقهى، راحت تشفط اللبن المخفوق بالشفاطة،، وقالت:

ـ"أنا أحبه يا ماري.. لا شك في هذا.."

يطل رأس ماري الصغير من فوق ياقة البول أوفر، وترفع عويناتها على قصبة أنفها وتقول:

ـ"تعرفين أنه فاشل.."

ـ"لا أعرف ذلك"

قالت ماري محاولة أن تتكلم بعقلانية:

ـ"يكتب روايته منذ ثلاثة أعوام. يستطيع أي طفل أن يدرك أن لن يكملها أبدًا.. ليس لديه ما يقال.. وفي كل مرة يكذب ويزعم أنه شارف الانتهاء. هذا لا يحدث أبدًا.. لن تكون هناك رواية"

كانت ساماثتا فتاة حمراء الشعر يملأ النمش خديها.. وكانت

مفعمة بالأحلام كذوات الشعر الأحمر. تعمل رسامة في معرض متخصص في تصميم الأزياء. رقيقة خجول.

قالت سامانتا:

ـ"وهل الرجل هو روايته؟"

ـ"أنت أحببته لأنه كاتب رواية ناجح... مستقبلكما معًا يتوقف على كونه كاتب رواية.. باختصار وجوده يتمحور حول شيء واحد فإذا فقده لم يعد هو"

ثم أضافت:

ـ"اعتزل العالم منذ فترة ويعتكف في بيته المطل على الساحل في (مول أوف كنتاير).. أراهنك على أنه موشك على الجنون.. هل رأيت فيلم (سطوع) لستانلي كوبريك عن قصة ستيفن كنج؟.. الكاتب المنعزل بحثًا عن إلهام بدأ يجن.. ولا نعرف أبدًا إن كان قد جن أم أن هذا مس شيطاني"

قالت سامانتا بطريقتها عندما كانت البنات يضايقنها وهي طفلة:

ـ"أنا لا أهتم بكلامك.. سوف أذهب لأزوره وسوف أجد عنده رواية ممتازة.."

قالت ماري ضاحكة لتغيظها:

-"عمل كثير بلا راحة. يجعل جاك صبيًا متبلدًا"

كانت من جديد تشير لرواية ستيفن كنج الرهيبة. لقد فتشت الزوجة أوراق زوجها لتعرف ما كتبه حتى هذه اللحظة فلم تجد سوى عبارة (عمل كثير بلا راحة. يجعل جاك صبيًا متبلدًا).

كانت سامانتا تنوي زيارة جيروم.. ولم تدر أنها اختارت أسوأ الأوقات طرًا لذلك.

كان جيروم غارقًا في عمله مع الجمجمة الأولى، عندما دق جرس الباب.

صوت الأجـراس اللعين هذا يـتردد في أرجـاء البيت ذي الطابقين.. وعندما أزاح ستار النافذة لينظر لأسفل رأى الفتاة ذات المعطف الأبيض والحذاء ذي العنق واقفة هناك.. شعرها يتطاير مع الريح، بينما الموج يضرب الشاطئ فتحلق النوارس... هذه سامانتا طبعًا..

نظر إلى الجمجمة.. نظر إلى الفوضى والنجمة الخماسية.. نظر

إلى بقع الدم على الجدران. نظر إلى رأس أخته الموضوع في طبق، والذي يبدو كأنه لقطة من لوحة رافائيلية مخيفة. سيكون من الصعب جدًا أن يسمح لها بالدخول هنا، ولو فعل فلسوف تشك كثيرًا.

الأسوأ ألا يسمح لها بالدخول وهذا سوف يزيد الأمور تعقيدًا..

في النهاية نظر لنفسه في المرآة وتأكد من أنه لا يبدو مريبًا.. ثم نزل لها عبر الدرج وهو يردد:

ـ"أنا قادم.."

يعرف هذه المواقف.. سوف تكون هناك بقعة دم كبيرة على قذاله أو ربما يتدلى شيطان من أذنه.. سوف ترى ذلك ثم تذهب لتبلغ الشرطة..

كان مولعًا بهذه الفتاة فعلاً.. لو تزوج يومًا فلسوف تكون فتاة حمراء الشعر مثل هذه.. والنمش!!!.. حدثني أنا عن النمش الرقيق على الخدين يعطيها طابعًا صبيانيًا لا فكاك منه.. إنك تقع على الفور في حبائل هذه الفتاة حتى لو كنت عدو المرأة..

نعم كان مولعًا بسامانتا لكنه كان غارقًا في أعمال مهمة، وكان

لديه الكثير مما يشغله عن موضوع الحب والأزهار والشعر وتكوين أسرة وكل هذا الكلام الفارغ.. عندما يفكر في هذا يشعر بأن له طابعًا أنثويًا لا يليق برجل..

وراء كل عظيم امرأة تخبره أنه ليس عظيمًا لهذا الحد.. هذا صحيح.. لكن الأخطر أن وراء كل عظيم امرأة تحاول ألا تجعله عظيمًا...

كان يفكر في هذا وهو يفتح الباب.. ومن الباب تسرب هواء البحر الكالح المبلل وتسربت هي..

قالت وهي تلثمه على خده:

ـ"جئت أقتحم عزلة الناسك.. هل من أخبار؟"

أمسك بأناملها برفق وقال:

ـ"لا شيء.. عملية البحث عن إلهام قد تطول.. تطول.. هذا لا يقلقني على كل حال.. "

قالت في حذر:

ـ"ما هي اللحظة التي تبدأ في القلق فيها، ويخطر لك أنه لن يكون هناك كتاب آخر؟"

ـ"ما دمت حيًا فاللحظة لا وجود لها.."

كان يكذب..

الحقيقة أن هذه اللحظة جاءته منذ عام ونصف، وقد حاول كثيرًا.. كان يشد شعر رأسه بحثًا عن فكرة، وضرب رأسه مرارًا في الجدار.. ولما أدرك أنه لا جدوى هنالك، وأنه عقيم تمامًا علق لنفسه مشنقة في الحمام وتسلق وكاد يضرب المقعد..

ما حدث هو أنه سمع صوت أخته أماندا من الطابق السفلي.. كانت قد جاءت في هذه اللحظة بالذات، وعرف أنها ستنقذ حياته وأنه لن ينتحر.. ما هو أكثر أهمية هو أن أماندا كانت ترغب في الموت.. ترغب في الموت أكثر منه، وكانت ساحرة تمارس السحر وقرأت فيه الكثير... هكذا ولدت الفكرة ببطء..

أماندا الآن لم يبق منها سوى رأس في طبق بالطابق الثاني، وعليه أن يتخلص من سامانتا قبل أن...

ـ"ماذا تريد أيها الغريب؟؟"

جاء الصوت من الطابق الثاني عاليًا رفيعًا... ثم جاء صوت أنثوي مماثل يسأل نفس السؤال..

كان يعرف مصدر الصوت.. الجماجم طبعًا.. لكن سامانتا لا تعرف ولا يجب أن تعرف.

قالت في دهشة وهي تنظر لأعلى:

ـ"ما كان هذا؟"

ـ"لابد أنه المذياع.. بل هو المذياع طبعًا.. أنت تعرفين تلك التمثيليات السخيفة.."

قالت في حيرة دون أن تبعد عينيها عن الطابق العلوي:

ـ"لم أسمع قط تمثيلية يتلخص حوارها في عبارة: ماذا تريد أيها الغريب؟؟"

كان يشعر بغيظ شديد.. لا يحب التذاكي ولا التدخل في شئون الغير. لسبب ما بدت له الفتاة سمجة جدًا وملحة.. لذا قال لها في برود:

ـ"ليس من عملي مراقبة التمثيليات الإذاعية التي يتلقاها مذياعي"

جلسا في غرفة الاستقبال وصب لها بعض الشراب، وهو يفكر في كيفية الخلاص منها.. في ظروف أخرى كان سيفكر في كيفية

استبقائها، لكن اليوم يوم خاص..

ـ"ماذا تريد أيها الغريب؟"

تبًا!.. هذه الجماجم ثرثارة جدًا.. والمشكلة أن صوتها عال ومسموع بوضوح.. الفتاة تراقب المشهد في فضول..

دق جرس الباب من جديد فارتجف وذهب ليفتحه..

كان هذا ساعي البريد المسن يسعل كعادته، وقد جلب بعض الخطابات.. أخذها منه وشكره وراح يراقب الرجل يبدأ التحرك على دراجته العتيقة..

أغلق الباب وقال:

ـ"كل الخطابات التي تصلني هنا فواتير.. لا أحد يعبأ بأن..."

ثم نظر للخلف فأدرك أن الفتاة ليست هنا..

ـ"سامانثا!!!"

بالطبع ليست هنا.. وبالتأكيد هي في الطابق العلوي تروي فضولها الأنثوي. الفضول الذي عذب آدم منذ بدء الخليقة وجلب له الوبال. ركض مسرعًا إلى الطابق الثاني وهو يرتجف..

قلبه يوشك على الوثب من فمه..

فتح غرفة المكتب.. هنا رأي سامانتا واقفة تنظر في هلع إلى الجماجم السبع.. كانت النافذة مفتوحة وشعرها يطير مع الهواء الثائر.. كانت تحاول الفهم.. لماذا فتحت النافذة يا ترى.؟

التفتت له في رعب وقالت شيئًا.. ثم ابتعدت.. ابتعدت.. هنا اصطدمت بالمنضدة التي يضع عليها الصينية.. نظرت مدققة فأدركتْ أنها ترى رأس أماندا المقطوع وقد شخصت عيناها للسماء كأنها تصلي..

أطلقت صرخة شنيعة وصرخة أخرى.. خارت قواها تمامًا فلم تستطع الفرار..

اللحظة التالية كانت على الأرض بينما جيروم يلصق شريطًا لاصقًا حول معصميها من الخلف.. ويقول لها:

ـ"صه. أنا لا أريد أن أؤذيك.. فعلاً لا أريد أن أخدشك.. لكنك تواجدت في المكان الخطأ والزمن الخطأ.. "

قالت في رعب ممزوج بالدموع:

ـ"ماذا.. ماذا تفعله؟"

قال لاهثًا:

ـ"هذه تجربة.. تجربة معقدة تكلف الكثير من التضحيات، ولا انوي أن أفسدها بصرخة هستيرية منك.. لهذا يجب أن أسد فمك بالشريط اللاصق. أعرف أنك تعانين انسدادًا في الأنف، ومعنى هذا ببساطة أنك سوف تختنقين.. لهذا لن أسد فمك.. أتوقع أن تردي لي هذه المجاملة"

هل أنت مجنون؟.. سوف أصرخ وأصرخ حتى تأتي المملكة المتحدة كلها إلى هذا البيت..

قال جيروم وهو يقيد كاحليها معًا بالشريط اللاصق:

ـ"لن يكون هناك صراخ.. أنت رأيت ما قمت أنا به وما ضحيت به.. معنى هذا أنني جاد جدًا، وانني سوف أقطع لسانك لو صرخت.. أرجو أن تلتزمي الصمت وتراقبي التجربة في هدوء"

تجربة؟.. أي تجربة؟

ينير البرق السماء للحظات، ثم يرتسم ذلك الشرخ في الأفق ويتجه نحو الأرض.. وبعدها يدوي الهزيم الغاضب الحانق...

ينهمر المطر مدرارًا.. بينما يعلن البحر أنه قد سئم محبسه ويحاول أن يتمرد عليه ويغادره. الموج يمتد للشط محاولاً أن ينشب مخالبه

فيه، فلو نجح لزحف البحر خارجًا وارتمى على الصخور يلهث..

(مول أوف كنتاير).. هناك أغنية شهيرة لفريق البيتلز تحمل اسم هذا المكان..

وفي الطابق الثاني من بيت جيروم، كانت أماندا تراقب في هلع تفاصيل التجربة المخيفة التي جاءت من أعمق أعماق كتب السحر القديمة..

كانت التجربة قد بدأت تكتمل فعلاً، عندما جاءت كالبلهاء تبحث عن الحب.. جاءت في لحظة غير مناسبة على الإطلاق، وهكذا رأت بالصدفة الجانب الآخر من جيروم...

"كانت تجد في عينيه الواسعتين براءة غير معتادة، وكانت تحب دهشته من العالم التي يبديها في كل حين". شد ما نجد أنفسنا بلهاء بعد فترة عندما ندرك أننا كنا مخدوعين.

الأسوأ أنها لا تعرف مصيرها.. مقيدة اليدين وحدها مع سفاح قطع

رأس أخته ويمارس طقوس السحر الأسود بعد منتصف الليل. من قال إنها لا تعرف مصيرها؟.. بالعكس هي تعرفه جدًا..

قالت له وهي تشهق وسط الدموع:

ـ"سوف تقتلني طبعًا عندما تنتهي؟"

قال وهو منهمك في طلاء الجمجمة السابعة بذلك الطلاء السري العتيق:

ـ"صه.. لا تقاطعيني"

كان قد ترك فمها حرًا كما قلنا.. الصراخ ممنوع. ليس السبب هو منع الجيران من سماعها، فلا يوجد جيران والعاصفة تمنع أي واحد من سماع أي شيء. فقط هو يريد ألا تفسد صرخاتها الهستيرية جو التجربة..

في النهاية تربع على الأرض وواصل تلاوة كلمات غريبة.. غالبًا هي كلتية الطابع..

ثم إنه مد يده ليشعل الشموع التي كانت قد انطفأت. في كل جمجمة هناك شمعة قصيرة مضاءة في محجر كل عين.. لم تفهم

ساماتنا معنى هذا الإجراء إلا عندما بدأ الصوت ينبعث من أول جمجمة.. هذه الجماجم تعمل عندما تشتعل الشموع. كل جمجمة تعتمد على شمعتيها. لابد أن الشموع كانت مضاءة من قبل..

رائحة الدخان تتسرب للأنوف مع نوع من رائحة الزنخ. هذه الشموع ليست من الشمع بالضبط.. على الأرجح هي من دهن شيء ما.. لا تجرؤ على التخمين.

الآن تسمع الصوت الوقور الغليظ ينبعث من الجمجمة الأولى:

"ماذا تريد أيها الغريب؟؟"

نفس السؤال الملح.. لقد كان قادمًا من هنا...

كان هذا هو الصوت الذي سمعته في الطابق السفلي..

قال جيروم:

"أتاني أنك ستقدم لي العون يا سيد الأدباء.."

ساد الصمت للحظات، ثم عادت الجمجمة تسأل بلكنة أجنبية:

"من يبدأ؟"

"أنت يا سيد الأدباء..."

بدأت الجمجمة تتكلم.. راح جيروم كالملهوف يبحث عن شيء ما.. يقلب أوراقه.. ينهض باحثًا، ثم في النهاية هرع إلى سامانتا وبمطواة صغيرة حرر معصميها من الشريط اللاصق..

تحسست معصميها اللذين تأذيا كثيرًا وقالت:

"هل لي أن أرحل؟"

قال:

"بالطبع لا.."

كانت الجمجمة مستمرة في الكلام بلا توقف، كأنها تعمل بإرادة ميكانيكية.. قال لها جيروم وهو يفتح حقيبتها:

"لا أجد جهاز التسجيل وسط هذه الفوضى، لذا سوف تمسكين بقلم وورقة وتكتبين كل حرف يقال.."

"أنت مجنون.. سوف أهرب"

لكنها كانت تعرف أنها لن تقدر على ذلك.. كانت أسيرة لقواه الجسدية قبل هذا، أما الآن فقد صارت هناك حبال من الخوف في كل مكان من حولها.. لو ركضت في أي إتجاه فسوف تتعثر.. لا تقدر على أن تتجه للباب وتفر فوق الصخور وسط هذه

العاصفة. الأمر أكبر من جيروم.. الأمر يدخل في نطاق آخر مفزع وأقوى من أي تصور.

هكذا راح مزيج من الدموع والمخاط يسيل من عينيها وأنفها ويبلل كل شيء، لكنها راحت تحاول أن ترى الورقة التي تكتب عليها..

كان الصوت يقول بلكنة شبه أجنبية:

"تهب الريح عبر السهوب، بينما الملازم جريجوري راساليف يشق طريقه على جواده محاولاً العثور على أرنب يصطاده وسط هذه الثلج. من بعيد هناك كوخ من أكواخ الحطابين.. وهناك كنيسة صغيرة تراكمت أمامها الثلوج، لكن لابد أن الخوري ساهر حتى هذه اللحظة.. سوف يقرع الباب قبل أن تتجمد أطرافه وقبل أن تصيبه نوبة صرع تودي به"

ما هذا الكلام العجيب؟

هل هذه الجمجمة تحكي قصة؟.. ولماذا يتجشم المرء مشقة السحر الأسود وهذا الدم لتأتي جمجمة تحكي قصة؟ إن الرأس المقطوع يخص أخت جيروم، وهذا يعني أن التضحيات لم تكن هينة..

توقفت الجمجمة عن الكلام فقال جيروم:

"فاتني جزء لا بأس به. لكني سأحاول تخمينه.. تكلم يا سيد الرواية. مستر ديكنز"

❁❁❁

هنا جاء صوت من الجمجمة التالية.. صوت عميق يتكلم بإنجليزية ممتازة:

"هكذا وسط هذه الثلوج وهذ القر، كان يفكر في كل الغلمان البؤساء الذين يتجمدون ويقتلهم الطوى في الأزقة الخلفية في هزيع الليل الأخير دون أن يجدوا كسرة من الخشنكان، وحتى في الميتم لم تك المعاملة أفضل حالاً..تذكر المستر جينسبورو مدير الميتم بسوالفه الكثة، وخديه الأحمرين والقبعة العالية التي لا ينزعها وزهرة البنفسج في سترته. هذا الرجل لم يكن ممن يمنحون الكرم ولا لطف المعشر إلا نثيشًا"

توقفت الكلمة في حلقها فقال جيروم:

-"نثيشًا.. يعني (نادرًا).. الخشنكان هو البسكويت. هذا الرجل لا يستعمل إنجليزية سهلة أبدًا. "

"قلت إن اسمه.."

قال بلهجة من لا يجد أي شيء غريب في الأمر:

"تشارلز ديكنز.. من الذي لا يعرفه؟"

هل جن الجميع؟.. هي متأكدة من أن جيروم مجنون لكن هل جنت هي الأخرى؟.. هنا انتقل الكلام للجمجمة الثالثة التي كانت تتكلم بصوت رفيع لأنثى:

"اقترب من باب الكنيسة ودق الباب عدة مرات، بينما قلبه يتواثب طربًا.. ما سبب هذا السرور الذي أضناه؟.. لم يعرف.. حاول أن يتذكر فلم يوفق. فقط انتابته حالة من الانتشاء لا قبل له بها.."

قال جيروم:

"شكرًا يا كاترين.. تذكري أننا نتكلم عن ملازم خشن من جيش القيصر.. هذه هي البداية التي اختارها دستويفسكي"

قالت الجمجمة في ضيق:

-" لن يظل في جيش القيصر.. أنت ستغير أشياء كثيرة فيها بعد.. والآن هل أكمل؟"

-"أفضل الانتقال إلى لافكرافت... "

هنا بدأت الجمجمة التالية تتكلم بصوت كئيب عميق:

"كان يعرف.. يعرف كل شيء عن الآحاد القدامى الذين يتوارون تحت البحر، والذين ينتظرون اللحظة النهائية كي يخرجوا.. كتولو هناك وأزوث هناك... اليوم بدا للملازم أنه اقترب من الهول أكثر وأن نهاية العالم تقترب، لذا انعقد لسانه على رعب لا فكاك منه"

هنا توقفت سامانتا عن الكتابة..

نظرت له في هلع وقد تجمدت الدموع في عينيها وقالت:

"جيروم.. هل الأمر كما فهمته فعلاً؟"

قال جيروم وهو يرتجف من فرط الانفعال:

"نعم.. بالضبط... إن روايتي العظمى تكتب الآن!"

* * *

"الضباب يأتي من ناحية البحر..

أرغب دومًا في أن أكون هنا.

سافرت كثيرًا ورأيت الكثير..

رأيت جبالاً سوداء وأودية خضرًا.. ورأيت نيران الغروب على الصحاري.

لكني أعود دومًا إلى مول أوف كنتاير (أغنية لبول مكارتني)

❦ ❦ ❦

بعد ساعة بدأت سامانتا تدرك ترتيب الجماجم.

الجمجمة الأولى هي دستويفسكي.. تتكلم مثله وتفكر مثله..

الجمجمة الثانية هي تشارلز ديكنز..

الجمجمة الثالثة هي كاترين مانسفيلد الكاتبة الأمريكية الرقيقة المفعمة بالأحاسيس، ذات الجسد السقيم المريض..

الجمجمة الرابعة هي لافكرافت.. أديب الرعب الأمريكي العبقري..

الجمجمة الخامسة تمثل فكتور هوجو.. عبقري الرواية الفرنسي..

السادسة تمثل توماس مان.. الأديب الألماني العظيم..

السابعة تمثل كازنتزاكس الأديب اليوناني الرائع.

بيني وبينك أشعر بغيظ لأن المجموعة لا تضم أديبًا عربيًا، والسبب طبعًا هو أن جيروم لا يعرف أدبنا. لكن لربما كان هذا أفضل.. لا

أحب أن يُستعمل أديب عربي في هذا العبث بالسحر الأسود..

كانت سامانتا ترتجف وهي تواصل الكتابة.. لقد مرت ساعة أو ساعتان ويدها لا تتوقف. ومع لوقت بدأت القصة تزداد طولاً وصارت هناك شخصيات واضحة. ولم تدر متى ولا كيف وجدت جوارها صحفة عليها بعض الشطائر وقدح من القهوة الساخنة. لا.. شكرًا.. آخر مكان يمكن أن تتناول فيه وجبة خفيفة هو المكان الذي يحملق فيها فيه رأس مقطوع لامرأة.. مكان يفوح برائحة الموت والدم. لكنها بعد تردد وجدت أنها بحاجة للقهوة فعلاً... ذلك المشروب السماوي الذي بالتأكيد جاء من مجرة أخرى.

رشفت رشفة وتنهدت بقوة..

جلس جيروم ماكبرايد أمامها وراح يرمقها بعينين صامتتين. كانت تعرف الآن أنها صارت مشكلة حقيقية.. لابد أن يتخلص منها فهي قد صارت تعرف أكثر من اللازم. ليتها لم تأت. ليت الفضول لم يغلبها. لكن لا بأس.. لربما كان هذا أفضل.. أن تعرف الحقائق الآن لخير من أن تعرفها فيما بعد.. بعد الزواج مثلاً.

قالت له بصوت خافت:

ـ"هل هذه هي جماجم هؤلاء الأدباء فعلاً؟"

تأمل أظفار يده وقال:

ـ"بالطبع لا.. كيف أجد جمجمة دستويفسكي وفكتور هوجو؟.. هذه طريقة سحرية تحبس أفكار هؤلاء في هذه الجماجم.. كان الشعراء الوثنيون في شمال البلاد يستخدمون هذه الطريقة في استجلاب الأفكار والإلهام"

ـ"وذلك مقابل؟"

نظر لرأس المرأة المقطوع وقال:

ـ"مقابل ثمن باهظ جدًا.. لابد أولاً من تقديم قربان وحشي لبلفاجور. لكن أماندا علمتني الطريقة، وطلبت مني أن أريحها من حياتها القاسية المملة.. كان هذا عملاً يجمع بين الانتحار وتقديم خدمة لأخيها الصغير"

قالت وهي ترتجف للفكرة:

ـ"كل هذا من أجل رواية؟"

ـ"أعظم رواية في التاريخ.. رواية اشترك فيها سبعة من أعظم أدباء الأرض.. الأمر يستحق"

-"لكنك لم تكتب حرفًا.. كتبت ما يملى عليك فحسب.. أنت مجرد سكرتيرة"

اتجه للنافذة المطلة على البحر وراح يرمق الأمواج الغاضبة من وراء الزجاج، ثم قال بعد تفكير:

-"في الحقيقة.. عملية الإلهام نفسها نوع من تلقي ما يملى عليك.. سلي عن هذا أي أديب موهوب. في لحظة من اللحظات يتحول إلى قلم تكتب به يد خفية. أنا قد بحثت عن أفكار في عالم الأبدية ووجدتها.. وضحيت بالكثير من أجل ذلك. إذن أنا أستحق المجد"

-"والتجانس؟"

-"أي تجانس؟"

-"كل أديب يكتب أفكاره ويستخدم مفردات عالمه.. لا تتوقع أن تتجانس هذه الأفكار لتصنع رواية متكاملة مقنعة. لاحظ أن دستويفسكي يتكلم عن أكواخ الحطابين و الملازم جريجوري راساليف، بينما ديكنز يحكي عن أطفال الشوارع والميتم.. وكاترين مانسفيلد غارقة في عوالمها الأنثوية المرهفة.. ما زال لافكرافت لا يتكلم إلا عن الكيانات القديمة تحت المحيط وكتولو.. لا شك أن

فكتور هوجو يتكلم عن عوالم الثورة الفرنسية.. "

ضحك ضحكة وحشية وقال وهو يشير لرأسه:

ـ"الآن كل هذا يدخل الخلاط هنا.. هنا.. من ثم أصنع منه مزيجًا متجانسًا غير متناقض.. الملازم جريجوري راساليف سوف يصير رجل شرطة اسكتلنديًا.. قرية كازنتزاكيس اليونانية سوف تصير مول أوف كنتاير"

ثم استدار وأعلن أن وقت العودة للكتابة قد حان.

❀❀❀

كل شيء كان مخيفًا وغريبًا.. لكنه كذلك يستحق المشاهدة.

في ظروف أخرى كانت سامانتا ستقول إنها تجربة مثيرة، لكن السأم استبد بها وتحول ظهرها لقطعة حديد.. مع الوقت فقدت وقارها فنزعت حذائيها وصارت تجلس كأنها لاعب كرة قدم بين الشوطين وليس كأنثى. المشكلة الأخرى هي أنها لم تكن تعرف مصيرها.. ليس بوسعك أن تؤدي أي عمل وأنت لا تعرف مصيرك بعد ساعة.. جثة ممزقة أم حي ترزق.

واصلت الكتابة بلا توقف..

في الساعات الأولى من الصباح بدأ رأس جيروم يتأرجح ثم نام..

لاحظت أن النيران تتوهج في المدفأة وصارت هي المصدر الوحيد للضوء. وبدأت الشموع تقصر وتنطفئ.. لاحظت أن كل جمجمة تنطفئ الشموع في محجريها تصمت..

مع الوقت بدأت تأمل..

سوف أغادر هذا البيت اللعين.. سوف أمشي بضعة أميال وأجد.. أجد فلاحين أو صيادين أو رجل شرطة على دراجة..

في خفة القطط نهضت.. اتجهت إلى الباب.. نظرت إلى الخلف فلم يحدث شيء ولم يتحرك جيروم.

فتحت الباب في خفة وخطت إلى الخارج.. عليها أن تهبط في الدرج بهدوء وعسى ألا يحدث الخشب صريرًا.. لو حالفها الحظ فلسوف تصل لبر الأمان خلال نصف ساعة. أما إن اكتشف محاولتها!!!.. سوف تكون طريقته في إسكاتها قاسية جدًا..

اللعنة على جيروم وعلى الحب وعلى مول أوف كنتاير كله..

إنها فتاة بلهاء وثقت بالحب أكثر من اللازم. ويا ليتها وجدته غارقًا في خيانتها!.. وجدته منهمكًا في طقوس السحر الأسود!!

الآن هي في أسفل الدرج تتجه بخفة إلى الباب.. سوف تخرج بعد لحظات..

سوف..

فجأة دوت صرخات حادة من الطابق العلوي...

ـ"الفتاة تهرب!.. الفتاة تهرب!"

تبًا.. هذه لكنة ألمانية واضحة.

توماس مان أيها اللعين.. ظلت شمعتك مشتعلة ولم ألحظ هذا!

❦❦❦

الضباب يأتي من ناحية البحر..

أرغب دومًا في أن أكون هنا.

سافرت كثيرًا ورأيت الكثير..

رأيت جبالاً سوداء وأودية خضرًا.. ورأيت نيران الغروب على الصحاري.

لكني أعود دومًا إلى مول أوف كنتاير (أغنية لبول مكارتني)

❦❦❦

تجري فوق الصخور.. بثوبها الأبيض تبدو كأنها يمامة بيضاء تهشم جناحها..

تنزلق قدمها فوق الحواف الحادة ويتناثر الزبد أكثر..

لا تستطيع الركض بالحذاء ذي الرقبة فالأرض زلقة، لكن لو نزعت الحذاء لشطرت الصخور قدمها نصفين.. إن جو الفجر البارد الأزرق يغلف كل شيء، ومن بعيد ترى فنارًا مضيئًا.. ذلك الطابع الرهيب الموجس لأنوار الليل عندما تظل مضاءة مع زحف نور الصباح.. يبدو المشهد كله كأنه كابوس سوف تصحو منه في لحظة ما..

تعثرت وسقطت على الصخور. استطاعت أن ترى خيط الدم يجري من ساقها ليبلل الصخرة المغطاة بالطحالب...

لا يهم.. لا تكوني بلهاء هستيرية.. يجب أن تهربي يا فتاة.. لابد أنه صحا من النوم.. لابد أنه مسعور.. لابد أنه يحمل السكين العملاقة ويبحث عنك...

توماس مان صار ثرثارًا... شمعته ظلت حية وكان هذا خطأ جسيمًا...

ترى إلى أي اتجاه تمضي؟.. فقط لو تشرق الشمس أخيرًا بعد ما غابت عدة قرون. سوف يبدد نورها هذا الخوف، ولسبب ما كانت قد بدأت تعتقد أن جيروم لا يعمل أي شيء في الشمس.. إنه كائن طيفي أقرب لمصاصي الدماء.. غالبًا هذه هي الحقيقة.. لابد أنه لا يستطيع عمل أي شيء إلا ليلاً.

تعثرت من جديد...

هناك فجوة بين الصخور تغطيها شجيرة صغيرة.. حاولت أن تتماسك لكن قدمها انزلقت، وسرعان ما وجدت نفسها تتدحرج لأسفل. الأغصان تتهشم.. تحاول أن تمسك بأي شيء بلا جدوى...

القاع عميق فعلاً.. ها هي ذي ملقاة في القاع مهشمة العظام ممزقة الأوصال تلهث. وتحاول أن تعرف ما حل بجسدها. أقسمت لنفسها أنه مهما كان ما سيحدث فهو خير من البقاء في البيت ومساعدة جيروم في تلك الرواية الرهيبة. الرواية التي كتبتها الشياطين..

إن كاحلها ملتو.. لا بأس.. هذا أفظع شيء حدث.. لا مشكلة سوى أن عليها أن تظل هنا فترة طويلة فعلاً. ربما إلى أن يلقي

ﻫ م أو صبي كشافة بنظرة إلى الفجوة..

الكان مظلم بشدة.. لكن عينيها سوف تعتادان هذا..

المرء فاس جدًا.. ويلقي بك في أماكن غريبة..

قالت ماري منذ يومين (أهما يومان حقًا؟):

"امتزل العالم منذ فترة ويعتكف في بيته المطل على الساحل في

(مول أوف كنتاير).. أراهنك على أنه موشك على الجنون.. هل

رأيت فيلم (سطوع) لستانلي كوبريك عن قصة ستيفن كنج؟..

الكاتب المنعزل بحثًا عن إلهام بدأ يجن.. ولا نعرف أبدًا إن كان

قد جن أم أن هذا مس شيطاني"

الآن تعرف الإجابة..

❦ ❦ ❦

جيروم راح يبحث كالمخابيل..

راح يركض في المكان ويثب فوق الصخور.. ويركل كل شجيرة

بقدمه. لو رأى نفسه أمام عينيه لذبحه ذبحًا.. كيف يسمح لنفسه

بأن ينام في تجربة مهمة كهذه؟. والأسوأ أن الشموع انطفأت

كلها..لابد أن الإرهاق والتوتر العصبي غلباه في النهاية.

سامانتا فرت.. وبالتأكيد هي في طريقها إلى الشرطة.. معنى هذا أن كل شيء قد انتهى.

لماذا وثق فيها وفك وثاقها؟... كان بوسعه أن يربطها.. يربط ساقها على الأقل..

الآن لو أنك رأيت جيروم لتجمد الدم في عروقك. هذه النظرة المجنونة والعين المحمرة والفم المفتوح.. لقد صار شيطانًا أو أقرب إلى شخصيات لافكرافت التي قضت حياتها في قراءة كتب السحر الأسود فجنت مع الوقت..

توقف فجأة إذ رأى شيئًا..

كان هناك منحدر وعر يقود إلى البحر.. الموج الثائر ينتثر... وهناك بين الصخور يرى ذلك الحذاء الأبيض.. الحذاء ذا العنق..

بدأ يشعر ببعض الراحة. لا يمكن لمخلوق أن يجتاز هذه الصخور عاري القدمين، ومعنى وجود الحذاء هنا أن سامانتا لم تعد بيننا... على الأرجح انزلقت قدمها وسقطت في البحر. لا يمكن لمخلوق أيضًا أن يسقط فوق هذه الصخور ويظل حيًا. بالتأكيد فقدت وعيها ثم تكفل الموج بباقي المهمة. حاول أن يتذكرها رقيقة نضرة

. اسمه.. حاول أن يتذكر أنه كان يحبها.. لا يدري السبب لكن هذا الجزء من روحه تلاشى تمامًا... لا يعرف سوى أنها فتاة كانت تعني عليه..

هناك أمل إذن...

بدأ يهدأ نوعًا واتجه إلى البيت وألقى نظرة اخيرة على المشهد. ضوء النهار قد ملأ المكان لكن العاصفة لم تهدأ. سوف يعود لداره ويواصل كتابة القصة...لكنه مرهق فعلاً.. سوف ينام بقية اليوم ثم يواصل العمل ليلاً...

❀❀❀

سامانتا في ذلك الوقت كانت في أسوأ حالاتها..

جائعة. تشعر بالبرد ويعتصرها الألم. تحاول جاهدة أن تزحف للخارج لكن كاحلها يجعل أي حركة مستحيلة..

عندما استطاعت أن تسترخي قليلاً جلست متكورة جوار الجدار.. الجدار عبارة عن نوع من الطفلة أو صخر هش جدًا لا تعرف اسمه..

راحت تدق بقبضتها فتساقط الكثير من الغبار. ثم بدأت تدرك

أنها في الحقيقة تزيح الغطاء عن أشياء كانت موجودة في هذه الفجوة..

واصلت الدق.. لن أزعم أنها شجاعة إلى هذا الحد، لكنها كانت ترغب في أن تجد ممرًا يخرجها من هذه الفجوة..

كانت تفكر في الثعابين. يزعمون في إيرلندا أنه لا توجد ثعابين لأن القديس باتريك طردها كلها من البلاد.. لكننا لسنا في أيرلندا. ماذا لو تحرر ثعبان من مكان ما؟

لكن ليس لديها الخيار.. يجب أن تواصل المحاولة..

أخيرًا بدأ الغبار يسقط.. وبدأت تصنع فجوة أخرى في جدار الفجوة. كانت عيناها قد اعتادتا الظلام لذا رأت وجه المومياء الذي يحدق فيها.. وأدركت أن هناك جثثًا أخرى..

هذه مقبرة إذن.. مقبرة منسية لا يعرف أحد أنها هنا..

مرحبًا بك يا سامانتا في مول أوف كنتاير حيث طريقة الاستمتاع بالوقت هي قضاء يوم مع الجثث المتحللة...

كانت تفكر..

سوف يفتقدونها بعد قليل وتتذكر ماري أن آخر مشاريع سامانتا كان زيارة جيروم في بيته. سوف يأتون وسوف يبحثون عنها.. هذا أكيد.. لكن هذا سوف يستغرق وقتًا طويلاً جدًا.. ربما العمر كله.. لن تكون هنا كي تراهم يقتادونه إلى المصحة العقلية.. سوف تكون تحت الأرض..

كانت ترتجف.. الألم يعتصر كاحلها..

جائعة.. تشعر ببرد شديد.. خائفة..في أسوأ حالاتها.

هناك على بعد خطوات منها تلك المومياوات التي يبدو من مظهرها أنها عتيقة جدًا.. على الأرجح هي تنتمي لزمن لم تكن فيه إنجلترا أصلاً..

لحسن الحظ أن الأمطار توقفت وأن هذه البقعة معزولة عن الماء.. كانت لتجد نفسها في ألعن موقف ممكن، لو كانت غائصة في الوحل.

***

رأيت جبالاً سوداء وأودية خضرًا.. ورأيت نيران الغروب على الصحاري.

لكني أعود دومًا إلى مول أوف كنتاير

❊❊❊

كلما أزالت غبارًا أكثر تساقطت أجزاء من جثث.. أجزاء عظمية أقرب للتراب، وهذا بلا شك ساعدها على أن تظل متماسكة عصبيًا. طلاب الطب يحكون عن زيارتهم الأولى لقاعة التشريح، عندما كانوا يجدون أن الجثث أقرب إلى تماثيل خشبية لها رائحة كيمائية حارقة للعينين لكنها غير مقززة.. هذا يساعدهم على الصمود.. لو كانوا يتعاملون مع جثث طازجة متعفنة لصارت حياتهم جحيمًا.

كانت تشعر أن هذا كله غير حقيقي وأن هذه تماثيل. وبرغم الإضاءة الواهنة فقد قدرت أن هذه ثياب عتيقة فعلاً.. صحيح أن القماش بال ذائب تمامًا لكن ما بقي منه يدلك على عصر قديم كان النسيج فيه يتم يدويًا..

في مول أوف كنتاير عليك أن تظل صامدًا لأنك لا تقدر على الحركة.

لكنها في النهاية استطاعت أن تنتزع غصن شجرة يبرز من طبقات

الغبار.. شدته نحوها فاكتشفت أنه مهشم.. هكذا مزقت جزءًا من ثوبها وثبتت الغصن إلى كاحلها.. جبيرة مرتجلة لكنها فعالة. ثم مدت يدها تبحث عن غصن آخر. تمكنت من أن تنتزعه.. طويل ويصلح كعكاز..

هكذا بدأت تحاول أن تتسلق الحفرة.. ربما تنجح.. واهنة جائعة خائفة لكنها ستنجح.. لماذا؟.. لأنها واهنة جائعة خائفة. الأسباب التي تحتم فشلها هي ذات أسباب نجاحها.. ليس لديها ما تفقده....

❦ ❦ ❦

عندما نهض جيروم من نومه تناول وجبة خفيفة..

عاد إلى الغرفة حيث الجماجم تنتظره وكان يحمل رزمة ورق وقلمًا.. يعرف أن عليه الانتهاء سريعًا من القصة قبل أن يتعفن الرأس المقطوع. معنى هذا أنه سيكون عليه تقديم تضحية أخرى ليكتب روايته التالية..

غرس شموعًا جديدة في المحاجر وأشعلها، ثم جلس يراقب اللهب حتى استقر.. هنا سمع صوت جمجمة فكتور هوجو تقول:

ـ"هبت الريح من جديد، بينما الماركيز الشاب يتحسس مقبض سيفه.. كان يعرف أن هناك حشدًا من اليعاقبة يحيط بالقصر، وكان يعرف أن معنى اعتقاله هو المقصلة بلا شك. لذا قرر أن يبيع حياته غاليًا، لكن ما كان يؤرقه هو مصير حبيبته الرقيقة بياتريس"

هنا قال لافكرافت:

ـ"ككل سكان نيو انجلند، كان يحمل ذلك الطابع الكئيب الجهيم كأنه جاء من خلف الظلال. بشرة لم تر النور قط وعقل أفناه في قراءة كتب السحر العتيقة، وكان يصحو من نومه راجفًا والعرق يغمره. لكنه لم يحك لي قط قصة تلك الجثث التي وجدها في قبو داره والتي كانت تتحرك وتملأ البيت في ليالي الشتاء... "

قال دستويفسكي:

ـ"ولأنه يهوى القمار وشرب الخمر فقد طردوه من الفرقة.. وبرغم هذا أصر على الذهاب لذلك الحفل الذي يؤمه ضباط القيصر. وهي مخاطرة كبرى لأن هذا قد يعرضه للمحاكمة، لكنه لم يعد يبالي.. ما دام سيلقى هناك أولانوفنا الحسناء وأباها الجنرال. ولكنه لم يذهب للحفل لأن نوبة من الصرع هاجمته قبل الذهاب هناك"

قال جيروم في ضيق:

ـ"الصرع كالعادة. عندما أقرأ قصصك يا سيد الرواة أشعر كأن الصرع نوع من الزكام. لا أحد ليس مصابًا بالصرع"

ثم التفت نحو ديكنز طالبًا استكمال القصة..

كان البيت كله مظلمًا.. ومن الخارج بدا كأنه شبح يقف هناك مطلاً على البحر. لكنك كنت ترى نافذة وحيدة تتوهج بضوء خافت.. ضوء شموع أربع عشرة، تتراقص في أربعة عشر محجرًا..

***

وهناك بين الشجيرات ارتمت سامانتا ممزقة الثياب تلهث وتبكي. لقد صار وجهها كأنها كانت في مستنقع.. تحتاج إلى عدة أشهر كي تسترد نضارتها القديمة ويعود النمش لوجهها..

أما الآن فهي قد غادرت الحفرة وأخيرًا يمكنها أن تواصل الهرب..

لكن عليها أن تكون حذرة في هذا الظلام.. لها ساق مهيضة وتتوكأ على غصن شجرة..

نظرت إلى البيت والنافذة وارتجفت..

التجربة المخيفة مستمرة كما هو واضح...

وفجأة شعرت بالأرض تهتز..

ماذا يحدث؟..

توارت بين الشجيرات وهي لا تفهم ما يحدث. وللحظات خيل لها أنها تهذي. لقد كانت الأرض تنهار في عدة مواضع.. ومن كل انهيار ترى يدًا عظمية تخرج باحثة عن شيء ما، واستطاعت أن ترى الحفرة التي خرجت منها منذ نصف ساعة..

كانت هناك أشياء تتحرك.. تتجه للخارج...

وفي الظلام الدامس استطاعت أن تميز أشياء عديدة تمشي في ضوء النجوم.. تملأ منطقة الشاطئ.. ماذا يحدث هنا؟ كادت تصرخ ثم قررت أن تعض على الغصن الذي تتوكأ عليه.. لا تريد أن يصدر منها أي صوت..

ترى هذه الأشباح تترنح.. تمشي.. تزحف.. كلها تتجه نحو البيت...

سمعت خشبًا يتهشم.. ثم رأت هذه الأشياء تتسلل إلى الداخل.. عددها يفوق قدرتها على الحصر..

مرت لحظات ثقيلة ثم سمعت الصراخ. صراخ جيروم بالذات..

هذا صراخ مريع كأنه شخص يذبح....

لقد مات.. لم تعرف ما حدث لكنها لا تملك أدنى شكوك أنه مات..

ومع الصراخ سمعت صوتًا غير بشري.. كأنها مخلوقات جاءت من سقر تضحك متلذذة..

وكان هذا كافيًا كي تجد السير مسرعة.. تثب وثبًا فوق ساقها السليمة. قبلها يوشك على التوقف رعبًا.

ولا تعرف كيف فقدت الوعي.. لكنها فقدته..

❧ ❧ ❧

قالت دكتورة كريستين التي قضت حياتها في دراسة الماورائيات، والتي طلبتها سامانتا في المستشفى:

ـ"لقد مزقوه تمامًا... تحول إلى سمكة متفسخة.. "

سألتها سامانتا وهي تريح ساقها على مقعد في الحديقة:

ـ"من هم؟.. أنا رأيتهم لكن لا أعرف من هم"

أشعلت د. كريستين لفافة تبغ طويلة بنية قوية الرائحة وقالت:

ـ"رجال الشرطة وجدوا المخطوطات وطلبوا رأيي.. ما رأيته هو أن جيروم استعمل ضروبًا من السحر الذي كانت القبائل الكلتية تمارسه في شمال البلاد قديمًا.. هذه هي العقيدة الدرويدية Druidic.. وكان هؤلاء القوم يعبدون إلهًا يعتبرونه سيد الموتى.. اسمه (ساوين).. ما فعله جيروم هو أنه أعاد تقليدًا من السحر الأسود كان يمارس في الهالوين"

قالت سامنتا محتجة:

ـ"مالنا والهالوين؟.. الهالوين هو آخر يوم في أكتوبر.. "

ـ"جيروم خطيبك جعل اليوم يحدث في غير تاريخه.. التعويذة التي استعملها تتيح له استدعاء أرواح الموتى لتسكن تلك الجماجم.. لكن استعمالها ثلاث مرات يعيد الأسطورة القديمة. يقال إن ساوين كان يستدعي أرواح الموتى جميعاً في هذا اليوم ليتولي تنسيقها.. كان الكلت يهابون هذه الليلة ويستعدون لها بالنيران في الخلاء والأقنعة وربما بعض الأضحيات البشرية.. يقال أيضاً إن أرواح الذين ماتوا في العام الماضي تخرج بحثاً عن أجساد حية تسكنها.. في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت!"

هتفت سامانتا في رعب:

ـ"هل تريدين القول إن....؟"

ـ"كانت الأسر الكلتية في تلك الأيام تطفئ النيران في ديارها، لتصير البيوت باردة غير مريحة للأرواح. إذن نحن قادرون على تخيل ما حدث.. جيروم استدعى التعويذة ثم ظل في داره.. كان عليه أن يلجأ للخلاء ويمضي الليل هناك مثلك.. اقتحموا الدار عليه.. لهذا وجدوه.. لهذا مزقوه.. "

ثم أردفت الدكتورة وهي ترشف قهوتها وتخرج شيئا من حقيبتها:

ـ"لو صدقنا هذه القصة وهو ما أميل له، فلنا أن نقول إن هذه الرواية غير المكتملة التي كتب نصفها بخطك ونصفها بخط جيروم، والتي بلل دمه صفحاتها الأخيرة.. يمكن القول إنها فرصة لن تتكرر في تاريخ الأدب ثانية، وإنني لأرجو أن تسمحي لي بالاحتفاظ بها. ربما يقرر أحدهم يومًا أن يعيد التجربة، لكن عليه وقتها أن يتأكد من أن الأرض التي يمشي فوقها لا تعج بجثث الأجداد، وأن سحر الدرويديين لا يعمل!"



الشيء في الصندوق

وهكذا قضت أيامها الأخيرة في محاولة الخلاص من هذا الصندوق.. جربت طرق التدمير كلها، وفي النهاية أدركت أن الصندوق والقصيدة أقوى من الجميع.. وعرفت أن عليها أن تدفن هذا الصندوق معها.. فقط في كفنها وتحت الأرض لن يجده أحد.

فريشت.. فريشت.. فريشت..

الصوت يحطم الأعصاب. يمكنك أن تجن بلا مبالغة. هناك تلك النغمة المكتومة، وهناك ذلك الإحساس القوي بالتربة الرطبة.. قليلة هي الأصوات التي تنقل لك رائحة العفونة، لكنها الحقيقة..

فريشت.. فريشت.. فريشت..

كلب ينبح من بعيد وهو مولع بأن يطيل نغمة النباح لتتحول إلى عواء طويل موحش. أما عن ذلك الصوت فأنا لم أسمع صوت البومة إلا في السينما.. ربما كانت بومة.. لو لم تكن فهي كارثة..

على ضوء الكشاف يعمل اللحاد في فتح القبر. لا تراه إلا بصعوبة، لكنك تعرف مهمته المشئومة.. بينما يقف خارج القبر متوجسين يتلفتان في ذعر، هشام وصلاح.. أخوان.. يمكنك أن تدرك هذا من الملامح المتشابهة..

هذه ملامح أكلة لحوم بشر أو مصاصي دماء.. لا شك في هذا.. الوجه الأسمر والنظرات الزائغة والخدان الغائران.. الحقيقة هما ليسا مصاصي دماء بالمعنى الحقيقي بل بالمعنى المجازي.

هشام يمسك بلفافة تبغ متوترًا وينفث كميات دخان لا يمكن وصفها.. السبب هو انه يريد أن ينسى الرائحة الكريهة الخانقة. صلاح لا يدخن، لذا لف أنفه بمنديل وحاول ألا ينظر..

فريشت.. فريشت.. فريشت..

الهواء يدخل إلى العمة التي توفيت منذ أسبوع.. طبقة الأسمنت ما زالت هشة بليلة من الداخل. الرائحة قاتلة.. وفكرة أن تفتح العمة عينيها القاسيتين لتقول لهما:

ـ"مش عيب كده يا ولد منك له؟"

لن يعيشا بعدها. سوف يسقطان ميتين.. هذا أكيد.

لكن اللحاد بالداخل، وهو يعرف ما يفعله.. مع اللحاد أنت مطمئن. الطمأنينة الرتيبة للاحتراف.. هذا أقوى من أي شبح أو مسخ. هناك على الأرض بعد من لا يخافون الموتى.. من يؤمنون أن هذا القبر لا يحوي إلا بروتينًا متحللاً وكبريتًا وكربونًا وهيدروجين..

سحابة دخان أخرى..

أخيرًا تظهر الساقان النحيلتان للحاد وهو يخرج، بالطبع يمارس عمله

بالكلسون الداخلي، وعندما يخرج تدرك أنه رجل نحيل ضامر..

ـ"سيجارة!"

ناوله هشام سيجارة بيد راجفة وأشعلها له. جفف اللحاد عرقه وسحب نفسًا عميقًا ثم قال:

ـ"هذه هي.."

في يده كان الصندوق الصغير.. الصندوق الذي يذكرك بعلبة شاي مبطنة بالقطيفة. بالطبع صارت لهذا الصندوق أهمية سيكولوجية ثقيلة بعد ما ظل في كفن الفقيدة أسبوعًا كاملاً. لقد اتسخ بتابو الموت لو كنت تفهم ما أعنيه..

كانا يعرفان أن الصندوق يحوي سرًا مهمًا.. ويعرفان أن العجوز ظلت تحتفظ به حتى آخر لحظة في حياتها، ويعرفان أنها طلبت أن يدفن معها فلا يراه أحد سواها..

كان الصندوق مفعمًا بالاحتمالات.. صندوق بهذا الحجم لا يمكن أن يضم مالاً.. على الأرجح يضم حجرًا نفيسًا أو قطعة حلي لا تقدر بثمن. إن أسرة الفقيدة نفذت الوصية حرفيًا.. العمة لديها أغبى مجموعة من الأولاد يمكنك أن تجدها في حظيرة.. لم يخطر

ببال أحدهم ان يفتح الصندوق أو يلقي نظرة. نفذوا وصية أمهم حرفيًا وخاطوا الكفن على السر..

حسن.. هناك أشخاص لا يقبلون الأمور كمسلمات. هذه هي العجينة التي جاء منها المستكشفون القساة الذين ذبحوا شعوب أمريكا الجنوبية، ولم يكن هشام وصلاح يحبان عمتهما البتة، كما أنهما كانا من الطراز.. لن أقول الطراز المفلس... بل هما من الطراز الذي تتجاوز طموحاته وشهواته دخله. هكذا وجدا أنهما يرغبان فعلاً في معرفة محتويات ذلك الصندوق...

لن يؤذي هذا العمة العزيزة.. الشاه لن يضيرها سلخها بعد ذبحها، والقصة كلها رمزية على كل حال.. تغيير وصية ميت أمر ذو قيمة معنوية أخلاقية لا أكثر.

وعندما أخذا الصندوق كانا يشعران باحتقار بالغ نحو اللحاد برغم كل شيء.. كل اللحادين لصوص قبور بطبعهم، وهم مستعدون لبيعك لمن يطحن عظامك ليجعلها سمادًا أو لطلبة الطب أو لمن يطعمك للخنازير.. لكن يظل السؤال قائمًا: هل فتح اللحاد الصندوق؟.. هل أخذ شيئًا ما؟

احتمال قائم خطر.. لكن كيف يثبتان العكس؟.. خطر لهما على كل

حال إن الوقت ضيق.. لم يجد اللحاد فرصة ليسرق ما في الصندوق.

وأخيرًا نقدا اللحاد ماله، واتجها بالصندوق المريع نحو البيت..

❀ ❀ ❀

لدى الأخوين شقة مفروشة يقيمان فيها بعيدًا عن باقي الأسرة، وبما أن مزاجهما واحد فقد كانا يتبادلان ساعات استخدام الشقة.. الليلة هما بحاجة لأن يكونا معًا..

عالج هشام الصندوق.. كان هناك مسمار محوي صغير يغلقه فرفعه، وألقى نظرة للداخل. رائحة العمة العطرية الخفيفة تملأ داخل الصندوق فعلاً.

أخرج وريقة صغيرة مطوية من داخل الصندوق.. ثم بدت على وجهه خيبة الأمل.. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.. فتح الصندوق بقوة، ثم استل سكينًا فراح يمزق أستار الصندوق.. بعد لحظات تحول الصندوق إلى نفايات.. لا يوجد شيء..

همس صلاح وهو يرتجف:

ـ"افتح الورقة"

بيد واحدة فتح هشام الورقة الصغيرة، وقرأ بصوت عال:

ـ"هذا شعر.. بيتا شعر يقولان:

ولما تـوارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا
دعت لي بسلوى وصبر جميل إذا ما الوصال غدا مستحيلا

قال صلاح في خيبة أمل:

ـ"ما هذا الكلام الفارغ؟"

قال هشام محاولاً الفهم:

ـ"صبرًا.. هذه قصيدة.. هناك شفرة كالعادة.. شفرة كلمات معينة تقود لمكان كنز.. أنا متأكد من هذا، لا أحد يصر على دفن هذا الهراء معه في القبر ما لم يكن..."

ثم راح يحرك شفتيه محاولاً الفهم:

ـ"ربما هناك شارع اسمه الأصيل. ربما هناك غابة دفن فيها المال.. من هي سلوى؟"

نهض صلاح غاضبًا:

ـ"القصة بسيطة.. المرأة قد جنت.. هذا كل شيء.."

ثم تقلص وجهه وهتف في توحش:

ـ"أو اللحاد قد خدعنا.."

ـ"هذا وارد"

وتبادلا نظرة وحشية.. لم يكن عنده وقت كاف للسرقة..

أم كان عنده؟

الأمر ليس صعبًا.. في ظلام القبر يجد الصندوق.. يزيح المسمار. يجد جوهرة أو حلية.. يدسها في جيبه. يخرج مغبرًا لاهثًا إلى الأبلهين في الخارج..

ما يعرفه صلاح هو أنه تناول سكينًا بينما تناول هشام خنجرًا، وانطلق الاثنان لا يلويان على شيء نحو المقبرة.

يجب أن يتكلم اللحاد وإلا فالذنب ذنبه..

عندما يخرج الجنون من القمقم، فلا شيء يقدر على إعادته..

لأسباب ما يخرج هذا الغاز من الأنبوب، ثم يتسرب في كل مكان. لا أحد يقدر على جمع الغاز أو حبسه.. هكذا كان اللحاد جالسًا في تلك الغرفة الصغيرة عند مدخل المقبرة.

كان جالسًا أمام بابور الجاز - موقد البريموس حتى لا يتضايق اللغويون - وقد وضع فوقه إناء صغيرًا به ماء ولحم.. وكان

يرمق النار متلمظًا.. الليلة سيكون العشاء دسمًا. صحيح أنها لقمة جاءت من نبش القبور.. أي أن ما يطبخه مجازيًا هو لحم موتى، لكنه كان قد تجاوز مرحلة هذه الاعتبارات الأخلاقية.

سمع طرقات على الباب الخشبي المتداعي. فنهض ليفتح.

في اللحظة التالية كان الأخوان في الغرفة، وقد استطاع أن يرى الشيطان في عينيهما.. الشيطان.. هذا مشهد رآه من قبل ويعرفه..

ـ"خيرًا؟.. لماذا عدتما؟"

قال هشام:

ـ"الصندوق خاو.. لا يوجد شيء.."

ـ"هذا شأنكما.. ليست مشكلتي"

هنا قال صلاح وهو يمسك بالرجل من فتحة الجلباب ويجذبه:

ـ"نحن نعتقد أن شيئًا كان في الصندوق وقد تمت سرقته.."

صاح الرجل إنه لم يفعل.. عندما تكون ضيق العينين خبيث النظرات نحيلاً كفأر، فإن إنكار التهمة هو بالضبط الأسلوب المناسب لجعلك تبدو كاذبًا..

راح الرجل يقسم.. أنتما حصلتما على الصندوق.. أنا نلت

الحلوان.. انتهى الأمر.. ماذا تريدان بعد هذا؟"

-"نريد الشيء الذي في الصندوق"

-"لم يكن هناك شيء في الصندوق"

كان الغضب قد بلغ الذروة.. وكل محاولة إنكار تؤكد لهما أنه سرق شيئًا.. هكذا ازداد الضغط على ذراعه.. يمكنك سماع العظم الهش وهو يوشك على التحطم..

-"تكلم!"

السباب ينهال على رأس الرجل، والصفعات.. شابان قويان غاضبان مع رجل هش وحيد. في النهاية سقط على الحصيرة الموضوعة على الأرضية فراحا يوجهان الركلات لرأسه.. لم يعد هناك تعقل.. ركلة... ركلة.. ركلة... سوف يمر وقت طويل قبل أن يدركا أنهما أحمقان وأن فرصة استجوابه انتهت..

توقفا ونظرا إلى المشهد..

-"لقد مات يا صلاح!"

كان المشهد مؤكدًا ولا يحتاج إلى تخطيط مخ وتخطيط قلب للرجل الراقد على الأرض. وفي لهفة راح الشابان يفتشان في الغرفة. عن

ماذا؟.. لا يعرفان.. عن الشيء الذي جعلهما يقتلان لأول مرة. الآن برز احتمال معقول هو أن الرجل صادق.. لقد تسرعا جدًا..

لم يتفقا على الخطوة التالية، لكنهما وجداها بديهية.. كل شيء في هذه الغرفة يحمل بصماتهما.. لذا أطفأ هشام البابور - موقد البريموس حتى لا يتضايق اللغويون - وفتح الصمام ثم راح ينثر السائل قوي الرائحة في كل مكان. للأسف لن يأكل أحد هذا اللحم.. لكن دعنا نتذكر أنه معنويًا أقرب للحم الموتى. على باب الغرفة ألقى هشام بالثقاب المشتعل، وفرا بعيدًا قبل أن يتعالى اللهب..

سوف يحترق كل شيء..

على الأرجح لن يتعب الطبيب الشرعي نفسه في البحث، ولن يجد آثار التهشيم في عظام الجمجمة.. لسنا في قصة لأجاثا كريستي هنا..

فلنفر..

***

كانا يرتجفان... وشعر هشام بأن القتلة أشخاص فوق الواقع. كيف تمارس حياتك بشكل طبيعي بعد الفتك بإنسان؟...

هناك في الشقة دخل كل منهما الحمام ليغتسل، ممارسًا مشاعر ماكبث بعد قتل دونكان (لو اجتمعت بحار العالم جميعًا على محو هذا الدم ما استطاعت). في النهاية جلس هشام يدخن وينظر إلى الصندوق المربع الصغير. مشئوم.. نحس.. مد يده وعالج المسمار المحوي.. استطاع أن يفتحه ويخرج الوريقة الغامضة التي حيرته من قبل، فراح يتأملها:

ولما تـوارى شعاع الأصيل   وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا
دعت لي بسلوى وصبر جميل   إذا ما الوصال غدا مستحيلا
وتسمع في الليل همس القبور   وأنفاس من غاب عودًا نحيلا

ما معنى هذه الأبيات السخيفة؟..

قرأها بصوت عال على مسمع صلاح، وكان الأخوان يمقتان الشعر طبعًا ولا يفهمانه لهذا لم يحصلا إلا على فكرة عامة عن هذه الأبيات..

جلب صلاح زجاجتي خمر، وصب في كأسين كبيرين.. منذ زمن عرف الأخوان أنهما لا يتصنعان أي شيء أمام بعضهما. لهذا فعلا كل الموبقات أمام بعضهما دون خشية..

بعد الكأس الرابعة قال صلاح بلسان معوج:

ـ"أنا قد أكون وغدًا منحلاً.. لكني لست قاتلاً.. هذا أقوى مني"

قل هشام بلسان أكثر اعوجاجًا:

ـ"يجب أن تنسى هذه الجريمة.. تنساها وتنسى انك نسيتها.. لم يبق منها سوى غرفة محترقة ورماد"

ـ"ربما احترقت لكنها ستظل حية في ذاكرتي.. سوف يطاردني المشهد ما حييت"

ثم نهض مترنحًا نحو الباب وهو يستند إلى الجدار..

ـ"إلى أين العزم؟"

قال صلاح:

ـ"لا أستطيع قضاء الليل هنا.. لا أستطيع أن أراك أمامي.. سوف أبحث عن مكان آخر"

ـ"ليس من الحكمة أن تخرج وأنت ثمل.. من الوارد أن ينزلق لسانك"

قال صلاح وهو يعالج المزلاج بيد راجفة:

ـ"هذا ما أنويه فعلاً... سوف ينزلق لساني.."

ـ"هل تمزح؟"

."ربما كان في هذا خلاصي"

وواصل معالجة المزلاج...

الخمر لها إرادة خاصة بها.. تدهشك دومًا بما تفعله وأنت لا نعرف أنها فعلته. لا يعرف هشام كيف طارت الزجاجة من يده لتضرب أخاه من مؤخرة رأسه...

عندما سقط صلاح على الأرض تذكر هشام الألعاب الغليظة الخشنة التي كان يمارسها في طفولته مع اخيه.. كان يمزح.. هذه ألعاب أطفال خشنة نوعًا لكنها ألعاب.. هو لم يقتله.. بالتأكيد لم يفعل.. فقط أراد منعه من التمادي..

صلاح يرقد الآن خلف الباب والدم ينزف من مؤخرة رأسه والزجاج المهشم تناثر على الأرض..

إنه نائم.. بالتأكيد هو نائم.. لا توقظوه..

ضحك هشام كثيرًا وهو يراقب أخاه النائم..

عاد للمقعد وأشعل لفافة تبغ أخرى.. الدخان يرسم اسم هشام واسم صلاح في فراغ الغرفة..

صندوق لعين قذر.. لقد جعل الأخوين يتشاجران.. صب

لنفسه كأسًا آخر..

مد يده إلى الصندوق وراح يعبث بأنامله.. لقد عبثت بهما العمة اللعينة.. لم تترك شيئًا لكنها تركت لهما دعابة قاسية فعلاً...

أخرج الوريقة المقيتة التي كتبت فيها الأبيات..

ولما تـوارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا
دعت لي بسلوى وصبر جميل إذا ما الوصال غدا مستحيلا
وتسمع في الليل همس القبور وأنفاس من غاب عودًا نحيلا
وقابيل يلقى أخاه الحبيب فتجري الدماء ويهوى قتيلا

حك رأسه مرتين.. أغمض عينيه وراح يحاول أن يجعل بصره أقوى.. وربما بصيرته..

هذه الأبيات اللعينة.. كانا بيتين فقط.. هو متأكد من هذا...لا شك في هذا..

هذه القصيدة تستطيل! إنها تزداد بيتًا كلما هلك إنسان آخر!

***

هناك في تلك الكهوف المظلمة في صحراء تسيلي، يمكنك أن

نرى أن الليل قد دنا، ومعه بدأت الشمس الحارقة تبدي شيئا من الرحمة..

الذئاب تعوي فيرتجف رجال "التبو" الجالسون حول النيران ليلا، ويتبادلون النظرات من وراء ألثمتهم.. بينما تطلق الجمال والإبل رغاءها وحنينها بالترتيب..

هناك في تلك الكهوف المظلمة وخلف منطقة الرمال المتحركة، حيث لا يجسر أحد على الدنو، يمكنك أن ترى ذلك الكهف الذي احتشدت الصخور على مدخله.. هل صخور حقا؟ بل هي جماجم بيضاء نظّفتها العواصف والرمال الناعمة..

هناك عاصفة دانية بلا شك في الغد..

داخل الكهف يمكنك بصعوبة بالغة أن ترى ذلك المشعل الواهن، وجواره يجلس كيان فارع مفزع يخيل لك أنه هيكل عظمي، يمسك بريشة هائلة الحجم ويضع أمامه لفافة.. عينان واهنتان تراقبان الورق وسط الضوء الخافت..

إنه "أوبار" الشاعر الملعون.. الشاعر الذي نشرت أشعاره الطاعون وسببت المذابح، وأدت إلى انتحار عشاق وموت

أطفال وهم يصرخون..

هناك في هذا الكهف ينتظر "أوبار" عدة عقود.. عدة قرون.. من أجل قصيدة جديدة، قصيدة مكتملة الأبيات.

غير أن قصائده كانت ذات خاصية غريبة، هي أنها تكتب نفسها بنفسها؛ يبدأ أول بيت فقط، وأفعال البشر هي التي تكملها.

كل قصيدة صنعها الطمع والجشع والمقت والحسد والكفر والشهوات.

"أوبار" ينتظر، منذ قرون..

هناك قصائد بكل اللغات تتناثر من حوله.. قصائد باللاتينية، بالآرامية، بالسويدية، بالإنجليزية، بالمسمارية، بالأترورية، قصائد اكتملت جميعا وعادت له، وعندما يحرق اللفافة فإنها تصل إلى سيده الدائم، سيده الذي لا يجرؤ على ذكر اسمه..

على اللفافة التي أمامه بدأ يقرأ الحروف التالية تكتب بالدم:

ولما تـوارى شعاع الأصيل فتجري الدماء ويهوى قتيلا

تحركت شفتاه فيما يشبه ابتسامة قاسية؛ سوف ينتظر.

الصندوق الصغير ظل على الأرض فترة طويلة..

يمكن أن ألخّص الموقف لك بأن رجال الإسعاف ألقوا بالجثة على المحفة في إهمال، ومن الواضح أنها كانت تقبض على الصندوق الصغير الذي لم يلحظه أحد، قبل دخول السيارة سقط الصندوق على الأرض وركلته الأقدام جوار جدار.

وضعوا في السيارة جثة هشام أولا ثم جثة صلاح..

صلاح قد هشّمت زجاجة رأسه من الخلف، أما عن هشام فقد فتح النافذة ووثب إلى الشارع ليتهشم جسده على الإفريز، برغم هذا يبدو أنه ظل ممسكا بالصندوق فلم يتخلَ عنه إلا لحظة دخول السيارة كما قلنا..

انطلقت السيارة وعواؤها الكئيب يمزق الأعصاب قبل أن يمزق الصمت. ولحق بها عدد من الصبية يتصايحون مرحا..

يمكنك أن ترى الصبي عماد والصبي مصطفى.. إنهما يسكنان بالمنطقة، وهما شيطانان صغيران، لهما بالضبط نفس ملامح ونفسية قراصنة الكاريبي. عندما أسرعت الإسعاف مبتعدة أدركا أن اللحاق بها مستحيل، برغم أنهما كانا يشتهيان رؤية

الميت، تعثّر عماد على الأرض فسقط جوار الصندوق الصغير، التقطه ودسّه في جيبه ليفهم فيما بعد..

هناك يقف الصبية في ركن الشارع يتبادلون التحدي والسباب. عماد يدخن لفافة تبغ إذ تأكد من أن أحدًا من الكبار لا يراه، وهذا يعطيه سطوة لا شك فيها على باقي الصبية الذين لا يجسرون على تخيّل مغامرة كهذه.

يقول لهم عماد:

- وعهد الله.. وعهد الله..

لسبب ما لا بد أن يقسم هؤلاء الصبية بعهد الله.. لا يستعملون طريقة قسَم أخرى..

- وعهد الله أنا فعلت هذا..

قال مصطفى في تحدٍ:

- إنت كذاب..

- وإنت ابن "...".

وانقض الصبيان بعضهما على بعض يتبادلان الركلات واللكمات.. حاول عماد أن يفعل هذا كله ولفافة التبغ في فمه،

لكن الأمر كان صعبا.. وقبل أن يفهم ما يحدث وجد أذنه في يد صارمة ترفعه عن الأرض.. وعندما نظر بحذر رأى أن هذه هالة أخته.. أخته في العشرين من عمرها، وليس لديها عمل في الحياة سوى أن تجعل أيامه قاسية..

- سجائر وشجار! انتظر حتى أخبر أباك بذلك.

تراجع الصبية في ذعر، بينما الأخت الغاضبة كآلهة الأوليمب تجر الصبي من أذنه نحو ساحة الإعدام، وهي لا تكف عن الشتائم وتوجيه الصفعات له.. كان يعرف أن أمره انتهى.. التدخين جريمة لا تغتفر في بيته..

برغم هذا كان يكره أن يراه الصبية في وضع مخزٍ، لذا صاح آمرا بينما هو يبتعد:

- الليلة سوف أريكم إن كنت كاذبًا.

في البيت لم يكن الأب القاسي الغضوب موجودا، فتوعدته هالة بأن عقابه قريب فعلا. لاحظت الصندوق الصغير الذي في يده فسألته عن كنهه.. قال إنه وجده في الشارع ولا يعرف ما به..

مدت يدها في حذر وفتحت الصندوق.. ذات مرة ألقى أحدهم

عملا سحريا على بابهم، وكان بداخله قطعة قطن التفت على أشياء عضوية مرعبة، مع لفافة ورقية كهذه.. شعرت بقشعريرة وخطر لها أن تتخلص من الصندوق، ثم مدت يدها تفتح اللفافة وقد غلبها الفضول..

ولما تـوارى شعاع الأصيل وعدنامن الغاب نبغي الرحيلا
وقابيل يلقى أخاه الحبيب فتجري الدماء ويهوى قتيلا
لقد حان حينك يا ابن الدياجي ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟

مطت شفتها في عدم فهم؛ كانت تتوقع على كل حال أن تقرأ تعاويذ وكلمات سريانية غامضة، أو ترى رسومًا غير مفهومة. لكن هذا شعر.. مجرد شعر سخيف، ليس فيه حب ولا غرام ولا سهاد.. هناك كلمة "عجولا" في نهاية القصيدة تبدو نابية للأذن، بالتأكيد ليست عجول الجزار، ولكنها تدل على التعجل..

توعدت أخاها المدخن بالويل، ثم اتجهت إلى الهاتف لتثرثر مع صاحبتها..

لاحظ عماد بعد ساعتين أن جريمته لم تُذكر؛ لم تقل هي شيئًا ولم يعرف أبوه القاسي بشيء، إنه في غرفته يلهو ويتظاهر بالاستذكار

كالعادة، لكن لا شيء غير هذا..

الصبية ينتظرونه كما وعدهم. إن هالة اللعينة غافية الآن بعد ما شبعت نميمة وتهريجًا على الهاتف؛ لن يلاحظ أحد أنه خرج..

بعد لحظات اتخذ قراره، اتجه إلى باب الشقة بحذر وفتحه وفرّ إلى الخارج. هناك في الشارع عنصره الطبيعي، هناك يصير حرا، يصير ملكا، يصير قائد الشلة الذي يبهر الأنفاس..

هناك كان الصبية يقفون في تحدٍ بانتظاره، وكان أكثرهم تحديا هو مصطفى.. قال له في سخرية:

-هل علّقك أبوك من السقف؟

لم يرد.. سرعان ما اجتاز الفرجة بين الجدارين وراح يركض عبر الخرابة. كان الليل قد بدأ يزحف فلم يعد هناك سوى لون أزرق بكل درجاته، وهناك كانت المساحة الواسعة ممتدة حيث قضبان القطارات تتلوى وتتعاقد في الأفق.. قطار الثامنة سوف يمر بعد قليل..

بلع الصبية ريقهم وهم يرتجفون من هول المشهد القادم، هو نفسه كان خائفًا لكنه كان بحاجة إلى أن يعرفوا من هو؛ بعد هذا لن يفتح أي أحمق فيهم فمه..

جرى بحذر إلى أن بلغ المسافة بين القضيبين، ورقد على وجهه وغطى رأسه بكفيه..

فلتمر اللحظات التالية بسرعة..

أين عماد؟

كانت الساعة الآن الحادية عشرة ليلاً، وقد أوشك الأب على غلق اقفال البيت.. ثم تنبه الجميع إلى أن الصبي عمادًا ليس هنا، وهذا شيء معتاد.. لكنه لا يطيل التأخر إلى هذا الحد لأنه عوقب كثيرًا من قبل على تأخره خارج البيت.. الحقيقة انه شبيه بقط حبيس لا يقر في البيت أبدًا.

عماد.. عماد.. أين أنت أيها الوغد؟

هكذا بدأت عملية البحث. وتم سؤال الجيران، ثم ارتدى الأب ثيابه من جديد وخرج يبحث عن الصبي وهو يطلق السباب.. من الخير للفتى أن يكون قد مات فعلاً.. هذا هو المبرر الوحيد الذي يسمح بالغفران له.. فيما عدا هذا ليس من مصلحته ان يظل حيًا.. سوف يموت فورًا!

جو التوتر العام ساد البيت وبدأت الأم تقرأ القرآن وتهرع من حين لآخر إلى الشرفة..

هالة شعرت بتأنيب ضمير.. ربما هو خائف جدًا من موضوع السيجارة.. ربما خائف لدرجة انه فر من البيت.. هي كانت قد أزمعت ان تكتفي بإرهابه.. لكن من أين له ان يعرف نيتها؟

يجب أن نقول كذلك أن الجو كان ملوثًا بالموت.. حادثة الموت التي وقعت صباحًا جعلت الجميع متوترين.

هكذا دخلت غرفتها وحاولت ان تفكر في شيء آخر، لكن صورة عماد كانت تبلبل ذهنها..

مدت يدها للصندوق لتعيد تفحص تلك اللفافة اللعينة.. وبشفتين تتحركان قرأت الأبيات:

ولما تـوارى شعاع الأصيل — وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا

لقد حان حينك يا ابن الدياجي — ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟

خرجتَ لتلهو قرب الردى — فجاء الردى غاضبًا مستحيلا

هنا توقفت وراجعت آخر أبيات.

هناك جزء لم تقرأه من قبل.. هي متأكدة ان آخر بيت في القصيدة

اللعينة كان البيت " لقد حان حينك يا ابن الدياجي..ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟" فماذا حدث بالضبط ومتى؟... هناك بيت قد أضيف.. لا شك في هذا.. نفس الخط ونفس الحبر..

كانت هالة قوية الشخصية تثق في حواسها جيدًا. أي شخص سواها كان سيعتقد أن البيت الأخير قد فاته، لكنها كانت متيقنة.. القصيدة اللعينة قد استطالت بيتًا..

البيت يتكلم عن شخص أراد اللهو قرب الردى فمات.. كان الردى اكثر براعة.

❀❀❀

في الصباح وجدوا البقايا وعرفوا القصة كاملة..

الصبية الذين كانوا مع عماد رأوا المشهد ففروا لبيوتهم وأصابهم ذعر حيواني يمكن فهمه، وقرروا ان يلوذوا بالصمت.. لكنهم تكلموا في النهاية..

عماد نام على قضيب القطار بين القضيبين إذا شئت الدقة ودفن رأسه بين ذراعيه بينما قطار الثامنة قادم، وكان ينوي ان يبهر الصبية بشجاعته. هؤلاء المراهقون يمكن أن يفعلوا أي شيء كي

يبهروا أترابهم. ما حدث هو أن شيئًا يتدلى من القطار تمسك به.. تعلق بسرواله. وهكذا فوجئ الصبية بأن زعيمهم قد اختفى. لم تمر العجلات من حوله في سلام، ويبدو ان جسده تفتت في ثانية واحدة..

كانت ميتة شنيعة، وسوف أعفيك من وصف ما فعلته الأسرة والأم رحمة بأعصابك..لقد حلت حقبة من اللون الأسود والكآبة على هذا البيت الذي كان آمنًا..

ظلت هالة تشعر بعدم راحة نحو ذلك الصندوق اللعين، وتلك الأبيات الغريبة التي قرأتها والتي ازدادت بيتًا بلا تفسير واضح..

ذات ليلة جلست في فراشها ومدت يدها تفتح ذلك الصندوق من جديد.. تحسست أبيات القصيدة وقرأتها مرة واثنتين.. وقررت ان تعرض هذه الابيات على مدرس اللغة العربية الشاب جارهم، لعل الكلمات تخفي أكثر مما تفهمه هي. ثم غلبها النعاس والعلبة في يدها..

هي الآن نائمة على ظهرها. صدرها يعلو ويهبط كأنها تعاني عسرًا في التنفس. العرق.. العرق يجعل شعرها عجينة واحدة لزجة.. كهف مظلم.. مشاعل.. هناك من ينتظر في الكهف... عينان

شريرتان.. رائحة عطن غريبة.. هذه رحلة لم يقم بها بشري.. إلى عالم لم يره أحد. أعماق الظلمات.. المادة الخام للشر.. تشعر بهذا كله.. وتدرك انها مذعورة، لكنها كذلك عاجزة عن النهوض... عاجزة عن الفرار.

وسمعت صوتًا يأمرها:

ـ"تخلصي من القصيدة!.. تخلصي من القصيدة إن شئت السلامة!"

كانت تسمع الصوت بوضوح. تعرف أن هذا أوبار. لا شك في هذا برغم انها لا تعرف من هو أوبار ولم تسمع عنه من قبل كانت ترتجف خوفًا.. عرفت أنها اخترقت وانها ترى ما لا يحق لها أن تراه..

كان البيت كله غافيًا عندما اتجهت هالة إلى المطبخ.. صوت آذان الفجر يتردد من مسجد قريب. وضعت الصندوق على الموقد، ثم اشعلت عود ثقاب.. سوف يحترق هذا الشيء القذر.. سواء كان خطرًا حقيقيًا أو وهمًا.. إنها تشعر بأنه ملوث بالدم.. لماذا ظهر بعد الحادث الأخير؟.. ولماذا التقطه المرحوم عماد بالذات؟

بدأت النار تتمسك بالصندوق وتنهدت هي الصعداء. لكنها بعد لحظة بدأت ترتجف... إن النار تلتف حوله لكنها لا تؤذيه.

هذا الشيء أقوى من النار..

جربت ان تحرقه عدة مرات وبللته بالكيروسين وجربت من جديد.. لا جدوى.. هذا الصندوق اللعين أقوى من أن يزول بسهولة..

فكرت في ان تلقيه في القمامة، لكن الإجابة كانت قد وصلتها وشعرت بها في أعماقها بلا جدال. هذا ما يريده ذلك المسخ الذي رأته في الحلم بالضبط.. هناك أحمق سيجد الصندوق في القمامة ويفتحه، وسوف ينتقل الصندوق ليد أخرى ويموت شخص آخر.. وسوف تزداد القصيدة طولاً..

لو احتفظت بالصندوق فهي تجازف بميت آخر او جريمة قتل اخرى..

ربما يقتل أبوها أمها أو العكس.. او تفعل هي هذا كله..

حاملة هذه الهواجس عادت لغرفة نومها التي تسلل لها ضياء الفجر الخافت الواهن. جلست على الفراش كأنها بوذا يتأمل.. وقررت ان تنتظر حتى يصحو الجميع..

من المهم أن نجد من يحبنا.. لسبب واحد هو اننا نحتاج أحيانًا إلى من يصدقنا. وكان هاني يحبها فعلاً.. مدرس اللغة العربية الشاب الذي يقطن قرب بابها يهيم بها حبًا.. لقد تبادلا الحديث الصريح كثيرًا وكانت تعرف انه ينتظر قليلاً.. يستجمع شجاعته قبل ان يكلم أباها.

جلسا في ذلك المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه، فرشفت بعض الشاي من الكوب.. ثم استجمعت شجاعتها وحكت له تلك القصة الطويلة..

بالطبع لم يبد مصدقًا، لكنه يحبها وعلى استعداد لسماع الكثير من هرائها.. ربما اعتبر هذا ترفًا..

لما انتهت من قصتها دفنت وجهها في الكوب حتى لا يسخر منها.

قال لها:

ـ"وأين هذا الصندوق؟"

نظرت حولها ثم وضعته على الشرشف أمامه. مد يده ليفتحه لكنها اوقفت يده في صرامة:

ـ"لا أعرف.. ربما تصيب اللعنة من يفتح الصندوق أو يقرأ

القصيدة"

-"أنا سآخذ الصندوق الآن..!"

قالت في جزع وقد اتسعت عيناها:

-"أنت لا تفهم. هذا هو ما يريده بالضبط.. يريد ان يجد مسارًا جديدًا للحياة.."

-"لنقل إنني لن أمنحه هذه الفرصة."

ثم مد يده يعبث واخرج القصيدة.. قراها مرة ومرتين ثم قال باسمًا:

-"ليس شعرًا جيدًا جـدًا.. لو كان هذا الشعر يكتب نفسه فهي طريقة غير ناجحة لكتابة الشعر.. ثم أن بعض الأبيات مكسورة.."

ثم التمعت عيناه وقال في حماسة:

-"أنا أكتب الشعر كما تعرفين.. سأكمل هذه القصيدة بنفسي!!"

❀❀❀

عندما جلس هاني وحيدًا في غرفته، اندهش للتطور الذي يعتري

عواطف المرء. عندما عاد للدار كان ساخرًا ناقدًا لا يكف عن التهكم على سخف الفتيات.. كانت الأمور تبدو له واضحة جدًا..

كانت الأسرة كلها نائمة..شخير أخيه الأصغر يتعالى في فراشه الصغير بركن الغرفة.. ذلك الفراش الذي صنعوه له من صندوق قديم وضعوا عليه حشية.. الأبوان نائمان، والفتاة نائمة في غرفتها... هذا جو من الوحدة يوحي بأي شيء. يتضخم الخيال مع الوقت ويصير المستحيل ممكنًا...

فلنر هذا الصندوق الصغير إذن...

ابخرة الشاي تتصاعد وهو يقلب الصندوق في يده، ثم فتحه بحذر واخرج اللفافة وراح يقرأ القصيدة..

ولما تــوارى شعاع الأصيل — وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا

دعت لي بسلوى وصبر جميل — إذا ما الوصال غدا مستحيلا

وتسمع في الليل همس القبور — وأنفاس من غاب عودًا نحيلا

وقابيل يلقى أخــاه الحبيب — فتجري الدماء ويهـوى قتيلا

لقد حان حينك يا ابن الدياجي — ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟

خرجت لتلهو قـرب الـردى — فجاء الردى غاضبًا مستحيلا

لا يمكن ان تتهم الشاعر بأنه عبقري، وبالتاكيد لم يكتبها المتنبي، لكن هناك جوّا من الغموض المشئوم يحيط بهذه الأبيات.. شيء سامّ... لا شك في هذا.. ستة أبيات..

الخط خط رقعة جميل جدًا وأنيق.. مد يده يبحث عن ريشة الكتابة التي كان يستعملها في مدرسة الخطوط وأخرج قنينة الحبر الشيني الصغيرة..

بحذر.. وبنفس الخط الجميل تقريبًا كتب في نهاية القصيدة:

وعدت هنالك وقت الغروب فألفيتها في انتظاري طويلا

وعاد الوصال يزور القلوب وعاد الربيع ينير السهولا

تمت بحمد الله

ونظر في رضا إلى البيتين الأخيرين.. نهاية سعيدة إجبارية.. لقد انتهى هذا الكابوس إذن...

وهنا انقطع التيار الكهربائي..!.

❧❧❧

العمة كانت تعرف أفضل في أيامها الأخيرة...

عندما تقدم بها العمر وأدركت ان الرحيل على الأبواب، قررت ان تفتح هذا الصندوق الذي وجدته في حاجيات أمها.. امها كانت تقول كلامًا غريبًا عن عثورها عليه في المقابر يومًا ما، كانت امها لا تقرأ ولا تكتب لذا لم تعرف قط ما في الصندوق حتى ماتت.. الآن وقد صار الحاجز الفاصل بين العالمين واهيًا جدًا او افتراضيًا خطر لها ان تلقي نظرة...

طلبت من ابنتها وصال أن تجلبه لها، ثم جلست في الفراش تضيق عينها في ضوء المصباح الواهن.

فتحت الصندوق وبعينين واهنتين قرأت المكتوب في اللفافة.. ولم تفهم شيئًا:

ولما تـوارى شعاع الأصيل   وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا

ما معنى هذا ولماذا يدفنه أحد في صندوق؟.. لم تدر السبب... لكنها طلبت من ابنتها أن تحتفظ به في خزانة الثياب في الرف العلوي.. حيث تحتفظ بالبطاطين...

راحت تتأمل عود وصال الرشيق وهي تشب على الفراش لتضع الشيء في خزانة الثياب، وخطر لها ان وصالاً هي أروع شيء

صفقته في حياتها.. عروس فاتنة مكتملة وطالبة جامعية.. أفضل أولادها بلا جدال..

عندما نامت أخيرًا لم تكن تعرف انها المرة الأخيرة...

يقول رجال الشرطة إن الفتاة ارتكبت خطأ فادحًا. لقد عجزت عن النوم فشربت جرعة من دواء الكلورل المنوم.. لما عجزت عن النوم برغم هذا أخذت قرصًا منومًا من أدوية الوالدة... كلورال مع الكحول او المنوم.. كثيرون تلقوا درسهم الأول في علم الفارماكولوجيا وهم يدخلون القبر...

ماتت وصال بطريقة عبثية عجيبة.. مخزون هائل من الحزن صار لدى العمة كي تقزقزه كاللب وحدها في كل ليلة... وطالت ايام الحزن وهي تدعو الله أن يرحمها وتموت..

ما حدث بعد هذا هو انها طلبت من أحد اولادها ان يجلب لها ذلك الصندوق اللعين.. عندما فتحته بيد واهنة ألقت نظرة على القصيدة.. فوجدت الأبيات تقول:

ولما تـوارى شعاع الأصيل ... وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا

دعت لي بسلوى وصبر جميل ... إذا ما الوصال غدا مستحيلا

ارتجفت ذعرًا... هذا البيت الأخير لم يكن موجودًا بالقطع قبل ذلك...
وماذا يقول؟... يقول (إذا ما الوصال غدا مستحيلا).. بالفعل صار الوصال مستحيلاً. لم تعد هناك وصال...

امتلأت تشاؤمًا من هذه القصيدة، وتذكرت انها فقدت ابنتها الفاتنة يوم فتحت الصندوق. هذا الصندوق ملعون بلا شك.. هذا الصندوق مسحور..

وهكذا قضت أيامها الأخيرة في محاولة الخلاص من هذا الصندوق.. جربت طرق التدمير كلها، وفي النهاية ادركت أن الصندوق والقصيدة أقوى من الجميع.. وعرفت أن عليها ان تدفن هذا الصندوق معها.. فقط في كفنها وتحت الأرض لن يجده أحد.

هكذا أوصت.. ولم تدر أن هذه الوصية بالذات هي ما سيدفع وغدين من الأسرة هما هشام وصلاح إلى نبش قبرها بالذات... لقد كان الإغراء اقوى منهما..

بعد ساعتين عاد التيار الكهربي؛ فأطفأ هاني الشموع التي أشعلها

ل الصالة.. لم يشعر احد من النائمين بالانقطاع، اما هو فقد كاد
مرغ أحشاءه ذعرًا. تذكر اسطورة لعنة الفراعنة وكيف انقطع
التيار الكهربي عن القاهرة لحظة فتح تابوت توت عنخ آمون..
ر أن يعود ليلقي نظرة على القصيدة التي كتبها منذ قليل..
هنا وجد الأبيات التالية في نهاية القصيدة:

تراك ستصمد حتى الصباح؟ تراك ستصبر صبرًا جميلا؟

هنا شعر بشعر رأسه ينتصب... هذا بيت لم يكتبه.. هذا بيت
كتب نفسه في الظلام.. القصيدة مصرة على أن تستطيل.. لم تقنع
بالبيتين الأخيرين..

وفي هذه اللحظة شعر بتلك الرغبة المجنونة..هرع إلى المطبخ
وانتقى أكبر سكين هناك.. عاد لغرفة النوم.. وقف يراقب أخاه
النائم في نهم.. يرمق شريان عنقه النابض... الدم الدافئ ينتظر
بالداخل.. دم احمر قان....

ثم فطن لنفسه فتراجع مذعورًا....

هناك الابوان النائمان في غرفة النوم.. لن يشعرا بالرحيل.. سوف
يكون موتًا رحيمًا..

وماذا عن الكيروسين؟.. هناك موقد بريموس به كيروسين.. لو سكب منه في أرجاء الشقة وأشعل عود ثقاب فلسوف ينتهي كل شيء...

ثم فطن لنفسه من جديد.. قرأ المعوذتين.. إنه واقع تحت تاثير نفسي كاسح..

يمكن أن ينهي هذا بان يثب من النافذة.. ان يقتل نفسه.. سيكون هذا أفضل الحلول الممكنة من دون أن يؤذي احدًا سواه..

ثم عاد يتيقظ من جديد.. هذا هراء.. إنه يهذي..

الشيء في الصندوق وضعه في مأزق يفضل معه الانتحار على أن يذبح أحبابه.. لكن لماذا يختار بين الاثنين؟

تراك ستصمد حتى الصباح؟

تراك ستصبر صبرًا جميلا؟

لا.. لن يستطيع الصمود.. لو مرت ساعة أخرى سيكون قد ذبح كل احبائه..أو قتل نفسه.

جلب زجاجة الحبر الشيني ووقف عند حوض المطبخ وسكب كل قطرة فيها على القصيدة، حتى تشوهت تمامًا وصارت عسيرة القراءة.. وضعها في العلبة، ثم غادر البيت..

بالتأكيد سمعوا صوت الباب وهو ينغلق.. بالتأكيد أصابهم الذعر وتساءلوا أين هو.. لا يهم..

راح يركض في الشارع الخالي..

راح يركض عبر تلك الأرض الخالية المظلمة.. أرض لم يتم بناؤها بعد وإن كانت بعض الأساسات قد وضعت فيها..

وجد عمودًا من خرسانة فركع جواره في الظلام، وراح ينبش وينبش...

فريشت.. فريشت.. فريشت..

الصوت يحطم الأعصاب. يمكنك أن تجن بلا مبالغة. هناك تلك النغمة المكتومة، وهناك ذلك الإحساس القوي بالتربة الرطبة..

وضع الصندوق الصغير في الحفرة..ثم راح يهيل فوقه التراب...

عندها رأى ذلك الشخص قادمًا من بعيد.. الظلام دامس لكنه يراه في ضوء النجوم.. توقف قلبه للحظة من الذعر. ثم نهض وانطلق يجري بلا توقف...

انت تعرف انه سيجن ويقتل نفسه في الأيام القادمة.. لن يفهم احد سبب هذا الضغط العصبي الشنيع الذي آذاه كثيرًا.. لكن

هذا ليس موضوعنا طبعًا..

❊ ❊ ❊

أنا وجدت القصيدة...

يمكنني الآن أن اقدم لك هذا الاعتراف الصغير. كنت عائدًا من دار صديق لي وشعرت بنداء غريب يدفعني إلى عبور هذه الأرض الوعرة الخالية من المباني.. كنت أشعر بذعر لكني تمالكت نفسي.

رايت هاني يدفن شيئًا ويفر كالمذعور.. مشيت إلى حيث دفن ما بيده.. واخرجت ذلك الصندوق الصغير..

وعندما فتحت الصندوق شعرت بأنني أعرف القصة كلها..

أعرف الفتى عمادًا وهالة وهاني والوغدين صلاح وهشام...

القصيدة قد تلوثت بالحبر الشيني كلها لكني أعرف كل حرف فيها..

سوف تكتمل القصيدة.. ربما تبلغ ألف بيت..

ويومًا ما سوف يكملها أحد رجال التبو في منطقة تسيلي - ممن يجيدون العربية - ويضيع في الصحراء وسط العواصف الرملية..

وسوف يموت لكن القصيدة سوف تصل كاملة إلى أوبار..

الآن انا أملك الصندوق والشيء في الصندوق.. القصيدة.. وأملك أن أنقلها لك.. واعرف أنها ستكتمل. لهذا كتبت هذه القصة...

تسعة أبيات في هذه القصة. أحدنا سوف يكتشف أنها عشرة أبيات.. والقصة تزداد طولاً وتنتقل من يد ليد..

أوبار.. قد قمت بواجبي.. فهل انت مسرور؟

تمت

- هناك مجموعة من الخطابات تتسرب بين الناس في مجتمعنا.. خطابات تدعوهم للفتك ببعضهم.. وأنا أعتقد أن هناك شيئًا ما في الخطابات ذاتها.. شيئًا يشل الإرادة.. والسؤال المنطقي هو: ما مصدر هذه الخطابات الغريبة ؟..

تساءل أحد الجالسين في ذكاء:

- فعلا.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟

وتساءل آخر في حكمة:

- حقًا.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟

الأستاذ كمال يفرغ من المجموعة الثالثة..

من حسن حظه أنه يعطي الدروس الخصوصية في بيته، وليس في مركز متخصص كما يفعل الآخرون، وهذا يتيح له أن يهرع إلى المطبخ من حين لآخر وبين مجموعة وأخرى.. هناك تركت زوجته إناء فيه أرز وإناء فيه خضر.. يدس ملعقة في فمه من هذا الإناء وذاك.. يمضغ بسرعة ثم يهرع للصبية كي يعاود الحديث عن محمد الفاتح والأستانة.. الخ..

المشكلة هي أنه عندما يأتي وقت الطعام الحقيقي. الطعام الذي يجلسون له إلى المائدة، يكون قد شبع تمامًا أو انتهى ما في الإناء.. كما أن هذه العادات الغذائية العجيبة جعلت لديه كرشًا لا بأس به، وقد صارت أكثر سراويله لا تنغلق عند الخصر.. غريب هذا!.. كان يعتقد أن عدم انتظام عادات الطعام يجعلك تفقد وزنًا ولم يتصور أن هذا يزيدك سمنة..

يهرع كمال إلى المطبخ ويعد لنفسه كوبًا سريعًا من الشاي، قبل قدوم أولى أفراد مجموعة البنات.. خجلى تتحسس أولى درجات عالم الأنوثة في حذر وتوتر. ثم يسمع الضحكات ويعرف أن العدد يتزايد.. يكون قد أنهى الكوب..

زوجته في الخارج عند أمها مع لمياء ابنته. سوف تعود عند منتصف الليل.. وقتها سيكون قد فرغ من التدريس وجلس شارد الذهن يتابع التلفزيون..

يعود لقاعة الدرس ويلقي دعابة أو دعابتين.. البنات يضحكن أكثر من اللازم، والسبب طبعًا هو أنه كهل وسيم جذاب.. يعرف هذا جيدًا لكنه لا يحاول استغلاله في شيء أكثر من الفوز ببعض الاحترام...

صار كتاب التاريخ عادة لديه من كثرة ما قام بتدريسه، وهو يعرف كل سطر وكل تاريخ وكل ورطة خبيثة صنعها ممتحنو الوزارة.. ومع الوقت صار يشعر أن هذا كله قد مر به في حياة أخرى.. حتى دعابات التلاميذ وقلة أدبهم وملاحظاتهم.. لقد رأى هذا كله من قبل..

كان الخطاب هناك.. تحت باب غرفة النوم..

انحنى والتقطه.. كان مظروفًا أنيقًا سميكًا يوحي بالاحترام. غريب هذا.. من أين جاء؟.. لا أحد من الصبية يصل لهذا الجزء، لأن قاعة التدريس منعزلة تمامًا عن باقي الشقة.. باب واحد يطل على الدرج. لا يوجد مخرج آخر لها سوى الباب الذي

يجتازه هو كلما أراد الذهاب للمطبخ والحمام..

فتح المظروف في حذر ليجد ورقة لا تقل فخامة..

"الثلاثاء 18 ابريل..

"استعد للموت في الثامنة مساء..

"مع فائق الاحترام"

ما هذا السخف ومن الذي كتب هذا الهراء؟

حمل الورقة والمظروف إلى غرفة الدرس، ولوح بهما وهو يحدج الطلبة بعين نارية:

ـ"من السخيف ابن السخيف الذي جلب هذا الخطاب؟"

كانت النتيجة هي مجموعة من الأبقار تخور.. خطاب ماذا؟.. عم تتكلم بالضبط؟. غباء في العيون لا شك فيه.. يمكن القول إن من فعل هذا ليس في هذه المجموعة بالذات، ولربما كان من مجموعة سابقة. لكن كيف تسلل إلى الشقة؟

صاح في غيظ ناري:

ـ"سوف أعرف من هو وسوف أذيقه الويل.. سأسلخه سلخًا"

هنا تساءلت فتاة على قدر من الجرأة:

ـ"ماذا في الخطاب بالضبط؟"

ـ"هذا ليس من شأنك.. لكنه خطاب موجه لي وفيه كلمات وقحة"

وقحة؟.. التهديد بالموت قد يكون مخيفًا وقد يكون موجسًا أو مقبضًا لكن لفظة (وقح) لا تنطبق عليه حتمًا..

سخف.. لكنه برغم هذا شعر بشيء يعتصر قلبه.. تشاؤم.. انقباض.. سمه ما شئت. الغموض يضفي على الموقف رهبة لا شك فيها.. لو كانت هذه مزحة فهي مزحة سخيفة جدًا..

الدكتورة هند قامت بتركيب القسطرة، وتأكدت من أن المريضة أفرغت المثانة تمامًا.. ثم راحت تنتظر في صبر وتوتر اللحظة الدرامية الكبرى.. لحظة ظهور المشيمة الملفوفة حول نفسها كفطيرة بيتزا..

من مكان ما يعوي الوليد بينما الطبيب المساعد يشفط المخاط من منخريه، واللحظة النهائية الجميلة.. الشعور بالراحة والاستسلام الفخور للأم المبللة بالعرق التي التصق شعرها

ببعضه.. هذه الفوضى وكل هذا الدم والإفرازات سوف تنتهي فورًا ويعود كل شيء نظيفًا..

فرغت من العمل فألقت بقفازيها على الأرض في إهمال. تحب هذه اللحظة، خاصة عندما تتذكر قدح الكابوتشينو في غرفة الانتظار.. القدح الساخن الذي ينبعث منه البخار...

تخرج من غرفة الولادة وقد تخلصت كذلك من المريولة الواقية الثقيلة الغارقة في الدم، ومشت بالشبشب البلاستيكي والبيجامة الزرقاء التي تجعلها كالمجانين. تتجه لغرفة الانتظار وهناك تلقي بنفسها على أريكة...

تنهض إلى خزانة الثياب وتفتحها بالمفتاح الصغير، ثم تبحث بين ثيابها عن علبة السجائر. هنا تجد هذا المظروف الغامض.. مظروف أنيق جدًا كأنه قادم من فندق محترم عريق...

عبثت حتى أخرجت الورقة من داخل المظروف وقرأت المكتوب:

"الثلاثاء 18 ابريل..

"استعدي لقتل رجل في الثامنة مساء..

"مع فائق الاحترام"

ما هذه الدعابة السخيفة؟؟؟ معنى هذا مقلق جدًا، وهو أن هناك من يحتفظ بمفتاح لخزانة الثياب سواها، لأن هذا الخطاب لم يكن هنا قبل أن تبدأ عملية التوليد.. ولكن..

النقود... هل؟

غريب.. هناك مبلغ يقترب من ألفي جنيه، لكنه لم يمس بتاتًا.. من فعل هذا متسلل وليس لصًا، وكان غرضه الوحيد توصيل الرسالة.. الرسالة التي لا معنى لها..

تلك الصيغة المهذبة المجاملة كأنها دعوة لمؤتمر علمي.. قتل رجل في الثامنة مساء.. دقة غير عادية.. ومن هو ذلك الرجل؟

يمكن أن يكون هذا تحذيرًا من خطأ طبي قادم، لكن يجب أن نتذكر أنها لا تتعامل إلا مع النساء منذ سنين.. كيف تقتل رجلاً إذن إن لم يكن دهمًا بسيارتها؟.. طبعًا هذا احتمال قوي جدًا لكن لا تنس أنها لا تجيد القيادة ولم تجلس خلف المقود قط!

إذن كيف؟. وما معنى هذا الكلام؟

بالطبع قامت بترضية ضميرها واستجوبت بعض العمال والممرضات.. بعض زميلاتها.. كما توقعت لم تظفر سوى بالبله

المغولي وخرس الأسماك.. كلهم أبرياء.. لم يفعل هذا أحد..

فتحت التقويم الذي تضعه على مكتبها:

الثلاثاء الثامنة مساء هو موعدها في جمعية نسائية طلبت استضافتها..

هل يجب أن تغير الموعد لتجعله موعدًا للقتل إذن؟

❀❀❀

فرغ مصطفى من تصوير آخر صفحة في المذكرة التي تركتها له طالبة كلية التجارة الحسناء. هذه الفتاة الرشيقة التي لا يعرف اسمها تأتي كل بضعة أيام لتصور بعض تلك المقررات الكئيبة، ولطالما تمنى أن يعرف اسمها.. قرأه ذات مرة على المذكرة (نجوى السيد).. وراح يتنهد مفكرًا في نجوى وحلم كثيرًا بنجوى، ثم فطن إلى أن هذا حمق.. بالتأكيد نجوى اسم صديقتها صاحبة المذكرة لا اسمها هي.. وبرغم هذا ارتاح للاسم وبالنسبة له ظلت الفتاة نجوى..

كان يصور الورق برفق وحنان وعناية، حتى أنه تذكر باسمًا إسماعيل يس عندما كان يصف لهند رستم الفطيرة التي يصنعها

لها عندما كان اسمه (حسونة الفطاطري). نجوى لا تنتظر وإنما تترك له المذكرة وتنصرف باسمة.. ثم تعود بعد ساعات لتأخذ الأصل والصور..

اليوم جلبت له تلك المذكرة التي تحمل اسم (إدارة أعمال) وابتسمت وانصرفت كالعادة.. نسخة واحدة.. تغليف بلاستيك..

فكر في الأمر.. مستحيل أن يتمادى خطوة واحدة أو يفكر فيما هو أبعد. هو (وراق).. ليس سوى هذا ولا أمل في النمو أو التقدم.. لا يجسر على دخول بيت ليقول إنه (وراق).. ليس صاحب مكتبة ولا يملك آلة نسخ المستندات.. هو فقط يجيد التعامل معها وتنظيفها، وهذا معناه أن نجوى ليست له ولن تكون..

تنهد وواصل التصوير.

من المذكرة سقط مظروف أنيق.

هل يجرؤ على الاعتقاد أن....؟

بالطبع لا يجرؤ.. الأحلام لا تتحقق بهذه السهولة ولا هذه الروعة..

الخطاب يخصها لكن الفضول دفعه دفعا إلى أن يفتحه.. فيما بعد سوف يحاول أن يغفر لنفسه هذه الزلة الأخلاقية البسيطة. ما

معنى هذا؟..

"الثلاثاء 18 ابريل..

"استعد للموت في الثامنة مساء..

"مع فائق الاحترام"

هذا كلام عجيب.. والأعجب أن الصيغة موجهة لذكر.. أي أن الخطاب لا يخصها بالذات، لكن لماذا تحمل فتاة خطابًا فيه هذه الصيغة الغريبة؟..

ابتلع ريقه.. لن يسألها بالطبع.. لا يستطيع..

أعاد الخطاب لموضعه في المذكرة، لكن شعورًا مريرًا غمر مؤخرة حلقه.. كان يعتقد أنها أرادت أن يرى الخطاب. فتاة ذكية دقيقة مثلها لا تنسى خطابًا في مذكرة إلا لو أرادت أن يراه، ولسبب لا يفهمه قام بعمل نسخة من الخطاب ليدرسها فيما بعد..

كان هذا في الوقت المناسب لأنه شم عطرها.

وعندما نظر للخلف رأى أنها تقف هناك وعلى شفتيها ابتسامة راضية غريبة..

أما عن عماد فقد فرغ من تمرينات الإحماء في الإستاد.

كان الطقس باردًا في الصباح، ولم تكن لياقته على ما يرام. المدرب يرمقه في كراهية ومقت.. المدرب لا يرى في الكون سواه هذه الأيام، ولو حدث زلزال في شيلي لاتهمه بأنه السبب..

لم يكن راضيًا عن جسده.. جسده يخذله ويتخلى عنه، وقد بدأ الشحم يتجمع حول الخصر..

بعد الجري لعشر دقائق في المضمار بدأ يشعر بأن صدره يضيق وأن عضلاته تؤلمه وسال عرق غزير على جبينه وبلل الفانلة..

ثم جاءت الطامة الكبرى عندما تقلصت عضلة ساقه.. شعور بسكين حادة تنغرس في السمانة، وهكذا راح يتواثب كاللقلق..

في النهاية جلس على الأرض وراح يعوي..

نظر له المدرب في غل ثم أمره بأن ينصرف..

ـ"لا أريدك هنا اليوم.. عد لأمك ونم"

شاعرًا بالإهانة عرج عماد حتى بلغ غرفة استبدال الثياب بالنادي. هو وحيد هنا.. الخائب الوحيد الذي لم يكمل التدريب..فتح خزانة الثياب.. هنا فوجئ بمظروف أنيق.. من أين جاء ومن

وضعه هنا؟

كانت في المظروف رسالة تقول:

"الثلاثاء 18 ابريل..

"استعد لقتل رجل في الثامنة مساء..

"مع فائق الاحترام"

ما معنى هذا؟.. هل سيقتل أحدًا؟.. من هو؟.. كيف؟.. من كتب هذا الكلام..

مقلب.. لكنه لم يستطع أن يقبله ببساطة. الأمر غير مريح ومقبض إلى حد ما.. لكن على الأقل لا توجد تفاصيل أخرى..

جفف عرقه وراح يرمق الخطاب في غباء..

أحدهم يمزح مزاحًا سخيفًا ولسوف يدفع الثمن..

من يدري؟.. لربما كان صاحب هذه الدعابة هو الشخص الذي سيقتله لأنه سيفقد أعصابه بالتأكيد..!..

نعم.. كان عماد قصير الفتيل يتشاجر بسهولة جدًا.. وهذا يناسب صورته تمامًا: رياضي سيئ وخال من الروح الرياضية..

في الاجتماع العاشر للجمعية الروحانية المصرية..

كان الاجتماع ناجحًا وقد تم استعراض عدد من الأبحاث المهمة وتنفيد بعض الإشاعات التي اجتاحت المجتمع في الفترة الأخيرة.

بدأت الجلسة الخامسة.. لم يكن مؤتمرًا كالمؤتمرات التي نعرفها، بل هو أقرب إلى جلسة أصدقاء استأجروا قاعة في ناد خاص..

الدكتور فكرون هو شيخ في الستين له لحية قصيرة مشذبة ونظارة سميكة ويضع بابيون كاروهات عملاقًا.. قال وهو يقلب في أوراقه:

ـ"قد يبدو كلامي سخيفًا... قد يبدو غير متوقع.. لكني أطلب من السادة الجالسين أن يصغوا لي بعناية.."

مقدمة جعلت الجميع يصغون له بعناية فعلاً.. بينما أردف:

ـ"هناك مجموعة من الخطابات تتسرب بين الناس في مجتمعنا.. خطابات تدعوهم للفتك ببعضهم.. وأنا أعتقد أن هناك شيئًا ما في الخطابات ذاتها.. شيئًا يشل الإرادة.. والسؤال المنطقي هو: ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟.. "

تساءل أحد الجالسين في ذكاء:

ـ"فعلا.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟"

وتساءل آخر في حكمة:

."حقًا.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟"

ابتسم د. فكرون في مكر وقال:

."نظريتي تقول إن من يرسل هذه الخطابات هو لوسيفر.. الشيطان ذاته!"

تبادل الجميع النظرات..

الحق إن هذا قد يكون مسليًا لكنه السخف ذاته.. والسخف لا يتعارض مع التسلية على كل حال..

قال أحدهم:

ـ"سيدي.. إن لم تكن تمزح فأنت قد جننت!"

في عصبية شرب فكرون جرعة من الماء وقال:

ـ"من حقكم اتهامي بالجنون.. لكني سوف أقدم لكم الدليل حالاً،،"

❀ ❀ ❀

الثلاثاء 18 إبريل سوف يبقى طويلاً في ذاكرة من رأوه..

كان هذا في النادي الرياضي الذي لم اذكر اسمه بالطبع.. ما حدث

هو أن عددًا زائدًا من المتسللين ظهر فجأة.. أشخاصًا ليسوا أعضاء بالنادي ظهروا وبدا كل منهم كأن له هدفًا واحدًا محددًا..

كان حراس البوابة أميل للتراخي خاصة في هذه الساعة من مساء الثلاثاء، حيث بدت الحياة ناعسة رخوة ولا يمكن أن تتوقع أن ينهار الكون لو أن بعض المتسللين دخلوا النادي. وهكذا دخل إلى النادي نحو عشرة أشخاص.. عشرين شخصًا..

لو أنك رأيت الواحد لشعرت برجفة قشعريرة تزحف على عمودك الفقري حتى لتكسوه بالثلج على طريقة أفلام توم وجيري. النظرة الجامدة والخطوات الثابتة.. ثم السلاح.. السلاح الذي كان مخفيًا في كيس ورقي أو في الجيوب لحظة اجتياز البوابة، ثم ظهر للعيون.

ماذا تفعل عندما ترى هذا التمثال الآدمي يمشي في خطوات ثابتة نحو ملعب كرة القدم المترامي، وفي يده مسدس لا يوحي بالثقة، أو سكين شريرة أو سيف خبيث؟.. سوف تخطر لك أفكار كثيرة لكن لن يكون من بينها الضحك أو الاسترخاء..

هناك كان الملعب يسبح في ضوء الكشافات الليلية الباردة.. الطقس بارد لكنك تسمع بعض الحشرات الليلية التي صممت

على أن موعد الربيع حان منذ شهر.

فيما بعد قال الشهود إن القتل تم بترتيب غريب..

هناك ذلك الشاب الرياضي الذي قيل إنه لاعب كرة يدعى عماد.. لقد هوى ببلطة صغيرة على رجل مسن.. سقط الرجل أرضًا والبلطة في رأسه، هنا انقضت الطبيبة التي قيل إن اسمها هند على الشاب الرياضي لتغرس في مؤخرة عنقه مبضعًا طويلاً.. لم ينتظر أو يصرخ أو يبد أي انفعالات.. سقط كجوال مثقوب...

هنا أطلق أحدهم الرصاص على رأس الطبيبة.. سقطت أرضًا بدورها، وعرفوا فيما بعد أن القاتل مدرس يدعى الأستاذ كمال..

كان هذا عندما أفرغ الشاب المدعو مصطفى مسدسًا آخر في رأس المدرس..

وقبل أن يفهم الناس ما يحدث هوى رجل ضخم الجثة عرفوا فيما بعد أنه ميكانيكي.. هوى بعصا ثقيلة على رأس الشاب..

سلسلة مريعة من القتل والطعن والتهشيم.. أعتقد أن الغربيين يطلقون على هذا المشهد مصطلح Melee..

لقد كانت لحظات قاسية بحق..

وفي النهاية كانت هناك امرأة ظلت حية بعد ما أطلقت آخر رصاصة على رأس رجل بدين..

وقفت للحظة تحت الكشافات كأنها تحلم أو تنتظر شيئًا ما، ثم بلا تردد رفعت الفوهة نحو رأسها واطلقت الرصاص..

فقط الذين امتلكوا أعصابًا قوية ثابتة تمكنوا من رؤية المشهد كاملاً لأن الغالبية هربوا أو رقدوا على العشب وأخفوا الرءوس..

هؤلاء الذين تحملوا رؤية عشرين جثة تتكدس خلال عشر دقائق، هم الذين استطاعوا أن يصفوا للشرطة ما حدث بالضبط...

وقد وقف رجال المباحث غير مصدقين.. يلتقطون عشرات الصور ويضربون كفًا بكف..

واضح تمامًا أن القتلى من عينات متباينة من البشر.. رجال ونساء.. طبقات اجتماعية مختلفة.. لا توجد قصة واحدة تربط هؤلاء.. ليسوا طلبة مدرسة مثلاً تشاجروا من أجل فتاة، وليسوا مهربين تشاجروا على البضاعة، وليسوا أبناء حي شعبي دخلوا في مشاجرة بسبب مياه قذرة ألقيت على غسيل إحداهن..

هذا تصرف غير مفهوم ويبدو مبرمجًا..

هل ترون هذا الضابط الوسيم الذي يبدو كممثلي السينما؟.. إنه الرائد حمدي الذي يتولى التحقيق في هذه القضية وسوف يلاقي الأمرين بالطبع..

يدخن بشراهة.. يدخن بلا توقف.. ليس الوقت مناسبًا لتوجيه النصح له على كل حال، لأن صحته هي آخر شيء يفكر فيه الآن..

إنه يركع جوار جثة ذلك الفتى الذي سيعرف بعد حين أنه عماد..

يتفحص الجثة ولا يجرؤ على انتزاع المبضع المغروس في مؤخرة عنقه طبعًا.. البصمات.. يمد يده ليعبث في جيبه.. يجد ورقة مطوية..

مد يده في جيبه ولفها بمنديل ثم عاد يعبث في الجيب..

أخرج ورقة مطوية.. كتب عليها بخط أنيق:

"الثلاثاء 18 ابريل..

"استعد لقتل رجل في الثامنة مساء..

"مع فائق الاحترام"

نظر الضابط لساعته.. هذا غريب.. الثامنة مساء هي فعلاً الوقت الذي حدثت فيه هذه المجزرة.. هل هذا الرجل قاتل مأجور؟.. لو كان كذلك فلماذا قُتل؟ لماذا لم يفعل فعلته ويفر؟..

وهل سمع أحد عن اجتماع القتلة المأجورين في ملعب كرة قدم ليقتلوا بعضهم؟.. هل هو مهرجان؟

عاد يعبث في جيب قتيل آخر..

نفس الورقة ونفس الرسالة واللهجة المهذبة..

اللهجة المهذبة المخيفة.. أحيانًا يكون التهذيب مرعبًا أو يسبب التوتر أكثر من قلة الأدب بمراحل.. في بريطانيا أيام الإعدام القديمة كانوا يرسلون للسجين رسالة تقول: تقرر إعدامكم مع فائق الاحترام!.. لا ياسيدي.. اشتمني واتركني حيًا.. لا أريد تهذيبك هذا..

رفع حمدي رأسه وقال وهو يتنهد:

ـ"الأمر محير.. كل هؤلاء تلقوا دعوة للحضور هنا.. بعضهم تلقى دعوة للقتل والبعض تلقى دعوة للموت.. ومن الواضح أنهم جميعًا قتلوا وقتلوا.."

ثم قال لرجل المختبر الجنائي:

ـ"حافظوا على هذه الأوراق. إنها الدليل الوحيد معنا"

ال د. فكرون:

"يا سادة.. اطالبكم بالانتباه والصمت من فضلكم.. اطفئ النور من فضلك"

ثم أشعل عود ثقاب وانتظر لحظة حتى يتوهج.. و أمسك بورقة من نوع فاخر..

لامس العود الورق.. وبدأ هذا الأخير يشتعل ويتوهج..

هنا أطلق الجالسون شهقات الرعب..

الظلام شديد على المنصة لكني أعتقد أن هناك امرأة فقدت وعيها من الذعر. هذا ما قيل لي على كل حال...

هل هذا الذي نراه حقيقي؟

آه لو كنت معي في تلك اللحظات!

هناك مواقف في الحياة يغدو من السخف أن تحاول وضعها في كلمات. وإلا لكان من السهل أن تصف شعورك عندما همست هي بأنها تحبك، أو عندما رأيت أنا أبي يغمض عينيه لآخر مرة ويأبى ان يرد علي.. كل هذه أمور عاصية على الوصف، معجزة

لقدرة اللغة على التعبير...

الأسهل أن ترى معي هذا المشهد الرهيب..

كان الخطاب يحترق في يد الدكتور فكرون، وعندها بدأ اللهب يتصاعد.. ثم الدخان..

أنت لا تحلم ولا تهذي.. أنت ترى ما نراه جميعًا.. هذا وجه شيطاني له قرنان يضحك في سخرية، وقد صنعه اللهب والدخان كأنه رسم بألعاب نارية في كرنفال.. يرتفع إلى نحو ثلاثة أمتار فوق الرءوس..

صرخات.. في الظلام بدا المشهد رهيبًا فعلاً..

قال د. فكرون وهو ما زال يمسك طرف الورقة برباطة جأش:

ـ"كما تلاحظون.. لا يوجد تفسير لهذه الظاهرة الشيطانية سوى أن هذا وجه الشيطان.. إنه توقيعه.. وهكذا يمكن أن نعرف من أرسل الخطابات.."

صاح أحد الجالسين:

ـ"أنت تعبث بنا.. رأيت حيلة مماثلة في أحد ملاهي كوبنهاجن.."

قال د. فكرون دون أن يرفع عينه نحوه:

."هذا جميل.. أرجو أن تعتلي المنصة وترينا كيف تفعل ذلك وإلا فلتصمت.."

كان الدخان يخبو والنار تفنى.. وبدأ الظلام يزحف من جديد على القاعة، وهنا أدركنا حقيقة مرعبة أخرى: رائحة الكبريت تخنقنا.. لم يحضر احد الكبريت هنا وليس هناك مختبر قريب. إنها رائحة الشيطان ذاته...

-"أرجو أن تعيدوا الإضاءة"

عندما عاد النور للقاعة كنا نشعر شعورًا غريبًا..

هذه هي تقريبًا اللحظة التي أدرك فيها الجميع أن هناك دائرة حمراء على جبيني. دائرة حمراء متقنة الرسم فاقع لونها. وكنت أسأل فكرون:

-"من أوحى لك بأن تحرق الخطاب؟"

قال باسمًا:

-"ككل اختراع في التاريخ لعبت الصدفة دورًا.. كنت أدخن السيجار وانا أفحص الخطاب. هنا سقط الرماد المشتعل على الورقة واحترقت.. رأيت هذا الوهج الغريب.. كان لدي

خطابان آخران.. أحرقت الأول للتأكد وهذا هو الثاني.."

لماذا ينظر لي في فضول؟.. لماذا؟

قال وهو يضع الرماد الباقي في إناء برونزي صغير:

-"الآن تعرفون أنني على حق.. هذه هي أول خطوة.. بالنسبة لك يا زميل، أرى أن الشيطان قد ألقى عليك بعلامة الموصومين، لذا أطلب منك أن تغادر القاعة لسلامة الجميع"

من؟

كان علي أن أضيع خمس دقائق من البلاهة والغباء وعدم الفهم، قبل أن أفهم ما حدث لوجهي فعلاً...

❧ ❧ ❧

أوقات صعبة مرت برجال المختبر الجنائي وهم يفحصون ما وجدوه من خطابات المحبة. بالطبع لم يخطر لأي منهم أن يشعل النار في خطاب، فلا أحد يحرق الأدلة.. ولو فعلوا لأصابهم العجب..

الرائد حمدي كان موشكًا على الجنون.. بالنسبة له هو يتوقع أن يمسك رجال المختبر الجنائي بخطاب ثم يصيحون: الفاعل هو

فلان المقيم في شارع فلان.. نوعية الورق تدل على أنه تم شراؤه من مصنع فلان، وهذا يقع جوار بيت فلان..

ما نفعهم إذن؟.. وماذا يصنعون بكل أجهزة المجهر هذه؟..لا شيء.. كان رأيه طيلة حياته أن العلم لا نفع له ولا جدوى.. مجرد إضاعة وقت..

أشعل لفافة تبغ جديدة وراح يراقب ما يقومون به. مذبحة النادي كانت عملية مخيفة وقد تحدثت عنها الصحافة.. سوف تطير رءوس كثيرة لو لم يتم القبض على الفاعل أو تفسير ما حدث. لكنه ليس قلقًا على رأسه.. ما يشعر به هو نوع من الاستفزاز الصبياني لدى الشعور بالتحدي.. عندما كان يرى صبيين يلعبان لعبة صعبة كان يصر على أن يجرب نفسه فيها.. لا يهتم بأن يكسب مالاً أو يتجنب عقابًا.. لا يريد سوى التحدي فقط....

قال د. نعمان وهو يصب لنفسه بعض القهوة:

ـ"لا ننكر أن هناك مادة كيميائية تشبع بها الورق.."

اتسعت عينا حمدي.. ما معنى هذا؟

قال د. نعمان:

ـ"مادة كيميائية.. أعتقد أنها تسبب نوعًا من التخدير وربما تضعف الإرادة"

ـ"ما اسمها؟"

ـ"تركيبها قريب جدًا من مادة الهيوسين..تستعملها أجهزة المخابرات في الخارج أحيانًا.. لكننا بحاجة إلى تحليل أدق باستخدام جهاز HLPC "

من جديد توتر الرائد الشاب وأشعل لفافة أخرى:

ـ"هل تعني أن من أرسل الخطابات شبع الورق بمادة ترغم المتلقي على التنفيذ؟"

ـ"هذا احتمال وارد جدًا"

مخابرات.. سموم خفية.. الأمر يتضخم.. شعر بشعر رأسه ينتصب.. القصة كبيرة إذن..

ـ"متى نعرف الحقيقة؟"

ـ"لا أدري.. سوف نحاول طلب خبرات قسم الكيمياء بكلية العلوم. فإن لم نستطع لربما أرسلنا العينة للخارج."

للخارج؟.. سوف يستغرق هذا دهرًا كاملاً... سوف تموت شعوب

وتولد شعوب وتنهار جبال وتحترق مجرات كاملة إلى أن يحدث هذا..

ـ"إذن ابدأ الآن وحالاً.."

عقار يضعف إرادة الناس.. هذا يجعل الأمور مفهومة..

لكن ماذا عن المكان وأوامر القتل؟.. الخطاب يعدك للموت فقط لكن لا يخبرك بالطريقة، فكيف عرفوا مكان اللقاء؟.. هل هناك خطاب آخر أو مكالمة هاتفية؟

لو ظل أحد هؤلاء الحمقى حيًا لانتهت المشكلة..

غادر الرائد المختبر، فاتجه إلى سيارة الشرطة..

كان المجند السائق واقفًا مستندًا إلى السيارة يدخن، فلما رآه أجفل،القى بلفافة التبغ ثم هرع يدخل العربة ويدير المحرك.. لم يعلق حمدي.. كان مرهقًا بالفعل برغم أنه مولع بإهانة الآخرين وتعنيفهم، وخير وقت لذلك هو عندما يشعر ان الأمور غير مفهومة..

جلس حمدي في مقعده وأشعل لفافة تبغ..

هنا رأى ذلك المظروف الأنيق على التابلوه..

نظر للمجند في حيرة:

ـ"من جاء بهذا؟

بدا الغباء على الرجل.. لا يعرف ولم ير من جلبه..

مد يده وفتح المظروف في ضيق وقلبه يدق عاليًا.. وقرأ المكتوب:

"الخميس 27 إبريل..

"استعد للموت في الرابعة عصرًا.

"مع فائق الاحترام"

هكذا إذن؟.. لقد ظفروا بي..

لكن من هم؟

❦❦❦

عندما اجتمع الرائد حمدي مع رؤسائه كان الدخان ينعقد في سماء الغرفة، حتى لتشعر أن هطول المطر وشيك.. وكانت الوجوه مكفهرة بما يكفي..

"بصمات؟"

"بصماتي أنا فقط يا سيدي"

"المختبر الجنائي؟"

"لا شيء. لكنها تلك المادة التي يرتابون فيها.."

طريقة وضع الخطاب في تابلوه السيارة.. هذه قدرات غير عادية ما لم يكن السائق متواطئًا.. وهذا احتمال تم استبعاده. الأمر أقرب لشبح طار ووضع هذا الخطاب..

فكر اللواء جابر بعض الوقت، ورشف رشفة من القهوة التي أمامه ثم قال:

"الخميس 27 إبريل.. هل لديك سبب يجعل هذا التاريخ ذا أهمية؟"

"لا.. ولا الرابعة عصرًا"

تساءل عميد جالس وهو يشعل لفافة تبغ أخرى:

"هل تعرف أين ستكون وقتها؟"

ابتسم حمدي وهز كتفيه.. نحن في مصر.. وفي مصر لا يوجد تخطيط محكم لهذا الحد. لا يعرف أين سيكون في ذلك اليوم طبعًا..

"هل تلقيت دعوة لمكان ما؟"

"لا"

كانت المشكلة هي أن الخطابات تحدد الموعد لا المكان. هناك أحد الأبعاد غير مذكور كما في كل مرة، ومعنى هذا أن هناك خطابًا آخر

في الطريق أو مكالمة هاتفية تحدد هذا المكان. مما سبق من أحداث يمكن القول إن هذه ليست دعابة وإن الخطر داهم والإنذار حقيقي فعلاً. رسائل المحبة تصل لرجال الشرطة أيضًا..

قال اللواء:

"برغم خطورة الموقف فإنني مسرور.. واحد من رجالنا متورط في المستنقع وسوف يحكي لنا كل شيء ونعرف منه التفاصيل أولاً بأول. ألا ترى هذا معي؟"

"بلى"

كان حمدي يجد نفسه فعلاً وسط رجال الشرطة وجو الداخلية. هذا الجو الحاسم العملي، بينما كان يشعر مع العلم والعلماء أنه ضائع وأنه لا يتجه لأي مكان من أي نوع.. جو الشرطة يناسب طبيعته الملول العصبية..

قال العميد:

"إن لدينا وقتًا كافيًا كي نضع حولك رقابة محكمة.. وأنت تعرف أن عليك ألا تتهور أو تأتي بأعمال بطولية لا نعرفها.. كم بقي من الزمن؟.. ثلاثة أيام؟.. سوف نعرف كيف نحميك.."

حمدي كان يعرف أنه قادر على حماية نفسه.. هو ليس أحمق كالآخرين..

فقط عليه أن يعرف السر..

لم تختف العلامة من جبيني.

هذا غريب.. لقد حدث هذا من قبل لدى احتراق خطاب، لكنها زالت بسرعة.. من الواضح هذه المرة أنها ستبقى ..

أنا لا أعرف ما دهاني ولا ما حل بي. فقط أعرف أنني ملعون وأحمل وصمة ما..

وقفت أمام المرآة أتأمل تلك الدائرة الحمراء. لقد تفحصها كل شخص صادفته اليوم تقريبًا.. تثير الفضول بشدة والغريب أنها منتظمة كاملة الاستدارة كأنها رسمت بالبرجل.

تناولت مرطبان كريم الأساس الذي جلبته وبدأت أضع طبقة على جبيني..

أنا أعرف جيدًا أن لي علاقة بهذه القصة. لقد وجدت الخطابات قبل إرسالها في خزانة ثيابي.. لا أعرف من أين جاءت ولا ممن أخذتها، لكنها كانت هناك.. لا أعرف كيف قمت بتوزيعها لكن هذا حدث.. فجأة لم تعد عندي، ومن الواضح أنني لم ألمسها

بيدي لأنه لا توجد بصمات..

أنا لا أفهم التفاصيل.. لكنني أعرف يقينًا أنني شيطان أو ممسوس، وعلي أن أتحرك على هذا الأساس..

بدأت أضع مسحوقًا بلون البشرة..

لا بأس.. أعتقد أنها لم تعد بادية للعيون..

لن يعرف أحد إنني موصوم.. على الأقل اليوم..

كنت أفكر في دكتور فكرون. يجب أن أقابله وآخذ رأيه.. ولماذا د. فكرون؟.. لأنه الوحيد الذي يبدو على علم ولو واهن بالقصة. هو الوحيد الذي استنتج أن من يرسل هذه الخطابات هو الشيطان..

اتجهت للصالة.

هنا فوجئت بشيء غريب..

هناك مظروف تحت الباب. مظروف أنيق من ورق فاخر.. لقد دفعه أحدهم منذ قليل..

هل جاء دوري إذن في دائرة خطابات المحبة المشئومة تلك؟

انحنيت وتناولت الخطاب.. ريقي جاف لذا حاولت أن أبلل

شفتي بلساني.. كانت اناملي ترتجف.. طريقة القتل هنا تجعل القاتل يموت قتيلاً، وهكذا تموت كل الأسرار، ولربما يحدث هذا مع الخطابات أيضًا.. انا أرسل الخطابات ولكن هناك لحظة سوف أتلقى فيها خطابي الخاص..

فتحت الخطاب وقرأت في رعب:

مهندس محمد شاكر ومهندس عادل الشاذلي

يتشرفان بدعوتكم لحفل زفاف كريمة الأول إلى ابن الثاني، وذلك يوم.......الخ..

الحمد لله.. لم يأت موعدي بعد!

هناك اناس رائقة البال يتزوج أبناؤها.. هذا شيء منعش..

❁❁❁

قلب د. فكرون صفحات الكتاب ثم قال لتلميذه:

"السؤال هو: لماذا اجتمع هؤلاء في ناد رياضي؟"

كان رامز نحيلاً عصبيًا تحت عينيه ظلال كثيفة، ويبدو أن قراءة علوم الغيبيات قد أورثته كآبة لا شك فيها.. ولم يكن يبدل اللون الأسود أبدًا مما جعله يبدو كمصاص دماء في فيلم من أفلام

هامر.

قال رامز:

"هذا سهل.. النادي الرياضي يمنح مساحة لا بأس بها ليجتمع المتحاربون.. ساحة قتال تشبه الحلبة الرومانية.."

قال فكرون وهو يعتصر خده:

"كلا.. أريد إجابة أقوى من هذا.."

"مثل؟"

"لا أدري"

خطر لرامز أن أستاذه يتعمد الغموض للغموض.. نوع صبياني من إثارة الاهتمام.. يسأل ولا إجابة عنده.. هذا يثير الغيظ..

هنا دق جرس الباب فذهب ليفتحه.. وجد فتاة رقيقة تقف في تردد:

"أستاذ فكرون؟"

"هو هنا.. ومن أنت؟"

"لمياء صالح.. صحفية"

سمع فكرون من وراء ظهره يأمره بأن يسمح لها بالدخول..

تحركت هالة من العطر الساحر قبلها وبعدها مع صوت الكعب الأنثوي الرقيق..

وفي النهاية كانت تجلس أمام فكرون..

"أنا صحفية.. كنت أريد معلومات أكثر عما ذكرته عن تلك الخطابات. خطابات الشيطان"

"تتكلمين عن الاجتماع العاشر للجمعية الروحانية المصرية.."

"هو كذلك.. كنت هناك لكن لم أستطع جمع معلومات أكثر.."

ثم أخرجت جهاز كاسيت صغيرًا وعادت تسأل:

"هل تعتقد أن للأمر علاقة بانتهاء العالم في 2012؟"

"من قال إنه سينتهي في 2012؟"

"أساطير المايا.. "

قال ضاحكًا:

"العالم انتهى ألف مرة من قبل. شهود يهوه لا يكفون عن انتظار النهاية وفي كل مرة يحددون تاريخًا. قدوم الشيطان كذلك قتل بحثًا من قبل. علامة الوحش 666 وغير ذلك.. يدهشني أن هؤلاء القوم لا ينتحرون بسبب الشعور بالحرج.."

"لكنك تحدثت عن خطابات يرسلها الشيطان ويدعو الناس للموت أو القتل يوم 18 إبريل.."

ابتسم في غموض ثم قال:

"أنت تعرفين تلك التمثيليات البوليسية القديمة.. أنا لم أخنق زوجتي يا سيدي المفتش.. ومن قال إنها ماتت مخنوقة يا سيدي؟.. إذن أنت القاتل!.. "

"لا أفهم"

"أنا لم أذكر حرفًا عن 18 إبريل في محاضرتي. فكيف عرفت التاريخ؟"

عندما دق جرس الباب من جديد قوطعت المحادثة للحظات.

أدرك فكرون من العينين الزائغتين للفتاة أنها في مأزق.. مشكلة البحث عن رد سريع. يجب هو توجيه هذه الضربات الخاطفة..

عندما انفتح الباب كان هذا أنا..

كنت أقف هناك مترددًا أجفف قطرات الماء.. النظارة السوداء، والشارب الذي حلقته والثياب غير المعتادة.. الحقيقة أنني لم

أعرف نفسي في المرآة. من أهم أساليب التنكر أن ترتدي ثيابًا لم يعتد الناس أن يروها عليك.. هذا يختصر 80٪ من الجهد..

ـ"أستاذ فكرون؟"

ـ"هو هنا.. "

ـ"نصر الخولي.. صحفي"

ابتسم رامز ونظر للخلف ثم سمح لي بالدخول..

هنا وجدت د. فكرون يقف في وسط الغرفة عاقدًا ذراعيه على صدره، وجواره تلك الفتاة الرقيقة التي لم أرها من قبل

قال لي بتلك البسمة الساحرة نوعًا التي تبدو عليمة بكل شيء:

ـ"المطر غزير بالخارج؟.. لم تجد سيارة أجرة من الزمالك لهنا. هه؟"

تحسست شعري في ذعر.. بالفعل. أنا مبتل تمامًا.. كل خصلات شعري متلاصقة..

ولكن هذا معناه..

هرعت أنظر إلى المرآة المعلقة على الجدار فرأيت جبهتي وقد ذاب كريم الأساس، وبدت تلك البقعة الحمراء واضحة تمامًا..

نظرت له نظرة ذنب فقال لي:

ـ"اغسل وجهك وتخلص من هذا الكريم والمساحيق، ثم تعال نواصل الكلام"

هكذا دخلت إلى حمام صغير نظيف.. هناك قطعة صابون عطرة الرائحة وماء ساخن.. رحت بعناية أنظف وجهي وأنا أتأمله في المرآة. تبدو لي مهذبًا وابن ناس يا صاحبي.. من الحرام أن تكون شيطانًا أو خليفة شيطان... بالطبع مسحت وجهي في المنشفة فاتسخت بشدة.. لا يهم. لا أعتقد أن فكرون يلاحظ هذه الأمور..

لما عدت للغرفة كان الرجل جالسًا وكانت رائحة القهوة الزكية تعبق الجو. هناك أقداح عدة منها واحد لي!.. واحد لي..!

جلست ورشفت رشفة بينها قال د. فكرون:

ـ"كما يبدو لي فسبب مجيئك هنا هو نفس سبب مجيء الآنسة لمياء.. طبعًا لمياء ونصر هما في الحقيقة أي شخصين آخرين.. كل الأسماء مستعارة هنا.. والآن يا لمياء هل بوسعي أن أطلب منك أن تمسحي جبهتك؟"

قالت الفتاة في عصبية:

-"لا.. لا أريد أن يراها أحد"

هنا تساءلت أنا:

-"من أين تأتي هذه الوصمة؟.. أنت طردتني من المؤتمر لأنك رأيتها على جبهتي، وكنت آمل أن اخدعك اليوم.. لماذا لا تطردنا الآن؟"

رشف رشفة من القهوة وقال:

-"لأن اللغز ما زال مبهمًا وأنتما بحاجة لي. أنتما خادمان للشيطان.. بالتأكيد هناك سواكما ومن الواضح أنكما اشتركتما في الإعداد لمذبحة 18 إبريل.. من أين تأتي الخطابات ومن يكتبها وكيف يتم تسليمها؟"

قالت لمياء وهي ترتجف:

-"أنا كنت أسلم خطاباتي بنفسي.."

-"جميل. من أين تصلك؟"

-"لا أدري.. أجدها تحت الوسادة.."

نظر لي:

-"وأنت؟"

ـ"نفس الشيء.."

ثم فرك كفيه وقال:

ـ"هل تريدان رأيي؟.. ارحلا الآن وتبادلا الحديث.. تناولا العشاء معًا.. اجلسا في مكان وثرثرا.. سوف تتداعى الذكريات.. سوف تتذكران شيئًا منسيًا ولسوف تتضح الحقيقة. إن العصف الدماغي قوة لا يستهان بها، وهذا هو أساس جلسات استحضار الارواح كما تعرفان.. عندما تصلان لشيء يمكنكما طلب رأيي"

ثم هز إصبعه في وجه الفتاة:

ـ"لا تحاولي خداع د. فكرون ثانية.. منذ اللحظة الأولى عرفت أنك لست صحفية.. ثم لاحظت أن المساحيق كثيفة جدًا على جبهتك.. بعد هذا لاحظت عبارة (18 إبريل) التي انزلق بها لسانك.. أنت أردت أن تشتري ولا تبيعي.. تعرفي ما أعرفه ولا تخبريني بشيء.. طبعًا واضح أن هذه صفقة فاشلة"

نظرت لها ونظرت لي..

مستقبل غريب فعلاً..

ل الساعة الثانية مساء بدأ حمدي يتوتر..

كان هذا هو يوم 27 إبريل..

راح يجوب شقته في قلق.. وكان يعرف بالضبط إلى أين هو ذاهب وما سيقوم به. اتجه إلى الهاتف ورفع السماعة.. سيطلب اللواء ويخبره بكل شيء.. لا يعرف كيف ولا متى وجد السلك مقطوعًا يتدلى على الأرض.. لقد قطعه.. قطعه دون أن يشعر!

دس المسدس في جرابه المعلق تحت إبطه وارتدى السترة الأنيقة.. شعور غريب أن تدرك أنك لن تلبس السترة بعد اليوم.. لن تبيت في دارك أصلاً... سوف تكون تحت الأرض في مكان مظلم رطب..

ما هذا الجنون؟.. تتكلم كأن هذا تم فعلاً.. يجب أن تتمالك أعصابك..

رفع الهاتف المحمول ليتكلم ثم أدرك أنه مكسور.. متى؟... لابد أنه أخذه للمطبخ وهشمه بيد الهاون..

كان يعرف ما يحدث.. لقد مر على شقة جاره منذ نصف ساعة. حكى له قصة معقدة عن العصابة التي تقتفي أثره.. لا يريد منه سوى ان يلبس هذه البذلة الرمادية ويغادر البناية. سوف يمشي

خلفه عدد من الأشخاص.. لن يؤذوه.. فقط سوف يتبعونه إلى أن يجد أي سيارة أجرة يركبها ويعود بها.. علمه طريقة الخلاص من المتابعة وكيف يبدل سيارة الأجرة فجأة. الخ.. الجار شاب متحمس يعشق المخاطرة وقد وافق على الفور..

هكذا وقف حمدي يضحك في خبث وهو يختلس النظر من الشرفة ليرى المخبرين المكلفين بحمايته يقتفون أثر جاره لأنه يلبس نفس البذلة وله نفس القامة..

لماذا فعل هذا؟. لا يعرف.. يجب أن يفعل هذا.. ربما لأنه يريد حل اللغز..

وربما لا؟

عندما غادر البناية بعد دقائق واتجه لمرآب السيارات لم يدرك أن هناك سيارتي شرطة تقفان للمراقبة، وإذ تحرك بسيارته انطلقت سيارة تقفو أثره..

تبًا!.. لم يتخلص منهم بعد...

انطلق بسيارته بأقصى سرعة في الشارع المزدحم. هو بارع في القيادة فعلاً ويعرف أنهم لن يلحقوا به.. فجأة انعطف يسارًا بلا

...ار ليدخل شارعًا ذا اتجاه واحد..

"أيها الحمار!"

كانت هذه صيحات السيارات التي وجدته أمامها فجأة..

وعند قمة الشارع وجد شرطيًا على دراجة بخارية يشير له كي يتوقف.. يا للحظ!.. اخرج الكارنيه ولوح به تحت أنف الشرطي المذعور ثم انطلق بسيارته مسرعًا.. لحسن الحظ نحن لسنا في دولة متقدمة وإلا لكانت هناك طائرة هليوكوبتر ترصد تحركاته من أعلى، ثم تهبط أمامه..

"الخميس 27 إبريل..

"استعد للموت في الرابعة عصرًا.

"مع فائق الاحترام"

هكذا قال الخطاب.. الجديد هنا أنه يعرف مكان اللقاء.. قرب الاستاد الرياضي.. فقط يجب أن يسرع وإلا فاته الموعد الرائع. موعد حفل الدماء الذي سيقام في الرابعة عصرًا.

***

عند ذلك المحل الخالي الخاص بالاتصالات في شارع جانبي أوقف

سيارته، واعترف لنفسه بأنه فقد الاتجاه تمامًا.. لا يعرف أين هو
بتاتًا.. كان المحرك يلهث من الإنهاك، وكذلك هو.. قلبه يتواثب
بلا توقف.. الدخان يتصاعد من ماسورة العادم ومن رئتيه..

طلب الهاتف من البائع الذي ظل يرمقه في دهشة.. هناك أمر
يتعلق بالحياة والموت.. ليس أقل..

طلب رقم اللواء جابر الذي يحفظه لحسن الحظ.. عندما جاء
صوت الرجل المتقدم في السن، والذي يبدو أنه كان يوشك على
النوم بعد الغداء، صاح حمدي في ذعر:

ـ"سيدي.. أنا لا أستطيع السيطرة على نفسي"

احتاج لبعض الوقت حتى يشرح سبب اتصاله من هاتف آخر..

هتف اللواء عبر الهاتف:

ـ"اهدأ يا حمدي.. أين أنت؟. ولماذا فررت من المراقبة؟"

ـ"لا أعرف السبب يا سيدي.. لهذا اتصلت.. أنا في ورطة..
كأن.. كأن هناك جزءًا من ذاتي يدفعني دفعًا للموعد.."

ـ"أين أنت؟"

استعلم عن العنوان من البائع المذهول، وأملاه على اللواء.. هنا

قال رجل الأمن المسن عبر الهاتف:

"ليكن.. سوف تبقى حيث أنت ولا تتحرك.. سوف تلحق بك سيارات الشرطة حالاً.. بالمناسبة هل عرفت إلى أين أنت ذاهب اصلاً؟"

-"الإستاد الرياضي.. الرابعة عصرًا.. "

-"كيف عرفت ذلك؟"

-"لم يبلغني أحد.. عرفت وحسب"

الحقيقة أنه تلقى مكالمة هاتفية منذ فترة تخبره بالمكان.. والمكالمة تضمنت إنذاره من البوح بحرف..

-"هذا العنوان الذي تصفه.. إنه قريب من الإستاد فعلاً.. معنى هذا أنك وصلت.. "

-"لا أدري.. الحقيقة أنني فقدت الاتجاه تمامًا.."

قال اللواء بلهجة من ينصح صبيًا أحمق تجاوز الحد:

-"اسمع... سوف تظل حيث أنت.. سوف تجلس ولا تتحرك إلى أن نصل لك.. أعتقد أنك تمر بشيء يشبه التنويم المغناطيسي.. ناول الهاتف لصاحب المحل"

فعل حمدي كما طلب اللواء، وراح يراقب في بلاهة المحاورة بين صاحب المحل المذعور والطرف الآخر.. نظرات البائع القلقة محاولة التصديق.. هل من يكلمه لواء شرطة حقًا أم هو مقلب كبير؟

في النهاية أغلق الهاتف، وقال لحمدي:

ـ"معذرة.. أعتقد أن علي أن أنفذ كلامه.. يقول إن هذا لمصلحتك"

قال حمدي في استسلام وهو يحك رأسه:

ـ"سأبقى هنا.. سأحاول ان أبقى هنا لكن لا أضمن النتائج.. قد أضربك أو أفتك بك في أي لحظة قبل أن يصل رجال الشرطة"

اتجه البائع إلى باب خلفي في المتجر الصغير:

ـ"هذا مخزن صغير يتسع لشخص واحد.. أرجو أن تدخله.. هذا لمصلحتك"

ـ"سوف تغلقه علي؟"

وتحركت في روحه مخاوف الكلوستروفوبيا القديمة، لكن لا بأس.. لن يطول الأمر قبل أن تدوي صافرات الشرطة..

مد البائع يده المفتوحة وهمس:

ـ"أرجو يا سيادة الرائد أن تناولني الطبنجة.. هذه أوامر اللواء"

"هل تمزح؟"

"لا أمزح.. لكن طالما ظلت الطبنجة معك فبوسعك أن تقتلني ، نفر في أي وقت"

لم تردد أخرج حمدي المسدس ودسه في يد البائع. ستكون هذه اول مرة.

هكذا دخل المخزن الضيق وانتظر حتى انغلق الباب.. لحسن الحظ أن الوقت عصر والإضاءة ممتازة لأنها تتسرب من نافذة صغيرة على ارتفاع مترين عن الأرض.. إن هذا المخزن يطل على زقاق ضيق..واستطاع أن يرى أن المطر عاد ينهمر من جديد...

سوف ينتظر.. لن يذهب لموعد الموت..

❦ ❦ ❦

أنا وأنت ضحيتان لقوى لا نفهمها..

أنا وأنت منبوذان خطران يجلبان الموت..

كنا نمشي في شوارع المدينة وقد تعانقت أناملنا.. وحد المصير بيننا فتعانق قلبانا.. كنا غريبين منذ ساعات، والآن يخيل لي أننا معًا منذ ولدت المحيطات...

ـ"اسمك ليس لمياء طبعًا؟"

ـ"واسمك ليس نصر طبعًا"

لم يجسر أحد على السؤال عن الاسم الحقيقي. لشد ما تدب الحياة في الأسماء بعد لحظات!.. كم أن هذا غريب.. لو أطلقت اسمًا على علبة ثقاب لصار منطبقًا عليها.. بعد قليل سوف تشعر أن هذا هو الاسم الوحيد الصالح لها. هذه لمياء ولن أسمح لها بأن تحمل أي اسم آخر.

لكننا سوف نعرف اسمينا الحقيقيين عما قريب. كنا نعرف الحقيقة.. سوف نتزوج على الأرجح.. سوف نمزج ألمنا معنا.. سوف نمزج حيرتنا معًا.. سوف نصير شيئًا واحدًا..

قلت لها والمطر يهطل من جديد:

ـ"نحن موصومان.. نحن شيطانيان.."

ـ"نعم.. بلا ذنب"

كان المطر ينهمر وتحول شعرها إلى شيء يشبه شباك الصيادين عند إخراجها من البحر.. وسال شعري على عيني كأنه سائل أسود. كنت أرى الوصمة الحمراء على جبينها وجبيني.. لو أن

اي واحد رآنا لأدرك السر ولولى ذعرًا..

الشوارع خالية والبرد يتاح عظامنا..

قالت لي:

ـ"هل عرفت من أين تأتي خطاباتك؟"

قلت لها في شرود:

ـ"لا.. ثمة رؤى متداخلة مبهمة لا أعرف كنهها.. لا أقدر على الشرح.. فقط أجد الخطابات عندي تنتظر أن ترسل.. ثم أكتشف أني أرسلها.. لا أعرف كيف ولا متى.."

ـ"هذا يحدث معي حرفيًا.. خطر لي إنني مجنونة وأفعل كل هذا وأنا غائبة عن الوعي.. ربما هو نوع من السير أثناء النوم.. لكن لو كان هذا صحيحًا فلماذا يطيعني الناس؟"

قدمت لها اعترافًا أسوأ:

ـ"أنت وزعت خطابات تدعو للموت اليوم.. يوم 27 إبريل.. أليس كذلك؟"

ـ"بلى.."

كنت أعرف أنا ايضًا أنني فعلت هذا.. هناك مذبحة ستحدث

اليوم لا أعرف كيف ولا متى، لكني مسئول عنها..

كانت ترتجف بالدموع وصدرها يعلو ويهبط:

ـ"أنا مجرمة"

ـ"أنا قاتل.."

توقفنا أسفل بناية شامخة، وكان ميزابها يتدفق بلا توقف.. يوشك أن يبلل ثيابنا.. سمعت صوت الرعد في السماء.. غريب أنني لم أر البرق..

قلت لها وأنا أمسك بيدها:

ـ"سوف نتزوج.. أنت تعرفين هذا؟"

قالت في غموض وهي ترمق السماء:

ـ"بل سوف نموت.. أنت تعرف هذا.."

قلت بغباء حقيقي:

ـ"كيف نموت ونحن من نميت؟"

ـ"سوف نقضي على نفسينا.. عندي خطاب من خطابات المحبة يدعو للموت يوم 3 مايو.. أنا أعرف يقينًا أن عندك خطاب مماثل..."

ـ"وماذا في ذلك؟"

ـ"سوف تعطيني خطابك وأعطيك خطابي.. هكذا سوف نفتك ببعضنا البعض!"

ـ"وهل هذا حل؟"

ـ"هو حل ناجح جدًا للبشرية.. نحن عقربان.. لابد من الخلاص منهما.."

ـ"وماذا يضمن لك أننا سننفذ ذلك؟.. "

ـ"التجربة هي المحك.."

كانت تتكلم بقسوة وثبات.. وخطر لي أنها مخبولة، ثم تذكرت الدماء التي سوف تسيل عن طريقنا برغم إرادتنا.. ربما كان هذا أفضل شيء نفعله. أن نفتك ببعضنا..

❀ ❀ ❀

لقد تأخرت سيارات الشرطة.. ليته يستطيع أن يشعل لفافة تبغ لكن المكان ضيق وهناك صحف وأوراق كثيرة على الأرض..

جلس حمدي على كومة من الصحف وراح يرمق حذاءه..

هنا وقعت عيناه على المظروف.. المظروف الأنيق الملقى وسط الأوراق في المخزن الخلفي الصغير..

عبث في المظروف حتى فتح الخطاب. وجد السطور التالية:

"الخميس 27 إبريل..

"استعد لقتل رجل في الرابعة عصرًا.

"مع فائق الاحترام"

شعر بقشعريرة وانتصب شعر رأسه.. هذا الخطاب ليس له بل وصل لصاحب محل الهاتف..

هذه دعوة لمذبحة جديدة.. ومن قال إن الموعد في الاستاد الرياضي؟.. المكالمة قالت إن الموعد (قرب) الإستاد الرياضي... وهذا هو ما يحدث الآن..

إذن وجوده هنا لم يكن صدفة.. وقد أعطى البائع مسدسه بكل غباء وجلس ينتظر في المخزن كأنه خروف ينتظر الجزار!...

❦ ❦ ❦

تشاك!... كليك!

سمع حمدي الصوت، وهو بالطبع رجل أمن محترف أطلق الرصاص مئات المرات في التدريب وسواه، ويعرف معنى ما يسمعه..

جلب كومة الصحف.. ووضعها تحت النافذة، ثم تسلق عليها ليصل إلى النافذة الضيقة.. لحسن الحظ أنها غير ذات قضبان.. فقط عليه أن يهشم الزجاج ويحشر جسده من خلالها. بالفعل لف المنديل حول قبضته بعناية ولكم الزجاج بأعنف ما استطاع وهو يغمض عينيه ويضغط على أسنانه. شم رائحة المطر والبلل من الخارج.. وقدر أنه سيفلت.. فقط لو تأخر هذا القاتل ثلاث دقائق أخرى..

بدأ يحاول أن يحشر جسده عبر النافذة..

تبًا!!.. ضيقة جدًا.. لكنه سوف يفعل ذلك..

هذا هو الزقاق.. هه.. هه... ضيق جدًا...

أرنب يحاول الفرار عبر شق ضيق في عشة الدجاج عند جدته.

هل نجح؟

لكن الوضع بالخارج كان مثيرًا فعلاً.. رسائل المحبة قد ذهبت في

كل صوب.. إنه يرى بوضوح..

يرى تلك السيدة التي تقف في نهاية الزقاق وقد ابتلت بمادة ما.. ربما الكيروسين.. تصرخ.. هناك شعلة تسقط فوقها من عل.. في اللحظة ذاتها هناك من يحمل (مخرطة) ملوخية يطوحها في كل صوب ليطير الرقاب.. رقاب من؟.. هناك أربعة رجال التحموا في قتال عنيف.. وفي الآن ذاته تطلق سيدة طلقة نارية على رجل في طرف الزقاق الآخر.. كل شخص قد وجد سلاحًا ما.. وكل شخص يستعمله..

رسائل المحبة!.. تبًا!... الكل تلقى رسائل المحبة.. إنه الجحيم.. أبوكاليبس.. سفر الرؤية يتحقق.. مارس إله الحرب قد صحا من نعاس عميق وقرر أن يعمل قليلاً. والأرنب لا يستطيع التملص.. هذا مأزق..

أين رجال الشرطة؟.. لقد أرسلهم اللواء جابر منذ فترة، فهل هم لم يقدروا على اجتياز الزقاق؟.. هل هم متورطون في تخليص المشاجرات أم أن يوم القيامة هذا امتد لهم؟.. ربما يفتك رجال الشرطة ببعضهم الآن...

في هذه اللحظة شعر بيد قوية تطبق على ساقه..

هذا موقف لعين بحق.. أن تجد نفسك محشورًا في نافذة ضيقة، ونصفك الخلفي تحت رحمة مجنون يحمل مسدسًا.. هذا موقف غير محبب، والأسوأ أنها ميتة غير أنيقة لأن الطلقة سوف تستقر في.....

طاخ!..

أدرك أنها استقرت هناك في أسفل ظهره.. سوف يقضي العمر مشلولاً لو عاش، لكنه ابتسم، وسال ماء المطر على وجهه مدرارًا.. لن يتوقف صاحب المحل عند هذا.. بالتأكيد سوف يطلق رصاصة فعالة أخرى تنهي كل شيء.. لن يدوم الشلل..

طاخ!!

هذه هي!

***

عندما خرجنا من مكتب المأذون كانت اناملنا متعانقة..

شقتي كانت قريبة، وقد ابتعت بعض الشطائر من محل تيك أواي.. ثم صعدنا في الدرج.. لو رآنا أحد فلن يصدق اننا زوجان حديثان وأن هذا حفل زفافنا..

لقد توقفت الأمطار.

الآن أعرف اسمها وهي تعرف اسمي.. ما كنا لنتزوج من دون بطاقتي هوية.. لن أخبرك بالاسمين.. يكفيك أن تعرف اسمي لمياء ونصر.

لم أسألها عن أسرتها ولم تسأل عن أسرتي.. لا قيمة للماضي ولا الحاضر.. المستقبل هو الشيء الوحيد أمامنا وهو مظلم عطن كالقبور..

لماذا تزوجنا؟

لأننا شعرنا بالوحدة.. كل واحد فينا موصوم وحيد.. يحمل لعنة القرون. كان لابد أن نمزج خوفي وخوفها معًا.. عندما نموت لن نموت ونحن نرتجف مذعورين وحيدين..

أنا وأنت ضحيتان لقوى لا نفهمها..

أنا وأنت منبوذان خطران يجلبان الموت..

كنا نلتهم الشطائر ومن حين لآخر أخرج قطعة دجاج من شطيرتي لأدسها بين شفتيها.. تمد يدها في شطيرتها وتفعل ذات الشيء، وتنظر لي في ثبات.. ما أجمل عينيك!!..

أرى نفسي في عينيها.. أنا جميل.. برغم تلك الوصمة على

جبيني.. هي رائعة الحسن..

انا مرهق..

هل توقفت الأمطار بالخارج؟.. لابد أنها كذلك..

وفي الصباح شربنا الشاي باللبن والتهمنا شطائر الفول والفلافل، ووقفتْ أمام المرآة تصلح من زينتها وتضع المساحيق على جبينها، كما وضعت المساحيق على جبيني..

مدت يدها تتناول الخطاب مني:

"الأربعاء 3 مايو..

"استعدي لقتل رجل في الثامنة مساء.

"مع فائق الاحترام"

نظرت له وابتسمت، ثم مدت يدها في حقيبتها وأخرجت خطابًا آخر.. الخطاب الذي يدعوني للموت. وأعطته لي..

تناولت الخطاب وابتسمت لها..

كنا نعرف الآن أننا سنقتل بعضنا. أين؟.. لا نعرف بعد.. لكن سيكون الأمر في ملعب رياضي أو ناد أو استاد كبير.. على الأرجح لأن هذا يجعل المشهد أقرب لمباريات الموت الرومانية

في الـ Arena..

قالت وهي تحمل حقيبتها وتتجه للباب:

"سلام.. لا تقتلني ببشاعة من فضلك.. لا داعي للذبح والحرق.. استعمل الرصاص"

كان من الواضح أن السم غير وارد في القائمة.. لابد من أساليب عنيفة انفعالية.

قلت باسماً:

"السلاح الناري أو المطرقة على الرأس أو الدهم بسيارة.. يجب أن نلتزم بهذه الأساليب. أعرف أن النساء يقتلن بطرق أبشع من الرجال لكن عليك أن تغيري طبعك من أجلي"

ما أغربها محادثة.. لكن منذ متى يمر المرء بأشياء مألوفة؟

الأربعاء 3 مايو...

الثامنة مساء..

كنا نقف الآن أمام باب الدكتور فكرون..

بوضوح لمحت حقيبتها مفتوحة.. وأدركت أنني أرى مقبض الشاطور يطل منها، بينما كانت الطبنجة التي ابتعتها من ورشة

ا، زقاق تثقل جيبي..

، أت ما رأيته وفهمت نظراتي فقالت:

"هل سوف تقتلني الآن؟"

ساد الصمت.. تحسست المسدس للحظات ثم نظرت للأرض..

"لا تستطيع.. أليس كذلك؟"

"بلى.. وأنت. كل ما تحتاجين له هو أن تقبضي علي الشاطور وتهوي على رأسي"

"مستحيل.."

"أعتقد أن الحب ولد بيننا.. ثمة علاقة روحية جعلت التنفيذ صعبًا"

قلت لها وأنا أطوق كتفها بذراعي شاعرًا أن هذه الفجوة موجودة هنالك منذ الأزل من أجلها.. نفس الحجم:

"لقد بحثت.. وعندي ألف سؤال.. الحقيقة هي أنني أشك في فكرون نفسه.."

اتسعت عيناها في رعب فقلت:

"هذا الرجل مستجد على الساحة وعلى الجمعيات الروحانية من

فترة قريبة جدًا.. لا أحد يعرف من أين جاء ولا أين كان قبل ذلك الحقيقة هي أنني أعتقد أن هذا الرجل مصدر الخطابات.."

"وما مصلحته؟"

"لا أعرف.."

"ما حدود قدراته؟.. كيف تصل الخطابات لمستحقيها؟.. وكيف تصل لنا؟.. هل هو قادر على صنع تلك العلامة الحمراء؟"

قبل أن أرد سمعت الباب ينفتح.. يبدو اننا تكلمنا بصوت عال نوعًا. الدرس الأول لدى التعامل مع الأمور الخارقة للطبيعة هي ألا تفصح عن خواطرك أمام باب، أحد الخبراء.. سوف يسمعك حتمًا..

كان هذا وجه فكرون وقد سقطت الظلال عليه فبدا لا ينتمي لهذا العالم.. وجه طوطم قديم منسي حافل بالأسرار.. قال لنا وهو يفسح الطريق:

"لم تستطيعا قتل بعضكما.. كان يجب أن أعرف هذا.. استنتاجاتك جيدة لكنها ناقصة جدًا.."

عندما جلسنا بالداخل طلب من رامز أن يعد لنا بعض الشاي..

ما مًا لم تكن عندي أي نية لشرب شيء في هذا البيت بعد الآن..
لكن فكرون أشعل سيجارًا ووضع ساقًا على ساق وقال:
"أنتما تعتبران هذه الخطابات شيئًا مخيفًا بغيضًا.. الحقيقة عكس
ذلك.. منذ أعوام جاء إلى الأرض كيان.. لن أشرح ما هو لكنه
خير خالص، وكانت مهمته هي أن يعاقب المجرمين الذين أفلتوا
من القانون.. كانت لديه قائمة ممتازة.. المدرس الذي يتحرش
بالمراهقات البريئات اللاتي يأتين لبيته لتلقي درس خصوصي..
طبيبة التوليد التي مارست الإجهاض وترقيع البكارة مرارًا
مقابل مال وفير.. لاعب كرة على علاقة بأخت زوجته.. ضابط
مرتش يخفي الأدلة أو يزيفها.. كل هؤلاء مجرمون.. وكلهم
يخفون مخالبهم ويبدون للمجتمع ملائكة.لقد حاكمهم وأصدر
عليهم الحكم بالإعدام.. وطريقة الإعدام لديه هي أن يحتشدوا
في ساحة واسعة ويذبحوا بعضهم.. حركات تطهير مستمرة"

تساءلت في حيرة وأنا ازيح الشاي جانبًا:

"وما دورنا نحن؟"

"لم يكن هذا الكيان قادرًا على تنفيذ المهمة وحده. لابد من موزعين
يحملون رسائله وينقلونها بقوى نفسية إلى المحكوم عليهم.. هؤلاء

الموزعون يجب أن يكونوا شديدي النقاء والطهر. هذه شهادة لكما بأنكما نقيان كالثلج. انتما تتلقيان الخطابات دون أن تعرفا ذلك وتوزعانها من دون أن تشعرا. ومع الوقت تظهر بقعة حمراء صغيرة على جبين كل واحد منكم "

هنا تساءلت لمياء وقد قررت الوقوف بسبب توترها:

"إذن أنت من يكتب الخطابات ويرسلها!"

قال باسماً بطريقته السمجة:

"أنتما لا تفهمان شيئًا.. أنا أريد أن تتوقف هذه الخطابات بأي ثمن!"

رأى عدم الفهم على وجهينا فقال:

"كنت أريد أن أعرف من هم الموزعون الذين اختارهم الكيان .. لهذا قدمت هذا العرض الساحر وتكلمت عن الشيطان الذي يرسل رسائل.. وجعلت الورقة تحترق بهذا الشكل الصبياني. كنت أعرف أن الموزعين سوف يعرفون ويأتون.. لن يقاوموا فضولهم لفهم ما يدور وما يحدث لهم .. وكنت آمل أن أقنعهم بقتل بعضهم.. لكن من الواضح أنني فشلت في ذلك"

ونهض وسحب الدخان من السيجار ثم اطلق سحابة كثيفة وقال:

"ربما هو الحب.. لا أعرف بالضبط.. "

وفي اللحظة التالية توارى في غرفة داخلية..

كان رامز يقف هناك على باب الغرفة وقد بدا ككلب (بيت بول) يحاول حماية سيده. صحت فيه:

"أنت تعرف هذا من البداية؟"

قال في عصبية:

"لا. ولا أفهم حرفًا مما تتكلمون عنه.. لكني أعرف شيئًا واحدًا.. أنهما لن تضايقا د. فكرون!"

حاولت أن أبعده فوجه لي لكمة أطارت الشرر من عيني. جاوبته بلكمة مثلها والتحمنا في صراع عنيف.. سقطنا على أريكة وضربت رأسه في الجدار مرارًا.. أخيرًا همدت حركته وبدا أنه فقد الوعي أو مات.. لا وقت لفهم هذا..

قالت لمياء وهي تلهث:

"لكن من هو فكرون إذن؟"

قلت لها وأنا أسعل وألملم ثيابي وأنهض من فوق ضحيتي:

"شخص يهمه أن تنقطع خطابات المحبة.. شخص يهمه أن تتوقف عملية القصاص هذه.. شخص يقدر على أن يرسم علامات حمراء على جبيننا ويحرق ورقة فتتخذ شكل رأس الشيطان.."

وتراجعت للخلف ثم وثبت لأضرب الباب بقوة بكتفي ... لم أجرب إن كان موصدًا أم لا.. والحقيقة أنه لم يكن كذلك.. لقد انفتح على الفور..

وليتني لم أر ما رأيته..

في وسط الغرفة لم يكن هناك د. فكرون.. كانت هناك بقعة من الرماد يتصاعد منها دخان أحمر غريب الشكل.. ورحنا نسعل بسبب رائحة ثاني أكسيد الكبريت.. نسعل حتى بعد ما فتحنا النوافذ ليدخل الهواء النقي.



المريض التالي

فكرة غريبة وسخيفة لذا لم يؤمن بها إيمانًا تامًا.. طبعًا هو لا يعرف أنه في قصة رعب وإلا لفكر في هذا الاحتمال جديًا. لكنه في عالم الواقع.. وفي عالم الواقع لا يعود الموتى لمطاردة الأطباء..

لابد من تفسير آخـر.. تشابه الاسماء والملامح ليس دليلاً كافيًا.. لكن ماذا عن طوفان مرضى بلا ضغط دم ولا نبض ولا تنفس؟

يحتاج إلى التركيز.. يحتاج إلى اتخاذ قرار صحيح..

سوف أحكي لكم قصة مسلية نوعًا.. قصة عن الطبيب البارع د. هجرس الذي يملك عيادة فاخرة في حي المهندسين. يمكنك أن تراه وهو يوقف سيارته الفاخرة الفارهة - الفارهة معناها السريعة وليس الفاخرة - أمام العيادة في ذلك الشارع الرئيس، ثم ينزل من السيارة في تؤدة ويعيد غلق سترته، ويعيد ربطة العنق لموضعها الصحيح، ثم يتجه في ثقة إلى المدخل. يمكنك أن ترى المدخل الفاخر للعيادة وتسمع صوت الموسيقا ينبعث من السماعات المتناثرة هنا وهناك، بينما المرضى ينظرون في لهفة إلى مندوب السماء الذي يدخل حاملاً الأمل والسحر لكل المرضى.. يهز رأسه محييًا الممرضة - وهي حاصلة على ماجستير في الآداب على فكرة - حيث وقفت خلف الكاونتر تداعب أزرار لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ثم يبتسم بثقة سمجة للجالسين.. نعم أنا أعرف أسرار الحياة والموت وأملك التعاويذ السحرية التي تطرد عنكم تلك الأرواح الشريرة.. لقد جلبتم لي القرابين، أعني أنكم دفعتم ثمن الكشف الباهظ، وهذا معناه أنكم صرتم مؤهلين للسر ولأن تحملوا الكلمة..

الكلمة..

إن د. هجرس كذلك وسيم جدًا، له شعر أبيض أنيق ووجه
، مب بالغ الجمال.. له ذلك التأثير الذي يصفه الغربيون بتأثير
الهالة Halo effect حيث يحيط الشعر الأبيض برأسه فلا تجرؤ
على مناقشته.. إنه الكاهن الأعظم..

في غرفة الكشف الواسعة المكيفة التي يوجد فيها أنتريهان
أنيقان وكتبة تمتد من جدار لآخر، وحيث توجد نافذة عريضة
تمثل جدارًا كاملاً وتظهر منظرًا بانوراميًا لشارع البطل أحمد
عبد العزيز، ينزع سترته ويضع المعطف الأبيض ويجلس خلف
المكتب... ويدق الجرس..

عندما يدخل المريض الأول يضغط زرًا لتنغلق الستائر الفينيقية
على النافذة.. هذا يسبب نوعًا من الانبهار لدى المريض.

ـ"المريض يجب أن يكون خائفًا بشكل ما من الطبيب.. لو لم يخف
فلن يشفى"

كان د. هجرس يؤمن بهذه المقولة تمامًا ويطبقها حرفيًا...

يتصل بزوجته في البيت... بضع كلمات جافة. بالطبع هو يخونها
وهي تعرف ذلك.. واجبه أن يخونها.. هذا ما يفهمه.. كأنها

لعبة الشطرنج حيث يتحرك الفيل بالورب ويتحرك الحصان على شكل حرف L.. لقد احتل موضعًا في المجتمع يحتم عليه أن يتسم بصفات معينة..هذا الموقع هو موقع الطبيب الناجح الوسيم الوغد الذي لا قلب له، والثري جدًا والأنيق جدًا.. هذا هو الموضع وعليه أن ينفذ المطلوب منه حرفيًا... يجب أن تكون زوجته مغرورة شرسة حمقاء باردة، وعليه أن يحب فتاة شابة مليئة بالحيوية.. الخ.. كل هذا الهراء...

يدق الجرس ليدخل أول مريض....

الاسم حسب شاشة الكمبيوتر هو (صبحي عبد الحميد)...

يرفع رأسه بتلك النظرة الوقور المخترقة...

كان المريض ناحلاً جدًا شديد الشحوب. د. هجرس يمارس طب الكلى ولم يعد يندهش لدى رؤية مريض في هذه الحالة.. هؤلاء اتخذوا مواضعهم في لعبة الشطرنج كذلك.. على المريض أن يكون شاحبًا واهنًا فقيرًا بائسًا.. (صاحب عيا) بالمعنى الحرفي للكلمة..

-"المهنة يا استاذ صبحي"

نظر له صبحي بعينين واهنتين نظرة طويلة.. نظرة جمدت الدم في

عروقه. ما سر هاتين العينين؟.. هناك خلل ما فيهما بلا شك..

قال صبحي:

ـ"أنا مهندس... "

ـ"السن؟"

ـ"ولدت عام 1951 .. سني أربعون عامًا"

هذا معناه أن سنه.. لا بأس.. خطأ حسابي بسيط وأنت لا تتوقع أن يكون مريض بهذه الحالة في دقة نيوتن.

لم يكن لدى الرجل الكثير مما يقال.. بالواقع لم يكن عنده شيء على الإطلاق.. قليل هم المرضى الذين ساء حالهم لدرجة أنهم لا يدركون ما يشكون منه، لكن هذه هي الحقيقة..

نهض المريض ليرقد على الفراش.. عرى بطنه وصدره فراح د. هجرس يمرر أنامله على الجلد البارد.. كان الهزال واضحًا.. بمكنه من خلال لمس البطن أن يتحسس فقرات الظهر..

وضع السماعة على صدر المريض فلم يسمع أي شيء.. لا صوت على الإطلاق.. لكنه كان يعرف أن هذا الموقف يحدث أحيانًا وتفسيره عند الله وحده..

الآن يقيس ضغط الدم... من جديد ينزل عمود الزئبق فلا يسمع أي صوت لنبضات.. يعرف كل طبيب أن هذا يحدث كثيرًا جدًا... أحيانًا يكون الضغط الانقباضي والانبساطي متقاربين جدًا.. أحيانًا يكون هناك خلل في السماعة أو أذنك.. المهم أن هذا يحدث..

عندما نهض ليكتب العلاج للمريض لاحظ أنه ينظر له بثبات غريب..

نبتت قطرات من العرق على جبين الطبيب وتنفس بعمق.. هذا المريض يشعره بعصبية فعلاً. طبعًا كتب بعض الفيتامينات مع قائمة هائلة من التحاليل...

واسترخى في المقعد كعادته بتلك الطريقة التي يعلن بها أن الجلسة انتهت،، سأله صبحي وهو يمسك بالروشته:

ـ"مم أشكو بالضبط يا دكتور؟"

ـ"التحاليل.. التحاليل سوف تقول كل شيء.."

غير أنه لم يكن راضيًا.. التجربة كلها كانت مربكة غير مريحة. تذكر قصة قديمة لجي دي موباسان يحكي فيها عن خبير مبارزة تورط

في تحد لشاب غرير، وفي ليلة المبارزة انتابه قلق عصابي غريب جعله لم ينم لحظة واحدة.. برغم أن قتل الفتى أمر مفروغ منه..

لماذا يرتبك وهو الطبيب العتيد المخضرم أمام مريض واهن كهذا؟

كان غارقًا في هذه الخواطر عندما دخلت المريضة التالية..

اسمها (رانيا فؤاد)... في العشرين من عمرها..

نحيلة جدًا شاحبة جدًا.. غاصت عيناها في المحجرين فبدت كأنها جمجمة تتكلم..

عندما قاس لها ضغط الدم لم يسمع اي شيء.. عندما وضع السماعة على صدرها الضامر الذي يمكن عد ضلوعه بدقة أدرك أنه لا يسمع أي شيء،،،

هذه المرة بدأ يتوتر..

طلب الممرضة فجاءت مسرعة وهي تلوك قطعة اللادن المعتادة.. طلب منها أن تجري تخطيط قلب للمريضة.. ووقف يراقب المشهد بينما هي تربط الأقطاب...

عندما رفع عينيه نحو عينيها أدرك أن هناك مشكلة..

وعندما نظر لشريط تخطيط القلب كاد قلبه يتوقف شخصيًا...

لم يكن على الورق سوى خط مستقيم طويل..

طلب هجرس زجاجة من النبيذ الأبيض مع السمك كما هي العادة، فلما جاء الساقي صب لشاهنده في كأسها ثم صب لنفسه.. يحب عينيها مع هذه الشمعة المتراقصة. الموسيقا عذبة.. يحب هذا المكان بالتأكيد.. دعك من أنه مكان آمن..

نظر لساعته.. يعرف أن ثريا لن تتصل به قبل ساعة. تعرف أنه لا يرد على المكالمات طيلة وجوده في العيادة، وتعرف أن هاتف العيادة مشغول دائمًا.. مضت فترة طويلة منذ قامت بجولة تفتيشية. أما هو فيغادر العيادة مبكرًا ويأتي إلى هذا المطعم على الطريق السريع، حيث تنتظره شاهنده أو غادة أو ريهام أو مي.. دائمًا هناك واحدة.. لو كانت لديه مزية فهي أنه لا يمل ولا يكره ترديد ذات الكلمات..

ينظر حوله في عصبية.. المشكلة أنه معروف وناجح. ظهر في التلفزيون عدة مرات. لابد من وغد يعرفه بشكل أو بآخر.. لكنه على كل حال كان يحرص على وضع النظارة السوداء وكان صارمًا

النسبة للعدسات... يسمع غالق الكاميرا كأنه قط..

شاهنده فتاة جميلة فعلاً وفاخرة. يعرفها منذ عام، والمشكلة كالعادة أنها تعتقد أن وقت الجد قد جاء.. هل سنتزوج أم لا؟.. هذا شيء يغيظه فعلاً. كان يعتبر نفسه ثمينًا جدًا، ولا يصدق أن تعتقد فتاة أن بوسعها الحصول عليه.. هذه إهانة لا شك فيها، مثلما تتضايق الفتاة عندما تكتشف أن مديرها يعتبرها (متاحة). تمنى مرارًا لو يصفعها ويعاقبها على هذه الأفكار. النساء ممتعات فعلاً.. لا يستطيع الحياة من دونهن، لكن يجب أن يمارس ببراعة ذلك الفن.. أن يستمتع بهن ثم ينسحب بنعومة، وفي الوقت نفسه لا يجعلهن غاضبات لدرجة الانتقام.. لقد تلقت زوجته ثريا مكالمات من قبل ووصلتها رسائل.. لسوف تصدق الخطاب التالي بالتأكيد.. السيناريو الأسوأ ان يجدها فوق رأسه الآن..

ثريا حمقاء هستيرية ولن تتصرف بحكمة.. سوف تفضحه بالمعنى الحرفي للكلمة..

- "تبدو شاردًا.."

قالتها شاهنده وهي تجرع ما بقي في كأسها..

قال وهو يصلح ربطة عنقه:

ـ"لا شيء.. كان يومًا مرهقًا في العيادة.. لم أحب الحالات التي رأيتها اليوم"

ـ"صعبة؟"

فكر حينًا ثم قال:

ـ"ليس موضوع الصعوبة.. المشكلة هي أن المرء يبحث عن أدواته أحيانًا فلا يجدها جاهزة.. هل تفهمين؟"

ـ"لا.."

ـ"أنت تقودين سيارة.. ألم يأت يوم ركبت فيه السيارة فشعرت كأنك نسيت القيادة؟.. كأن مستواك انهار فجأة؟"

ثم التهم ما في طبقه بسرعة.. سوف ينهيان العشاء سريعًا ثم يوصلها لسيارتها المتوقفة في مرآب عام ويعود لبيته.. اللقاءات الحميمة تتم عندما تعتقد ثريا أنه ذاهب لمؤتمر في الاسكندرية أو فايد.. الخ... ليس اليوم..

❦ ❦ ❦

في المرآب اتجهت إلى حيث تركت السيارة..

كانت الخمر تلعب برأسها قليلاً، وشعرت أن خطواتها غير ثابتة.. لقد رحل هجرس منذ دقائق ليلحق بزوجته. أين كانت السيارة الفكترا البيضاء؟.. هي في مكان ما هنا...

«معظم حوادث التحرش والاغتصاب في الولايات المتحدة تتم في المرآب..

لماذا تذكرت هذه المقولة الآن؟.. نحن لسنا في الولايات المتحدة والحمدلله.. الوضع هنا أسوأ وقطع الطريق يتم ليلاً نهارًا على الطريق الدائري... ليتها كانت في الولايات المتحدة إذن..

تذكرت هذا وهي ترى ذلك الشبح القادم من بعيد وسط الظلال والضوء الخافت من الكشافات على الجدار..

ماذا يريد؟.. خطواته ثابتة وبطيئة جدًا.. لا يمكن أن يكون هدفه البحث عن سيارته..

بدأت تتراجع للخلف وهي تتمنى ألا تتعثر.. هذا الشخص ليس طبيعيًا.. يبدو أن معها الحق.. إنه خطر أو مريب أو مثير للتوتر أو..

ركضت إلى صف جانبي وراحت تجد السير وسط السيارات الواقفة..

نظرت للخلف فرأت أن ذلك الشيء يصر على اقتفاء أثرها.

بدأ قلبها يخفق بعنف.. هجرس.. هجرس يا أحمق.. لما رحلت؟.. كان يجب أن تنتظر حتى أركب السيارة أمامك..

هجرس كان وسيماً له عينان قاسيتان.. من الواضح أنه لا يملك أي حنان أو رقة وبالتأكيد لا يؤثر الفتاة بحمايته، لكنه يصلح يصلح ليحميها بعض الوقت.. الرجال مفيدون لأنهم يلتحمون مع المهاجم ويموتون، وبهذا يمنحون المرأة فرصة الفرار..

سمعت صوت المحرك..

سيارة تعود للخلف خارجة من موقفها..

اندفعت نحو السيارة وقرعت على الزجاج الجانبي، وقبل أن يكمل الزجاج الهبوط فتحت الباب وألقت نفسها بالداخل..

ـ"بسرعة!.. انطلق!"

لم يفهم مشكلتها لكنه على كل حال فعل كما قالت..

وبعد لحظات كانت السيارة تغادر المرآب وتنطلق على الطريق..

ـ"ما هي مشكلتك بالضبط؟"

كان ينظر للشارع أثناء القيادة، لكنه كان يختلس لحظات يدير فيها

، وجه لها... وعندما التقت العينان أدركت أنه شاب في الثلاثين،
ناحل جدًا.. شاحب جدًا.. له عينان غاطستان توشكان على
الغياب في جمجمته.. لكنها شعرت أنه جميل..

قالت وهي تشهق:

ـ"شعرت أن هناك من يلاحقني.. سيارتي بالداخل"

"كان بوسعك أن تقولي ذلك وكنا سنذهب معًا لتركيبها"

نظرت لذراعه الناحلة.. لو كان مطاردها ذبابة فهو على الأرجح
لن يستطيع مقاومتها..

قالت له وهي تراقب الطريق المظلم:

ـ"آسفة على تطفلي.. لكن لو شئت استكمال جميلك فلتدر دورة،
ثم عد بي إلى المرآب.. يمكن أن تراقبني إلى أن أركب.."

ثم لاحظت شيئًا آخر أثار توترها..

هي بالتأكيد تهذي.. الخمر تعبث برأسها.. ما تراه لا يمكن أن
يكون حقيقيًا...

ألا ترى ذلك معي؟

لم تتصل تلك الحمقاء بعد..

فكر د. هجرس في هذا وهو يراقب الشارع الصاخب الذي يطل عليه عبر النافذة التي تحتل جدارًا.. يرشف رشفة من عصير البرتقال الذي أعدته له الممرضة، ويفكر في شاهنده..

عاد إلى المكتب وداعب خصلات شعره الأبيض. يبدو أن وقت الفراق قد اقترب جدًا.. هذا حظك السيء يا فتاة.. سوف تفقدين كنزك قريبًا، ولكن لا ننكر أن معرفتك كانت ممتعة. مشكلة الصديقة - وهو اسم مهذب للعشيقة - هي أنها تتحول إلى زوجة بسرعة.. تطالب بأشياء.. تمد أناملها تحاول أن تعتصر حياتك.. لكنك بالطبع سوف تختار البقاء مع الزوجة الشرعية، وعندها سوف ترحل هذه، لكن لابد أن يكون الرحيل ناعمًا.. لا جروح لا أحقاد.. وإلا كان بوسعها أن تحدث ضوضاء حولك..

- "No grudges"

قالها لنفسه وابتسم..

جلس إلى المكتب وصاح مناديًا المريض التالي..

المريض التالي كان امرأة ريفية نوعًا في منتصف العمر.. عرف على الفور التشخيص والعلاج ومستقبل الحالة من النظرة الأولى. هذا الوجه الشاحب المصفر والبطن المنتفخة والهزال العام.. وعندما رفعت عينيها أدرك أن بياض العينين أصفر..

فشل كبدي.. تشمع.. استسقاء.. مرحلة متقدمة.. العلاج مدرات وداعمات للكبد وأشعة تلفزيونية.. غالبًا سوف تجد ورمًا سرطانيًا.. قيء دموي.. منظار.. حقن.. نهاية أليمة في ليلة سوداء..

فهم هذا كله بينما المريضة تجلس وهي تحمل ذلك المظروف..

المظروف اللعين!.. المكدس بــالأوراق.. إخراجها يقتضي ساعة وإعادتها تقتضي ساعة مع الكثير من البكاء والقصص الطويييييلة:

-"دكتور سيد الشماشرجي كتب لي الأسبيرين، لكن دكتور الشنشاوي كتب لي البانادول.. ودكتور أبو قورة كتب لي الريفو.. ثم عدت للشمشاشرجي فقال لي إنني أخطأت إذ تعاطيت البانادول لأن..."

اللعنة!... يعرف كيف يقطع لسان المريض عند هذا الحد.. يجـ
أن يسكتها تمامًا فهي لن تضيف أي شيء جديد..

اسمها (عز الشباب عبد السميع)... لماذا تأتي هذه الحالار
المتقدمة وحيدة؟.. من المعتاد أن يدخل مع المريض عشرة مر
أقاربه كلهم قلق وتوتر، وكلهم يشعلون السجائر الكليوباترا
ويحيطون أعناقهم بالتلافيع، ويخربون بيتك لأن مأمور الضرائب
يكون في العيادة في هذا الوقت بالذات.. فلماذا جاءت هذه
السيدة وحدها؟..

عندما رقدت على الفراش وضع يده على ساعدها..

فهمت!

هذه حالة أخرى من الحالات التي لا نبض لها أو التي لا تقدر
على قياس ضغط دمها.. ماذا يحدث في هذه الأيام؟.. الأمر
يتجاوز الصدفة..

ثم. هذا الاسم.. عز الشباب... اسم غريب لكنه مألوف...

❦ ❦ ❦

ـ"ليس موضوع الصعوبة.. المشكلة هي أن المرء يبحث عن

أدواته أحيانًا فلا يجدها جاهزة.. هل تفهمين؟"

"لا.."

❊ ❊ ❊

المستشفى العام الكبير..

الليل.. القطط تطلق عواءها من حين لآخر.. والممرضات يقلن إن هذا صوت الأرواح..أرواح كل من ماتوا من قبل.. هذا ما قالته عواطف وهي تتنفس بحرارة جوار أذنه..

طبيب الامتياز الشاب الوسيم د. هجرس.. ما زال بلا خبرات وما زال لم يكتسب بريقه الأبدي بعد، لكنه ما زال وسيمًا وما زالت له مغامرات ومغامرات..

وفي العنبر مريضة الاستسقاء (عز الشباب).. السيدة في منتصف العمر.. وحدها هذه الليلة فقد رحلت ابنتها إلى القرية.. كانت تتنفس بصعوبة، وقد طلب منه الطبيب المقيم أن يسحب من بطنها لترًا واحدًا فقط.. لترًا واحدًا يريح تنفسها..

ـ"هي على حافة الفشل الكبدي الكلوي.. لا نريد أن ندفعها دفعًا"

قام بتثبيت إبرة البذل في بطنها.. لم يجد لاصقًا فاستعمل قطعة

لاصق قديمة كانت مثبتة على الفراش.. وبدأ السائل الشفاف يتدفق في الزجاجة..

قالت له بصوت مبحوح:

ـ"اشفني يا دكتور.. سأحمل لك هذا الجميل ما حييت"

هز رأسه وقال إن الشافي هو الله، ثم انسحب إلى مكتبه..

عواطف.. مشاعر الشباب الحارة.. الليل.. الوحدة.. التهور.. الجموح...

القطط تعوي.. (تعوّص) بتشديد الواو كما قالت عواطف.. عواطف كانت الأولى.. لم تكن الأخيرة أبدًا.. لماذا يدوي الرعد في السماء؟

عندما جاء الفجر فتح عينيه بصعوبة.. نهض متثاقلاً نحو العنبر..

هناك رأى الجسد الراقد في الفراش..

لم يحتج لينظر إلى الجسد، فقد رأى على الأرض تلك البركة من السائل.. ورأى أنه تحول إلى دم قرب النهاية.. لقد صار البطن مسطحًا تمامًا.. تم تفريغ بطن المريضة حتى أن الإبرة أدمت بعض الأعضاء الداخلية، وحينما نظر لوجه المريضة رأى قناع

الموت الشمعي.. العينين الشاخصتين..

بادل النظرات مع عواطف التي وقفت جواره بشعر منكوش حافية القدمين.. وتلقائيًا رفع الملاءة ليغطي وجه الجثة. نظرت حولها ونظر حوله.. كل الأسرة المجاورة كانت تسبح في الظلام وكان مرضاها أكثر مرضًا من ان يلاحظوا أي شيء..

لقد مرت الجريمة بسلام..

في الصباح سوف يكتشف الطبيب المقيم أن مريضته ماتت، لكنه لن يسأل. لا احد يشك في وفاة مريضة بهذا التدهور..

وفيما بعد سوف ينسى القصة كلها.. من الأحمق الذي قال إن حادثة كهذه لا يمكن نسيانها؟ لكن الاسم ظل محفورًا في داخله.. كتبه في شهادة الوفاة وظل يتردد في ذهنه مرارًا طيلة الأعوام التالية، وحتى صار أستاذًا ترتج الأرض لهيبته..

اسمها عز الشباب عبد السميع..

❦ ❦ ❦

"اشفني يا دكتور.. سأحمل لك هذا الجميل ما حييت "

❦ ❦ ❦

كان يفحص المريضة وهو يفكر في هذا كله..

لما انهى الفحص قال لها إنه يرغب في أن تدخل المستشفى بضعة أيام. الحقيقة أنه كان يريد أن تبقى بقربه.. وافقت فكتب لها خطاب دخول، ولسبب لم يفهمه طلب الممرضة وامرها أن تعيد ثمن الكشف للمريضة..

لما غادرت المريضة الغرفة جلس إلى المكتب.. طلب من الممرضة ان تمنحه عشر دقائق.. عشر دقائق يدخن فيها السيجار، وكانت تعرف أنه يفعل ذلك في الشرفة حتى لا يصير جو غرفة الفحص خانقًا. وكانت كذلك تقول للمرضى بشكل روتيني إن الدكتور يصلي..

وقف في الشرفة يتأمل طرف السيجار المشتعل..

كان عمليًا سريع التفكير لا يندهش أبدًا...وهكذا كان قد كون في ثوان تقييمه للموقف..

واضح أن المرضى الذين قتلتهم في الماضي يعودون للانتقام مني!

فكرة غريبة وسخيفة لذا لم يؤمن بها إيمانًا تامًا.. طبعًا هو لا يعرف أنه في قصة رعب وإلا لفكر في هذا الاحتمال جديًا. لكنه في عالم الواقع.. وفي عالم الواقع لا يعود الموتى لمطاردة الأطباء..

لابد من تفسير آخر.. تشابه الاسماء والملامح ليس دليلاً كافيًا..
لكن ماذا عن طوفان مرضى بلا ضغط دم ولا نبض ولا تنفس؟
محتاج إلى التركيز.. يحتاج إلى اتخاذ قرار صحيح..
ماهنده أيتها الحمقاء.. أين أنت؟.. أنا بحاجة إليك!!

***

هناك عند هذا المنحنى في الطريق، حيث اصطدمت عشرات السيارات بالحاجز الحديدي من قبل فالتوى وتشوه، كان السياج تالفًا.. وكان ذلك المنحدر الذي يقود إلى الترعة..

هذا هو المكان الذي توقف عنده المهندس مينا.. كان واثقًا من أنه رأى شيئًا أسفل هذا المنحدر، لكنه لم يستطع أن يحكم ما هو.. فقط هو شيء لا يبعث الراحة في النفس. توقف بعيدًا عن مسار العربات المندفعة وانحنى ليلقي نظرة أدق..

بالفعل.. هذا ثوب أو معطف ممزق.. جسد بشري يتعلق بغصون الأشجار البارزة من المنحدر. ومن الجلي أنها أنثى كذلك.. كان قلبه يتواثب بين الضلوع عندما مد يده لجيبه وطلب رقم الشرطة.

عندما جاءت سيارة الشرطة بعد وقت طويل، استطاع شرطيان

أن يجرا الجثة إلى أعلى.. القصة واضحة. لقد قتلها احدهم ثم ألقى بها من فجوة السياج للهاوية، وتعلقت بالغصون. تأمل الضابط الوجه..

إنه قد تشوه بالرعب وآثار دماء، لكن يمكن بسهولة أن تدرك انها كانت جميلة يومًا ما. كانت تلبس معطفًا.. وجد يده تمتد لتعبث في جيبها ثم خرجت ببطاقة هوية صغيرة.. هي إذن من النساء اللاتي يحملن الهوية في الجيب وهذا يسهل الأمور..

قرب البطاقة من عينه وقرأ:

ـ"شاهنده منصور محمد.. مهندسة اتصالات.. "

ثم نظر إلى الوجه المذعور.. وغمغم:

ـ"ترى من قتلك أيتها الحسناء؟.. والأهم.. كيف قتلك؟"

❁❁❁

عندما فتحت الخادمة الباب وجدت تلك السيدة النحيلة واقفة هناك.. ثمة قوة نفسية كاسحة لدى بعض الأشخاص الناحلين، حيث تتكفل العينان القويتان اللتان تضخمتا من فقدان الوزن، بجعل نظرتهم لا تقاوم..

"د. هجرس موجود؟"

أرادت الخادمه أن تغلق الباب فلم تستطع.. لم تجد في نفسها القوة. وعندما أفاقت كانت تقف داخل البهو جوار المزهرية العملاقة، والسيدة النحيلة تقف أمامها...

قالت كلامًا بصوت مبحوح لا تعرف ما هو.. وهنا سمعت صوت سيدتها (ثريا) تسأل عما هنالك..

قالت وهي تعرف أنها ستتلقى اللعنات:

ـ"تسأل عن د. هجرس"

قالت ثريا في عصبية وتوحش:

ـ"مريضة؟... منذ متى يأتي المرضى للبيت؟"

ونظرت للسيدة النحيلة. كانت ترتدي ثيابًا أنيقة.. أنيقة لو أننا في الستينيات.. نفس التأثير الغريب لو أنك رأيت رجلاً يلبس طربوشًا نظيفًا مكويًا اليوم. قالت السيدة النحيلة وهي تنظر لها بذات الثبات:

ـ"أريد كشفًا منزليًا.. إن ابنتي مريضة"

ونظرت ثريا للعينين الغائرتين والشحوب الشديد وشعرت

بقشعريرة.. في عصبية قالت:

ـ"الدكتور لا يقوم بكشوف منزلية.. اعطيها عنوان العياد

واصرفيها يا زكية"

ـ"أريد كشفًا منزليًا.. إن ابنتي مريضة"

المخيف أن السيدة تتصرف وتتكلم كأنها لا تسمع حرفًا مما يقال.

سوف ترحلين والا طلبت الشرطة. لكنها أدركت أن الأمر يتجاو

طلب الشرطة.. هذه السيدة مخيفة فعلاً وعلى الأرجح...

على الأرجح غير حقيقية..

بدأت ترتجف.. يدها تهتز بلا توقف... ولا تعرف متى ولا كيف

ظهر الطباخ العملاق من المطبخ. هذه المرة قبض في صمت عل

ساعد السيدة واصطحبها إلى الباب وأخرجها وأغلقه...

لا تعرف كيف كانت ستتصرف لو طال الأمر.. هناك قوة ساحقة

غلبتها لكن ما هي؟

وفي عصبية تحسست الهاتف وطلبت رقم زوجها..

نظر د. هجرس للهاتف الذي يتوهج بلا توقف.. اصمتي يا ثريا

فلست بسعة نفسية لسماع هرائك الآن.. فيما بعد أرجوك..

كان جالسًا في سيارته وقد قام بتشغيل المكيف.. يرقب المساحة الخالية أمامه.. مساحة يلعب فيها الصبية وتنبح الكلاب على بعضها. لم ترد شاهنده حتى اللحظة وقد بدأ يقلق.. يقلق من أن تكون هي البادئة بالرحيل.. ليس هذا من حقها.. هو الذي سيرحل..

ثم هو بحاجة إليها.. لابد من امرأة في مكان ما كي تدفن حزنك العميق بين ذراعيها.. لابد من امرأة تبكي بين خصلات شعرها.. هذا غير عادل..

هناك تمتد المقابر الريفية.. بعضها ينم على ثراء وفخامة، وبعضها ينم على فقر وتواضع حال.. طين جاف. يصعب عليه أن يصدق حالة التساوي التي يتكلم عنها الزاهدون والشعراء.. لا يرى مساواة حتى في الموت. هناك من يموت ثريًا وهناك من يموت فقيرًا.. هناك من ينام في بيت من رخام ثمين، وهناك من يغطى بطين جاف..

نظر لساعته.. موعد العيادة يقترب والسائق (صبري) ما زال هناك في المقبرة. كان يتخلص من صبري في اللقاءات النسائية طبعًا، لكنه يعترف بأنه مفيد. يساعده على التعامل مع الحثالة دائمًا.. دعك

من أنه يشعر بحنين للأيام الشعبية الأولى.. من حين لآخر يحلم بطبق من الكشري أو لحمة الراس أو السمين... هنا كان السائق يتصرف.. هذه المرة كان العنوان موجودًا في سجلات المستشفى وكان واضحًا. القرية.. المركز...

بعد دقائق عاد السائق وهو يلهث بسبب كرشه الضخم. جلس خلف المقود وهو يتنهد براحة بسبب الجو المكيف، وأدار المحرك.

سأله د. هجرس في برود:

ـ"خيرًا؟"

قال السائق وهو ينظر للخلف ليتراجع بالسيارة:

ـ"بالفعل يا سيدي.. لقد نبش اللحاد مقبرة (عز الشباب عبد السميع) ليلة أمس.. يجب أن أقول إنه طلب الكثير من المال.. "

ـ"والنتيجة؟"

اندفع السائق نحو الطريق المرصوف وقال:

ـ"فارغة طبعًا..!.. لا توجد جثة!"

لا توجد جثة...

هناك من تحمل نفس الاسم في المستشفى الآن....

ءرك د. هجرس يديه وقال في شرود:

ـ"كنت أتوقع هذا.."

❀❀❀

"اشفني يا دكتور.. سأحمل لك هذا الجميل ما حييت"

❀❀❀

ڪان الهاتف ما زال يتوهج عندما اجتازت السيارة بوابة المستشفى..

لابد أن الأطباء المقيمين أصيبوا بالشلل الذهولي أو العقم عندما فوجئوا بظهور د. هجرس في هذه الساعة.. إنه موعد عيادته ومن المستحيل أن يظهر في هذه الساعات. وهو على كل حال لم يكن ألطف أستاذ في المستشفى..

كان طلبه محددًا وهو يفتح باب مكتبه:

ـ"أريد أن تجلبوا لي المريضة التي تدعى (عز الشباب عبد السميع).. حالاً!"

❀❀❀

نظر السائق متسائلاً إلى د. هجرس فقال له في وقار:

-"رغيفان من الحواوشي.. وليكثر من الشطة"

ابتعد السائق في الظلام على حين جلس د. هجرس يراقب الشارع.. حركة السيارات.. الكشافات.. المارة.. الهاتف لا يكف عن التوهج.. لابد أن الممرضة تعيش ألعن حالاتها الآن في العيادة وهي تواجه طوفان غضب المرضى.. إنه لم يتصل ولم يعتذر.. لا يملك سعة نفسية لذلك..

فقط هو يشعر بالحاجة إلى أن يجوب الشوارع الليلية.. يريد أن يأكل (حاجة حرشة) كما يقولون، لذا طلب من السائق أن يذهب به لهذا الحي، حيث يكمن في الظلام ويفكر..

عندما عاد السائق بالرغيفين، وجد هجرس أنهما دسمان جدًا.. سوف يستحم في بركة من السمن لو أكل في السيارة، لذا اقترح أن يذهبا لمقهى قريب في الهواء الطلق..

هناك جلسا.. ناول السائق رغيفًا ثم ملأ فمه باللفت المخلل، وراح يلوك اللحم الدسم ويتذكر أيام النوبتجيات الأولى، عندما كان يذهب مع رفاقه من الأطباء الشباب إلى هذا المطعم في السيدة

زينب أو ذاك.. كان يؤمن يقينًا أنه سيتذكر تلك الأيام وهو ثري وهذا ما حدث فعلاً.. الكثير من الأكل.. الكثير من التدخين.. الكثير من النساء (نوعية أقل رقيًا بكثير).. هكذا كان شبابه..

في المستشفى لم تكن هناك مريضة في الفراش..

نعم.. هذا ماحدث عندما ذهب الأطباء المقيمون لينادوا (عز الشباب عبد السميع).. وقد قالت المريضات حولها إنها قد تكون في دورة المياه، لكن البحث المدقق عنها برهن على أنها ليست في المستشفى أصلاً. أين هي يا سادة؟.. لا داعي للتفكير الكثير.. بالنسبة للأطباء الشباب هي قد هربت.. ربما عادت لبلدتها لأنها سئمت المستشفى ويئست من العلاج...

وبخهم ولامهم وهددهم بعقاب صارم...

لكنه يعرف ما هو أفضل..

لسبب ما يؤمن إيمانًا شديدًا أنها الآن في قبرها.. لن يرسل أحدًا ليتحقق على كل حال.. إن الجزء العلمي من عقله يرفض القصة جملة وتفصيلاً، لكن الجزء البشري يقول: لم لا؟. في النهاية ينتصر الجزء العلمي... هناك تفسير منطقي سوف يتضح قريبًا..

جاء الشاي الثقيل الذي يعتقد العامة أنه يذيب الدسم.. رشه
رشفة قوية منه وهو غارق في همومه ومخاوفه الخاصة...

لن يذهب للعيادة باقي الليلة.. حالته النفسية مرهقة، والحقيقة
أن هذا التوتر يمكن أن يؤذي مهنته فعلاً لو استمر..

أخرج منديله.. هنا لاحظ تلك اللطخة من أحمر الشفاه على
طرفه. لطخة قديمة أبت وتمردت واصرت على ألا تزول
بالغسيل.. تكرر هذا مرارًا من قبل لكن من حسن حظه أن
زوجته لا تغسل بنفسها، ولكن من السذاجة أن نتوقع أن الأمر
لم يصل لعلمها.. لابد أنها تشك في أمره كثيرًا.. تكون ساذجة لو
لم تفعل..

نظر لأرقام الهاتف.. شاهنده لم تتصل بعد...

✿✿✿

ثريا كانت تعرف الكثير عن زوجها..

الواقع أنها كانت تعرف أكثر من اللازم، وكانت قد راجعت أرقام
الهاتف مرارًا وهو نائم، ولديها شبكة تجسس صغيرة في العيادة،
وقد استطاعت فتح (اللاب توب) الخاص به. إنه يستعمل كلمة

هي اسم حبيبة مدونة على الهاتف. بعد فترة فقدت قدرتها
على العد وأدركت أنها لن تستطيع متابعة كل مغامراته.. هكذا
لم تعد تراقب..

هي أصلاً باردة وعلى شيء من القسوة، لذا لم يدمها هذا كما يجب أن
يدمي سيدة أخرى. فقط شعرت بإهانة. وتمنت لو تنتقم..

لكنها أدركت انها ستواصل الحياة معه.. لن ترحل.. لن تتخلى
عن مكانتها الاجتماعية وكل هذا الثراء. فقط تم نوع من الطلاق
النفسي بينهما فلم يعودا يتكلمان أكثر من 170 كلمة كل شهر.
يسافران معًا ويذهبان للمؤتمرات ويؤديان العمرة على سبيل
الوجاهة الاجتماعية.. لكنهما لا يتكلمان ولا يتلامسان...

لقد تعلمت كذلك أن تمضي وقتها بألف طريقة ممكنة، وبعض
هذه الطرق كان خطرًا..

كانت تفكر في هذا وهي تقود سيارتها على الطريق الدائري عائدة
للبيت..

السيدة النحيلة التي اقتحمت البيت أمس وأثارت ذعرها.. من
هي؟.. من أين جاءت؟ ولماذا لم يرد هجرس على مكالمتها؟.. لم

يظهر طيلة اليوم ولم يرد.. اين هو؟.. ولماذا لم يذهب للعيادة؟.

شيء يثير الجنون..

و....

طاخ!

اضغطي الفرملة يا مجنونة!!!

إيي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي!

سوف تنقلب.. تمسكي بعجلة القيادة.. لا تفقدي تماسكك..

لقد صدمت شابًا.. صدمت شابًا يقف أمام السيارة في منتصف الطريق.. صدمت شابًا وهي مندفعة بسرعة 120 كلم.. لابد أنه تهشم تمامًا...

توقفت السيارة أخيرًا.. سحابة غبار كثيفة تتصاعد حول العجلات. نزلت منها على ساقين من عجين وركضت نحو مكان الحادث..

هناك كان الشاب الذي تلقى ضربة عنيفة..

كان هناك في الظلام تراه على ضوء مصابيح الطريق.

هنا أدركت أنه حي..

اله ينهض... لقد التوى عنقه ويبدو أن ساقيه تهشمتا لكنه

ينهض.. الوغد!... ينظر لها بوجه نحيل ضامر وعينين غائرتين، ثم

يبدو كأنه دمية من قماش.. رخوة.. متيبسة نوعًا...

إنه يمشي خطوة ثم يسقط أرضًا.. يزحف كدودة نحوها.....

لا.. هي لا تريد..

كانت قد اتخذت قرارها وركبت السيارة.. الجبناء يتخلون

من ضحايا الحوادث التي سببوها.. هذا ما يسمى بـ (اضرب

واهرب Hit and run).. لكن الوضع هنا استثنائي..

هكذا ركبت سيارتها وانطلقت تحرق الأسفلت حرقًا..

❀ ❀ ❀

وفاة مهندسة اتصالات في ظروف غامضة

رأى العنوان في الجريدة ثم توقف عند متن الخبر. اسمها بالطبع

شاهنده منصور محمد.. كما توقع. لا يعتقد أنها جنت وقررت

أن تقطع علاقتها به بلا سبب. السبب المنطقي هو أنها ماتت.

علامات رعب واضحة.. سقوط في المنحدر..

ابتلع ريقه، ولو كان رجلاً أكثر رقة لارتجف أو شعر برهبة،

لكنه كان أكثر تمرسًا وبرودًا من هذا. ما أقلقه فعلاً هو تأثير هذا الخبر على سمعته. لا يريد أن يزج باسمه في هذه القصة.. وهو لن يحدث على كل حال لكن.. من يدري أن الحمقاء لا تحتفظ بمذكرات أو صور تفضح كل شيء؟..

هذا ما ضايقه فعلاً.. أما ما ضايقه كذلك فهو السؤال: كيف حدث هذا؟

كل شيء يدل على أن هذا حدث في الليلة التي تناول فيها العشاء معها، عندما جلسا في المطعم وأوصلها للمرآب.. ما حدث حدث بعد ذلك.. يحلو له أن يعتقد أنه حادث لكن أي حادث يلقي بفتاة من فوق سياج في منحدر وهي وحدها ولا تركب سيارة؟.. طبعًا هناك من فعل هذا..

هو آخر من كان معها.. هذه حقيقية.. لكن هل هو آخر من شوهد معها؟.. هل رآهما أحد؟.. لو حدث هذا فالأمر لا يتعلق بسمعته فقط بل بحريته وحياته أيضًا.. من يشاهد آخر مرة مع قتيل هو الفاعل غالبًا..

من فعل هذا؟.. لماذا.؟

حادث؟.. الأمر أعقد من هذا والصدف ليست بهذه الكثرة...

فتح الدرج وأخرج قنينة صغيرة من الشراب.. تلك التي ابتاعها من سويسرا ولم يرد أن يستعملها قط، لكن يبدو أنه بحاجة لجرعة الآن.. شرب جرعة ثم أغلقها، وضغط الجرس لتأتي الممرضة..

دخلت الغرفة فقال لها وهو يغلق الدرج:

ـ"المريض التالي"

لم تكن على ما يرام.. كانت شاحبة ترتجف.. قالت وهي تغلق الباب بإحكام:

ـ"دكتور.. المرضى ليسوا على ما يرام هذه الليلة"

نظر لها في حيرة.. لماذا لم يندهش جدًا؟...

ـ"ماذا تعنين؟"

تفلت في فتحة قميصها، ثم قالت وهي تدس القلم في جيبها:

ـ"شاحبون.. ساهمون.. صامتون.. لهم قسمات كالحة.. العيادة مليئة بهم.. لا يوجد شخص واحد منظره طبيعي"

قال لها لائمًا:

ـ"دعك من هذا الهراء.. عندما أدق الجرس أدخلي المريض الأول"

خرجت من الغرفة، هنا أدار المقعد ليواجه الشاشة الصغيرة التي يضعها عن يساره في مستوى أقل من مستوى المكتب. الكاميرات الثلاث تمسح أرجاء العيادة من موضع مرتفع ويمكنه أن يلقي نظرة عاجلة هناك..

كانت النظرة الأولى كافية ليرتجف..

الممرضة لم تكن تملك قدرة على الوصف ولا فراسة برغم أنها حاصلة على درجة في الآداب.. لطالما ضايقه هذا.. تقول إنهم شاحبون ساهمون صامتون.. هذا تعبير ركيك هش.. هؤلاء موتى.. موتى أحياء بلا زيادة أو نقصان، والأسوأ أنه لا يجد أي تفسير...

بحث بالكاميرا عن الممرضة فلم يجدها.. لقد فرت على الأرجح..

أخرج منديلاً ورقيًا وجفف العرق على جبينه.. يمكن باختصار القول إنه هنا في غرفة الكشف بينما تعج العيادة بالأشباح أو الموتى الأحياء. لا يفصله عنهم سوى هذا الباب..

لا يريد أن يخرج ويعرف ما هنالك.. لا يريد أن ينادي المريض الأول.. لا يريد تفسيرات.. يريد الخروج من هنا بأي ثمن..

ع المعطف وارتدى سترته الأنيقة، ثم نهض...

ان يعرف وجهته الآن. ما لا يعرفه هؤلاء هو أن لغرفة الكشف

بابًا آخر. بابًا يقع على السلم وهو مغلق دائمًا لأنه يفضل استعمال

المصعد طبعًا.. لكن وقت التدريبات الرياضية قد حان..

بحذر فتح الباب ثم تسلل للخارج حيث كان السلم الرطب

المتسخ.. لا أحد يستعمله بتاتًا..

أغلق الباب وهبط في الدرج بسرعة وخفة..

وعندما وجد نفسه في الشارع تنفس الصعداء..

***

ثريا كانت عند موكابوكو..

نفس المعالم التي عرفتها عشرات المرات.. الشقة المستأجرة الواسعة في

شارع البطل أحمد عبد العزيز.. جلود النمور على الجدران.. صوت

الطبول ينبعث من مشغل أقراص حديث. البخور في كل مكان... كل

هذا جعلها تؤمن أنه ألعن نصاب عرفته..

لكن صديقاتها جربنه مرارًا وقلن إن سره باتع..

مصر تعج بهؤلاء السحرة الماليين والسنغاليين والغانيين على كل

حال، ولهم تأثير قوي وسحر خاص.. تقول صديقتها نانسي إن هؤلاء هم مصدر سحر الفودوو والعقيدة الودونية التي حملوها معهم إلى أمريكا. صديقة عاد لها زوجها وصديقة عرفت أين سرق عقدها الماسي.. الخ..

إن موكابوكو البدين الأسود ذا اللحية الشائبة هو الأفضل..

اليوم تجلس أمام موكابوكو، وتقول له إن اللعبة أفلتت..

ـ"لقد طلبت منك الانتقام وأن تملأ حياته بالذعر.. طلبت أن تطارده أشباح المرضى الذين تسبب في قتلهم بإهماله وقسوته.. لكن هذه الأشباح صارت في كل مكان.. صارت تطاردني أنا نفسي.. تأتي للبيت وتلاحق سيارتي.. أنا لم أطلب منك الانتقام مني أنا!!!"

قال بلكنته العربية الثقيلة التي تجاهد كي لا تخرج سواحلية:

ـ"يعني أنت تريدين وقف اللعنة التي ألقيتها على زوجك؟"

ـ"حان وقت ذلك"

فكر حينًا وألقى ببعض البخور في النار ليؤجج‌ها، ثم قال:

ـ"عندما طلبت معونتي طلبت منك عدة أشياء من زوجك..

متعلقات منه.. ثم أعطيتك تلك اللفافة.. اللفافة فيها دمية قماشية صغيرة. لا أستطيع رفع اللعنة من دون أن تجلبي لي هذه الدمية"

ثم اتسعت ضحكته والتمعت أسنانه:

ـ"بالطبع سوف أحتاج إلى أجر لرفع اللعنة كما احتجت إلى أجر لجلبها"

ـ"لك هذا"

وأخرجت دفتر الشيكات والقلم، وبيد مرتجفة كتبت له المبلغ...

لكنه رفع كفه ليمنعها:

ـ"هذه المرة. نقدًا.."

نظرت له في غل.. ثم مدت يدها في حقيبتها وأخرجت بعض الدولارات..

ـ"هذا مقدم.. لا أحمل مالاً معي.. والآن؟"

ـ"أريد الدمية.."

الدمية في حشية الفراش وقد خاطت المرتبة بعناية لتختفي وسط الحشو.. سيكون عليها أن تقوم بجراحة مشابهة...

ـ"سوف أجلبها لك غدًا مع بقية المبلغ.."

ثم تذكرت ما تمر به والهول الذي صار عند كل زاوية، فقالت:

ـ"لا.. ساحضرها لك اليوم"

اتجهت إلى الخارج وضغطت على زر المصعد.. رائحة البخور الخانقة هذه...

أخيرًا توقف المصعد.. لحظة وانفتح الباب..

وللحظة وجدت أنها تحدق في عيني هجرس زوجها...

❁❁❁

الفرقة تعزف لحن تانجو رقيقًا هو (لا كومبارسيتا)... والإضاءة تتغير. فجأة يغمر المكان لون أزرق غامض كأنه بريق أقمار (بلغوريا).. ما هي أقمار بلغوريا؟.. لا أعرف لكن لابد أنها ساحرة كهذا الضوء..

قال لها هجرس وهو يملأ كأسها:

ـ"هل تريدين الرقص؟"

كانت تشعر بخوف لا شك فيه، مع حرج بالغ لأن ثيابها غير مناسبة للسهرة في مكان كهذا.. عندما يكون هجرس لطيفًا معها فهو مرعب. أفضل طريقة للتعامل معه هي عندما يكون غير

مال. كان رقيقًا ويبدو رائق المزاج فعلاً..

هزت ثريا رأسها أن لا..

قال بصوت ناعم:

- "هل تذكرين أيام زواجنا الأولى؟.. كنا نقصد أماكن كهذه ونمضي فيها ساعات وساعات"

قالت وهي ترشف من كأسها:

"كان هناك طبيب شاب اسمه هجرس.. وكان يحبني"

ابتسم تلك الابتسامة الفاتنة التي تنم عن وقار وتنم عن خبث وتنم عن فهم للكون وقال:

- "كنت أتمنى أن أقول إنني ما زلت ذلك الطبيب، لكن أشياء كثيرة تغيرت.. ولنقل بصراحة إنني لا أحمل لك أي مودة.. لكن هذا لا يعني الحرب.. لا أتمنى أن يتهشم عنقك"

ثم حكى لها قصته..

لقد ظل اسم (موكابوكو) في ذهنه لفترة طويلة.. كان يعرف أنه ساحر تولع به البلهاوات من نساء الطبقة الأرستقراطية وهو حبيب المثلات وموضة العصر.. نوع من الروشنة أن يكون

لكل سيدة ساحر أفريقي..

اسم موكابوكو تكرر على الشيكات ولدى المصرف في حسابهما المشترك. لكن د. هجرس لم يهتم بالأمر.. فلتعبث كما تريد.

-"من حق المرأة أن تتسلى كما تريد إذا كان زوجها يعاملها كديكور في البيت"

لكن فجأة بدأت الأمور تتغير وبدأ يشعر بقلق بالغ.. هو متأكد من أن أشباح ضحاياه - أو ضحاياه أنفسهم - يلاحقونه. هناك دائرة تنغلق حوله ببطء... هناك شيء قد تغير..

في البيت تفحص ما تحتفظ به ثريا في غرفتها.. وجد صورًا له.. وجد شعرًا أشيب لا يمكن إلا أن يكون منه.. وجد مناديل قديمة تخلص منها..

زوجته تمارس السحر.. لكن كيف..

ثم ربط بين هذا واسم موكابوكو. ماذا يمارسه الساحر الإفريقي بالضبط؟

ذهب إلى موكابوكو مساء وقدم له نفسه، ثم قدم عرضه.. سيجزل له العطاء ويقدم له مبلغًا ضخمًا، لو أخبره بما تقوم به

ثريا.. لو لم يتكلم فلسوف يجد نفسه آسفًا مضطرًا للاتصال بمكافحة الدجل ووزارة الخارجية وسفارة غانا.. سوف يدمر الرجل تمامًا..

هكذا تكلم موكابوكو.. تكلم كثيرًا جدًا.. وعندما قابلها منذ ساعتين على باب الساحر الإفريقي كان هذا لأنه أخبره أنها ستأتي له اليوم..

ثريا هي التي بدأت هذه اللعنة وهي التي تستطيع أن تنهيها...

كان ينظر لها بعينين لائمتين فيهما رقة وحنان، حتى أنها شعرت أنه مجنون..

أخرج بطاقة الائتمان ليدفع.. وقال لها وهو يزيح المقعد لها:

ـ"الآن نعود للبيت"

قالت:

ـ"يجب أن تثق بي.. مرة أخيرة على الأقـل.. يجب أن أعود لموكابوكو"

ـ"سوف نعود للبيت ثم نفكر"

وهكذا وجدت نفسها تجلس جواره في السيارة صامتة..

لقد آذاها كثيرًا.. ولهذا خطر لها كم من الممتع أن تتركه يتعذب

وسط ضحاياه.. كل من ماتوا وتعذبوا بسببه... كان انتقامًا جميلًا

قاسيًا يناسب طبيعتها..

لكنها الآن لا تعرف ما تقول ولا ما تفعل...

السيارة تنهب الطريق نحو الدار نهبًا...

توقف بالسيارة في بقعة تطل على النيل الذي يغفو في الظلام.

هبط من السيارة ومشى في تؤدة نحو حاجز الكوبري وأشعل

سيجارة... ثم ناداها:

-"تعالي يا ثريا"

هبطت من السيارة مترددة.. كل هذا البرد والظلام والوحشة...

وقفت جواره تطل على النيل وتشم رائحة الدخان:

-"أنت تعرفين بعد هذا الاكتشاف أن حياتنا صارت مستحيلة..

لكن الطلاق سوف يمتص دمي امتصاصًا.. ثم هو لن يتيح لي

الانتقام. تصوري أنك رجل وأنك عرفت أن زوجتك تمارس

السحر الأسود ضدك"

قالت في تحد:

"تصور أنك زوجة وزوجك على علاقة بكل فتاة على وجه الأرض.."

ثم أضافت وهي ترتجف:

"هناك تلك الدميـ.. التي.."

لم تكمل العبارة لأنه كان قد انحنى على الأرض وأمسك بعقبيها معًا، ثم رفعها بقوة مذهلة ليضعها على الحاجز.. لم تفهم.. غرست أظفارها في صدر قميصه وحاولت أن تتشبث بربطة العنق، لكنه كان قد وضعها على الحاجز كأنه يجلس طفلاً.. ثم دفعها بقوة عضلية مذهلة لتسقط في النيل.. لم تصرخ ولم تجد الوقت لتفهم...

أصلح من سترته وربطة عنقه..الغريب ان لفافة التبغ كانت ما زالت في فمه فسحب منها نفسًا أخيرًا ثم طوح بها بدورها..

وعاد للسيارة وقد أدرك أن أحدًا لم يره..

❀ ❀ ❀

جلس في العيادة في اليوم التالي شارد الذهن..

سوف يمر بعض الوقت قبل أن يدرك الناس أن ثريا اختفت..

سوف تكون هناك أسئلة بالتأكيد، لكن عليه أن يتمالك أعصابه.
لا توجد جثة طبقًا لقاعدة (هابيوس كوربوس) إذن لا جريمة
موكابوكو النصاب لن يتكلم.. السحرة الأفارقة الذين يمارسون
السحر الأسود ويبتزون النساء الثريات، لا يبلغون الشرطة عنا.
اختفاء عميلة..

سوف تختفي ثريا وسوف يكون هناك لغز حقيقي.. لكن الجثة
لن تظهر ولو ظهرت سيقال إنه انتحار.. زوجها كان يعاملها
معاملة سيئة.. لا بأس..

استجمع أعصابه ودق الجرس..

على الباب ظهرت الممرضة المبهوتة كالعادة فقال لها:

ـ"المريض التالي!"

لم تتكلم.. تراجعت..

وبعد لحظات انفتح الباب..

رأى وجهين لم يميزهما أولاً ثم عرف الحقيقة..

ثريا.. ثريا وشاهنده!

كانت ثريا منتفخة الوجه وقد بدت بالضبط كيدك لو أنك قمـ

تغسل الصحون في مطبخ دارك.. الجلد يوشك على أن يتسلخ.. الشعر منكوش ومتلاصق الخصلات. أما شاهنده فكانت مذعورة.. ورقبتها في وضع غير مريح بتاتا...

ماذا كانت ثريا تحاول قوله قبل أن تموت؟

قالت له:

ـ"هناك تلك الدميـ.. التي.."

ثم قتلها..

يمكن القول إذن أن القصة تتعلق بدمية.. والدمية لم يتم التخلص منها وهو لا يعرف أين أخفتها ثريا. إذن اللعنة موجودة وقائمة، وحسب اللعنة سوف يحاصره ضحاياه.. لقد كانت شاهنده من ضحاياه بالتأكيد والآن صارت ثريا مثلها..

كان د. هجرس - كما قلنا - عمليًا سريع التفكير لا يندهش أبدًا...وهكذا كان قد كون في ثوان تقييمه للموقف..

نهض من مقعده.. تراجع للخلف... ثم أصلح من ربطة عنقه... نزع المعطف وألقاه على المشجب، وارتدى سترته..

كانت المريضتان تتقدمان نحوه في ثبات..

في ثبات مماثل اندفع نحو النافذة العريضة التي تحتل جداراً كاملاً، وتظهر بانوراما لشارع البطل أحمد عبد العزيز، وهشمها بكتفه... كراااااش!

وبعد لحظة كان يهوي نحو الشارع العريض.



المدية الفضية

عندما استدعانا (بوريس) إلى قصره،
قال لنا إن علينا حماية المدية الفضية..
جعلنا نقسم القسم الدامي، ونطلق
على أنفسنا فرسان المدية الفضية.
قام بتوزيع المسئوليات والمفاتيح..
إن الغرض من الاحتفاظ بها كان أكبر من
أن يكون للعرض على السياح. كانت تمثل
حقيقتنا وكل شيء ننتمي له..

تمت السرقة في الثانية عشرة مساء..

لقد فقدنا المدية الفضية يا سادة وعلينا أن نقبل هذه الحقيقة. حاولي أن تمسحي دموعك يا إيرين وأن تتماسكي قليلاً.. لو كان البكاء يعيد المدي الضائعة لجلسنا جميعًا نبكي...

ربي!.. منهارة تماما.. هلم يا كارل قدم لها بعض البراندي.. اجلسي..

ترى أن نبلغ الشرطة؟.. لا جدوى من هذا يا ألفونس.. الشرطة ليست مجموعة من السحرة. أنت تعرف كما أعرف أن من حطم هذه الواجهة الزجاجية كان يلبس قفازًا.. الشرطة لن تجد بصمات.. هذا شيء محتم. سوف يبحثون عن شخص يحاول تهريبها خارج البلاد.. لا جدوى طبعًا لأن من سرق المدية أذكى من هذا..سوف يبتاعها أحد الأثرياء داخل البلاد ويضعها في قبو داره إلى أن يموت.. نفس ما كنا سنفعله نحن على كل حال...

إيرين.. إنها فاقدة الوعي ولو توخيت الدقة لقلت إنها في صدمة عصبية..

هذا غريب.. الأمر يتجاوز فهمي للأمور... يكفي بعض البكاء

وينتهي الأمر لكنها في رأيي تبالغ نوعًا. ربما كان عليك أن تطلب الإسعاف يا كارل وأن نجلس لنتصور كيف تمت هذه الجريمة..

هل الزجاج محطم؟..

لا؟.. إذن هناك من استعمل المفتاح. لكن كيف يحدث هذا بينما أنا و إيرين الوحيدان اللذان يملكان مفتاحًا لهذه الواجهة؟

إذن لابد من تفتيشي.. هلم!.. أنا مصر على ذلك..

تعال يا ألفونس إلى الغرفة المجاورة وقم بتفتيشي.. إيرين ليست متهمة طبعًا لكني أرى أن ننتظر قدوم إليزابيث لتفتشها بدورها..

إن المدية شيء صغير يسهل إخفاؤه..

تعال يا ألفونس.. لندخل هناك ولتعلن بعد التفتيش إنني شريف لم أسرق المدية الفضية..

***

هناك في الخندق رقد (فاسيلي زايتسيف) على بطنه يراقب المتاريس..

متاريس بلهاء فعلاً ولن تعوق أحدًا لكنها تلعب دورًا نفسيًا مهمًا..

تشعرك أنك لست معرضًا.. ومد يده يعتصر حفنة من الثلج....

أكتوبر 1942 والحرب في ذروتها.. يبدو أنه ما من أحد قادر على قهر هؤلاء النازيين..

أعاد حشو البندقية وأخذ شهيقًا عميقًا...أحكم التصويب..

هناك ذلك الشاب الألماني الذي يتحدث مع رفيقه وكلاهما يحمل قدحًا به شيء ساخن.. حساء أو قهوة.. صغير السن جدًا يذكرك بالمراهقين. الحقيقة أن فاسيلي كف من زمن عن اعتبار النازيين بشرًا، كما أنه يمقت السخف الأدبي على غرار: هذا شخص مثلي ومثلك لديه أحلام وأهل وحبيبة... الخ....

لم يعد هناك مجال لهذا الترف الأدبي.. إنها الحرب يا رفيق...

إن زايتسيف أهم قناص في الجيش السوفييتي، وورقة اللعب الأهم لدى السوفييت أثناء معركة ستالينجراد.. فيما بعد سوف يمنحه ستالين وسامًا، وبعد نحو أربعين عامًا سوف تقدم هوليوود فيلم (العدو على الأبواب) عن قصة حياته..

أما اليوم فليس في ذهنه سوى شيء واحد.. إنه يريد ذلك الفتى الألماني.. سوف يظفر به.. أحكم التصويب.. كتم أنفاسه.... سوف تضاف جثة أخرى للقتلى الألمان بعد ربع ثانية..

هنا شعر بمن يثب عليه من الخلف.. يا ابن الشيطان!...

على الفور رأى الوجه الألماني الذي يطلق السباب بالألمانية.. وأدرك من القبضة القوية أنه يأكل جيدًا جدًا ولا يعاني سوء التغذية مثل السوفييت. كان الألماني يجثم فوقه وهو يحاول أن يولج السونكي في صدره وهو يردد بلا توقف:

- "شايسه!.. شايسه!"

ما معنى هذا؟.. الأسوأ انه يبصق أيضًا.. يحاول فاسيلي أن يشله بيده اليسرى..

راح فاسيلي يتحسس الثلج بيده اليمنى.. لمست أنامله شيئًا... عندما تحسسه أدرك أنها مدية، على الأرجح سقطت من جيب هذا الألماني. لا وقت للتردد.. إن قواه تخور والالماني قوي فعلاً... بيد راجفة حمل المدية ثم حشرها بين جسده وجسد الألماني و.. هوب.. انغرست حتى النصل في صدر الرجل.. انتزعها وهذه المرة غرسها في عنقه....

هوى الجسد الضخم من فوقه وقد فرغ من الحياة... نحن بالونات مليئة بالحياة يكفي ثقب رصاصة أو طعنة بمدية كي

تخرج كل الحياة منها وتتداعى. فس س س س!

جثة ترقد وسط الثلوج..

أخيرًا اعتدل فاسيلي وبحث عن بندقيته.. يجب أن ينهي عمله القنص وبعدها يفهم كيف تسلل هذا الوغد الألماني إلى الخندق لكنه عندما نظر في عدسة البندقية وجد أن الجنديين الألمانيين قد اختفيا لقد خسر ألمانيًا وربح واحدًا... لعبة قدرية غريبة.

انتزع المدية من عنق الرجل ملوثة بالدم، فمسحها بمنديل وراح يتأملها... فضية... لا شك في هذا.. على الأرجح غالية الثمن كذلك.

دسها في جيبه وقد أدرك أنه لن يبيعها.. سوف يبقيها تذكارًا لهذه الحرب اللعينة، فقط لو ظل حيًا.. وهو كان على يقين من أنه سيظل حيًا..

ابتعد عدة خطوات ثم التفت للخلف ليرى المشهد مرة أخيرة..

لم يكن هناك أحد.. لا جثث على الجليد.. لا دماء.. فقط ثلج مبعثر في كل مكان..

تحسس جيبه فوجد المدية ما زالت هناك......

- إيرين لا تتنفس..

- اعرف ما حدث في هذا اليوم الأسود.. أرقدوها أرضًا..

- سوف أحاول ان أجري لها تنفسًا صناعيًا.. أين هذه الإسعاف اللعينة؟؟

- تنفسي يا إيرين.. تنفسي أرجوك...

- المناسبة لا يغادرن أحدكم المكان لأننا سنجري تفتيشًا دقيقًا على الجميع بعد أن نطمئن على إيرين..

- تنفسي يا إيرين...

- شهيق..

- زفير..

- شهيق..

- زفييير..

❦ ❦ ❦

الأمر سهل.. هناك واجهة زجاجية في القبو، ثم هذا الصندوق الزجاجي بالداخل.. أي أن هناك واجهتين زجاجيتين

تواجهانك قبل أن تصل للمدية الفضية. هناك واجهة محطمة وأخرى لا والمدية مختفية.. ألا يضيق هذا دائرة الاتهام قليلاً؟

إن كارل وإليزابيث يملكان مفتاح الواجهة الخارجية وبرغم هذا هي محطمة.. من فعل هذا يريد أن يجعلني وإيرين المتهمين الوحيدين..

عندما استدعانا (بوريس) إلى قصره، قال لنا إن علينا حماية المدية الفضية.. جعلنا نقسم القسم الدامي، ونطلق على أنفسنا فرسان المدية الفضية. قام بتوزيع المسئوليات والمفاتيح..

إن الغرض من الاحتفاظ بها كان أكبر من أن يكون للعرض على السياح. كانت تمثل حقيقتنا وكل شيء ننتمي له..

ماذا تقول يا ألفونس؟..

المدية كانت مخصصة لقتل المذءوبين في قرى يوغوسلافيا في القرن الرابع عشر؟.. بصراحة لا أصدق هذا الهراء.. هذه أساطير قروية لكنها خلابة.. بالتأكيد خلابة..

هلم.. إيرين تفتح عينيها أخيرًا..

إيرين فوق الشبهات.. ربما كان هذا لأنها فوق الشبهات فعلاً، أو

لأنني أحبها كما تعرفون وكما لا أخفي عن أحد.. المهم أنها بخير وأنني سأؤذي أي شخص يؤذيها..

جميل.. جميل.

هل انتهيت من تفتيشي يا ألفونس؟.. هل أنت مقتنع؟

تقول إنني نبيل ومن أسرة عريقة في أوروبا ولا يمكن أن أسرق المدية الفضية.. لا يوجد شخص فوق هذه الجريمة.. كل إنسان يمكن أن يفعل ذلك.. هذا هو مبدئي..

يبدو للأسف أنني مضطر إلى أن نقسم جميعًا قسم الدم من جديد.. من يفشل في القسم سوف يموت الليلة..

***

أخيرًا التحم البرج الخشبي بسور المدينة...

كانوا يطلقون السهام بلا توقف ويقذفون الحجارة، ثم تعاون عدد من الجنود وسكبوا وعاء مليئًا بالزيت المغلي فوق البؤساء الذين تسلقوا السلم الخشبي العملاق..

تسمع صوت الصراخ واللحم يذوب بينما هؤلاء الذين كانوا بشرًا يحلقون بأجنحة من نار إلى جهنم..

يا لهم من بؤساء..

لكن (أسجاآر) - وأرجو ألا يحذف المصحح اللغوي حرف الألف الزائد - يثب فوق السور.. عيناه متوحشتان تقدران على القتل وشعره منتفش، لقد صار وحشًا بفعل أيام من الحرمان والجوع... لهذا صار على أتم استعداد كي يمزق كل من يحاول منعه..

السيف في يده.. هو متعطش للدم والعنف والذهب...

والنساء!

نعم.. هناك الكثير من النساء في هذه البلدة الكلتية التي حاصرها الفايكنج. نساء صارخات باكيات يتوسلن له ألا ينتهكهن.. هذه الصورة تجعل الدم يغلي في عروقه، وهو يعرف يقينًا أنه سيذبح كل امرأة بعد ما ينالها..

أسجاآر الرهيب.. غازي الشمال القادم من حيث تتجمد الحلوق من الصقيع...

أسجاآر المتوحش الذي يطير الرقاب بضرباته..

يشق طريقه وسط المدافعين عن المدينة، وهو يطير الأعناق يمينًا ويسارًا..

ثلاثة أشهر من الحصار تنتهي الآن. وأسبوع كامل قادم من السلب والنهب..

هذا الباب الخشبي يحاولون غلقه.. يركله بقدمه ليفتحه..

يقف على الباب ويعوي كالذئاب..

يرى حطابًا في منتصف العمر يحمل بلطة ويسد الطريق عليه..

في الخلف زوجة بارعة الحسن في الأربعين من عمرها تفرد يديها محاولة أن تحجب طفلاً وفتاتين مراهقتين خلف ظهرها..

كوخ حقير هو.. لا يوجد فيه ما يسرق..

لكنه يمثل إغراء قويًا له..

والحطاب الذي يحمل البلطة.. يا لك من أبله.. حتى والبلطة في يده يبدو واهنًا وضحية جاهزة.. يحمل البلطة وهو يعرف انه سيهزم...

طار السيف في الهواء ليشطر ذراع البلطة الخشبي، ثم هوى فوق عنق الحطاب..

الزوجة تصرخ في هستيريا.. بينما أسجاآر الرهيب ابن أودين يتقدم فوق جثة الحطاب لينال ما يعتبره حقًا له...

حاول الطفل أن يعضه في يده وركله لكنه تخلص منه فورًا..

وهنا سقط شيء على الأرض..

شعرت به الزوجة وهي تقاوم.. ما هذا الشيء؟.. يبدو كمدية فضية.. شيء ثمين كما يبدو لابد أن هذا الوحش الشمالي قد سرقه من أسرة أخرى..

وكان حلق الرجل على بعد سنتيمترات منها..

حركت المدية بسرعة..

ولم تصدق أنها أحدثت هذا كله.. الوحش المفزع.. التنين يتهاوى.. الدم يتفجر كنافورة من عنقه.. يرتجف.. ينظر لها بعينيه الزرقاوين المفترستين غير مصدق..

هذا لا يحدث لي!

لا تستطيع زوجة حطاب أن تقتل أسجاآر الرهيب ابن أودين..

ثم تهاوى بلا حراك...

للحظات ظلت الزوجة وسط الدماء تلهث، وبنتاها تنشجان بلا توقف...

أخيرًا تحسست المدية الغريبة.. لا أعرف كيف أتيت في يدي

لكنك منحتني الانتقام... والنجاة..

❦❦❦

تعالي يا إليزابيث..

هل انتهيت من تفتيش إيرين؟.. لم تجدي شيئًا؟.. هذا لحسن حظي أنا لأنني ما كنت لأتحمل أن تموت أمامي..

لا أريد أي أعذار ولا أريد من يدافع عن نفسه..

كلنا متهم وكلنا سنحاول إثبات براءتنا الليلة..

أنتم تعرفون طقوس قسم الدم.. لقد أديناه من قبل أمام بوريس العجوز.. كان هذا منذ أعوام وكان مخيفًا كما تذكرون..

يومها قال لنا: من يحنث بهذا القسم سوف يموت فورًا..

سوف نكرر هذه التجربة الليلة.. تقدم يا كارل..

أنت تعرف الطقوس.. قف في وسط القاعة.. تقدم إلى الواجهة التي كانت فيها المدية الفضية.. إبدأ!!

❦❦❦

كارل كان مذعورًا...

لا ألومه كثيرًا لكن الأوان ليس أوان تعاطف.. سوف نمر كلنا بهذا الاختبار..

أنت تعرف قصة الملك الصقلي الذي أجلس خصمه ديموكليس Damocles تحت سيف ثقيل معلق بخيط ضعيف ضامر حتى الصباح... حتى دخل مصطلح (سيف ديموكليس) إلى الأدب الغربي. نحن نكرر هذه التجربة تقريبًا..

هذا هو السيف علقناه بالسقف... إنه يتدلى بحبل بلاستيكي غليظ.. سوف نجلب المقعد إلى منتصف الغرفة.. إجلس تحت السيف بالضبط... ارفع ذقنك ليهوي السيف على حلقومك لو سقط...

الآن سوف أجلب عود ثقاب وأمس الحبل...

إنه يشتعل!

الشرر والبلاستيك المحترق يتطاير في كل صوب.. بسرعة.. إن وقتك محدود جدًا..

اقسم الآن أنك لم تسرق المدية الفضية.. هلم.. قلها ببطء... لو كنت كاذبًا فلسوف يهوي السيف عليك قبل أن تلفظ جملة كاملة..

ـ"أنا لم أسرق المدية الفضية وليتمزق عنقي لو كنت كاذبًا"

."كرر"

الشرر يتساقط والحبل تحول إلى خيط أسود رفيع كخيط عنكبوت..

"أنا لم أسرق المدية الفضية وليتمزق عنقي لو كنت كاذبًا"

جميل.. جميل.. هيا انهض بسرعة...

تشاك!.. لقد هوى السيف فوق المقعد.. انغرس حتى منتصف النصل في الخشب.. وسقط كارل على الأرض غير مصدق بالنجاة.. كل عضلة في جسده ترتجف كأنه مكهرب..

أنت صادق.. لا شك في هذا... اهدأ..

طبعًا عندما كنا نقسم لبوريس العجوز، كنا نقول:

ـ"سوف أحمي المدية وأحفظ سرها.. وليتمزق عنقي لو كنت كاذبًا"

هذا دوري.. سأجرب حظي إذن.. أعتقد أني سأنجو.... لأنني بريء..

تعال يا ألفونس واستعمل حبلاً جديدًا من فضلك.. أرجوك أن تكون حذرًا.. لا أريد أن يسقط السيف فوق عنقي لأنك مهمل،

وليس لأنني لص..

أطلق (نواع – حتب) آخر سهم في جعبته..

لم يعد الآن يحمل سوى السيف..

نظر إلى النهر حيث كان الملك رمسيس ينطلق بعربته الحربية..

بدا أكبر من الواقع وهو يجندل هذا ويصرع ذاك من الحيثيين..

يندفع ليقلب عربة تلو أخرى في النهر ثم يقذف بنشابته ورمحه ويهشم الرءوس.. لقد بدا كأنه جاء من العالم الآخر.. ربما هو أحد أبناء أوزيريس.. إنه هو الموت نفسه...

شعر (نواع) بقشعريرة.. مما يدعو للفخر أن يكون هذا هو ملكه..

قوي مفتول العضلات غاضب نبيل كإعصار.. لم يعد بشريًا بل هو ينتمي إلى قوى الطبيعة ذاتها.. إن التاريخ سيذكر معركة قادش طويلاً جدًا.. سيذكر رمسيس العظيم..

لكنه لن يذكر (نواع – حتب) الذي يوشك على أن يلقى مصرعه..

تراجع ليلصق ظهره بشجرة ليمون وراح يلوح بالسيف..

كان يخشى هذا العملاق مجدول اللحية قوي العضلات الذي

يقطع رءوس الرجال يمينًا وشمالاً.. كان يتقدم وهو يترك من خلفه طريقًا من رءوس مقطوعة.. إنه من أبطال الحيثيين وزملاءه يتبعون خطواته..

الويل.. الويل..

العملاق يتقدم منه...

يرى بشرته السمراء وعينيه الزرقاوين الغريبتين، بينما كان (نواع) صعيديًا لم ير في حياته إلا العيون السوداء.. لهذا بدا له الغريب وحشًا..

بضربة واحدة أطار الغريب سيف نواع.. بمعنى أدق شطره إلى نصفين وطار نواع نفسه إلى الأرض الموحلة..

هنا وجد المدية الفضية جوار يده..

برغم الجو المحموم وسرعة الأحداث، فقد أدرك أنه لم ير مثلها وهذه الصناعة الدقيقة الحديثة.. ثم من أين جاءت؟..سقطت من أحد الجنود الحيثيين على الأرجح..

قبض كفه عليها..

قذف بها في الهواء نحو العملاق عالمًا أنه على الأرجح سيثير

غضبه فقط..

لكن المدية استقرت في صدر العملاق.. ورآه يزأر كأسد ؛ـ
سقط وسط الأوحال.. الأوحال التي اختلطت بالدم. وعا
الفور التقط نواع السيف واندفع يلحق بملكه الذي كان يقلـ
العربة السابعة للحيثيين في النهر..

قادش.. سوف تتناقل أخبارها الأمم..

أنتم ترون يا شباب أنني أديت قسم الدم والسيف لم يسقط فو،
رأسي.. صحيح انني مبلل بالعرق وأرتجف.. وصحيح أن السيف
كاد يقطع حلقومي فعلاً، لكني حي.. وبالتالي أنا بريء..

هل تريدين التجربة يا إليزابيث؟.. لا يوجد اختيار هنا.. كلنا مجبرو،
على ذلك، لكنني أسمح لك بحرية اختيار الترتيب لا أكثر..

من يرفض اجتياز هذا الاختبار يعترف بأنه هو السارق.. بوريس
العجوز طلب منا أن نعدم من يرفض اجتياز الاختيار حتى لو
كان هو نفسه..

تعالي..

اجلسي..

ملق السيف يا كارل.. اشعل الحبل يا ألفونس..

، الآن يا إليزابيث أريد أن تقسمي.. اقسمي انك لم تسرقي المدية المضية..

هلم!.. خذي نفسًا عميقًا وتكلمي قبل أن يسقط السيف فوقك..

البزابيث..

تكلمي..

أنت متوترة وريقك جاف، لكن هذا لن يعفيك من اجتياز الاختبار..

اليزابيث.. لااااااااااااااااا!!!!

ꕥ ꕥ ꕥ

كانت هناك تلك المواجهة في زقاق خلفي لنادي (شاتر) الليلي. إنها الثلاثينات من القرن العشرين كما تعرف.. كما تعرف..

لقد كان (جيمي) الأخنف هناك، ومعه (رايلي) و(جيسون)..

رباه!.. كل الشلة كانت هناك، وفي الوقت نفسه كان هؤلاء الصبية يعرفون معنى أنهم أهانوا ماريو وسوني وريكاردو...

هؤلاء ليسوا إيطاليين فلا تخدع نفسك.. هذه البشرة السمراء

واللكنة الواضحة. إنهم من صقلية.. كل طفل يعرف أنهم من صغار المافيا.. بعد أعوام سيرعب كل واحد من هؤلاء قطاعًا من شيكاغو..

كانت المواجهة، وتطاير الدم في كل مكان... هشم جيسون زجاجة بيرة وراح يطعن بها، بينما وثب ريكاردو خلف جيمي الأخنف ومرر المطواة تحت عنقه..

وثبت قطة مذعورة.. ومن مكان ما غنى رجل سكير..

أما (رايلي) فسقط على الأرض يرتجف.. كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.. كل طفل يعرف أنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة لكن لماذا؟.. هو نفسه لم يعرف..

وعلى الأرض التحم جيسون مع ماريو يتقاتلان وانقلبت أكثر من صفيحة قمامة..

وفي النهاية رفع ماريو الزجاجة المهشمة التي انتزعها من يد جيسون وهتف:

ـ"مت!"

لكن المدية اخترقت قلبه جهة اليسار.. المدية التي وجدها

جيسون في يده ولا يعرف من أين جاءت.. هل كانت في جيب ماريو؟.. لا يعرف..

غاصت المدية حتى المقبض وتهاوى جسد ماريو تمامًا..

عندما نهض جيسون وجد الزقاق خاليًا تمامًا إلا من جثتي صديقيه وجثة ماريو..

تأمل المدية.. مدية فضية جميلة الشكل.. من أين جاء بها ماريو بفرض أنها كانت معه أصلاً..؟

❀ ❀ ❀

لا تتحركوا...

سوف نزيل الدماء ونغسل المقعد جيدًا..

لقد كذبت إليزابيث.. كانت هي التي سرقت المدية الفضية بلا شك..

لا تفقدي الوعي من فضلك يا إيرين.. أعرف أن المشهد شنيع لكننا نعرف أن القانون أكثر شناعة وسرقة المدية أشنع وأشنع..

لا تقلقوا بصدد رجال الشرطة.. سوف يسهل إخفاء الجثة وإخفاء أن إليزابيث جاءت هنا.. لكن مشكلتنا لم تنته بعد..

يجب أن تفتشي الجثة بعناية يا إيرين بحثًا عن المدية الفضية.. لم يكن الانتقام هو هدفنا، ولكن استرداد المدية..

هل وجدت المدية؟.. لا... هذا غريب..

أين يمكن أن تكون أخفتها؟ ربما في مكان ما من هذه الغرفة أو القلعة.. لا نعرف حقًا.. سيكون البحث عسيرًا..

الآن سوف نتخلص من الجثة ونعد العدة لاستمرار اختبار الدم..

ألفونس مذهول ويقول إنه لا داعي لذلك الآن.. كلا.. لابد من استمرار التجربة فقد يكون هناك شريك لإليزابيث في هذا..

لو لم تقبل الاختبار يا ألفونس فإنني سأفترض أنك متعاون معها، وسوف نقتلك حالاً هنا والآن..

هيا.. اجلس..

حاول أن تنسى أن إليزابيث كانت هنا منذ دقائق وكانت حية..

حاول أن تنسى الطريقة البشعة التي هوى بها النصل على حنجرتها...

ارفع رأسك... انظر للسيف المتدلي من السقف فسوف أشعل

الحبل...

أنت تحفظ كلمات القسم:

ـ"أنا لم أسرق المدية الفضية وليتمزق عنقي لو كنت كاذبًا"

تشاك!..

❦❦❦

بوريس العجوز كان أول من بدأ يفهم قيمة هذه المدية..

عندما وقف في متجر ذلك التاجر اليهودي ينظر حوله في شك، كان يعرف جيدًا ما يريد.. المدية الفضية.. مدية (عشتار) كما يطلقون عليها، وهو يعرف جيدًا ما تعنيه..

إن تاريخ هذه المدية يدل على أصلها ومنشئها..

كل الشواهد التاريخية تقول إنها كانت تنتقل من يد ليد.. تظهر بالذات في اللحظة التي يوشك فيها شخص واهن أو بريء على أن يلقى حتفه، عندها تظهر المدية لتنقذه.. وتنتقل ملكيتها له ثم أولاده أو أحفاده.. إلى أن يأتي اليوم الذي يفقدونها فيه وتنتقل لضحية أخرى..

قال اليهودي إنه حصل عليها آخر مرة من شاب يدعى (جيسون)

كان في حاجة إلى أن يسدد ديون القمار.. كان الشاب من شيكاغو وقد قتلته العصابات بعد هذه الصفقة بقليل..

اليهودي كان يملك كتبًا وكانت لديه رسوم لهذه المدية..

رسوم قديمة جدًا..رسوم صنعها رسام بدائي من حضارة بين النهرين، ورسوم لها طابع فرعوني أكيد، ورسوم تذكرك بمخطوطات تشيلليني في عصر النهضة..

المؤكد هو أن المدية هي المدية والنقوش واضحة..

قال اليهودي وهو يفتح علبة القطيفة السوداء:

ـ"ها هي ذي.."

وفي الضوء الشاحب توهجت المدية الفضية رائعة الجمال..

كان بوريس العجوز يعرف كل شيء عنها.. يعرف أنها كانت في خزائن أسرته لأطول وقت ممكن في تاريخها، مع أنها تقلبت كثيرًا بين عشرات الأيدي والجنسيات..

يعرف أنها خاصة بذلك الناسك الذي عاش في زمن عبادة عشتار.. هذه المدية استخدمها الناسك ليقتل الشيطان.. ومنذ ذلك الحين تنتقل المدية من يد ليد لتؤدي عملها عندما تمس

لحاجة له..

قال بصوت مبحوح:

"هي.. لا شك في ذلك"

قال اليهودي وهو يغلق الصندوق:

- "هي ليست للبيع.. هذه مجموعة خاصة.."

"لا.. لا يمكن أن تتحدث عن مجموعات خاصة.. هذه المدية لي.. تخص أسرتي.. سوف أخبر ورثتي جميعًا وسوف نحرسها فلن تغادر أسرتنا أبدًا..

- "أنت تمزح.. لكل شيء سعر"

- "بعض الأشياء ليس لها سعر.. أنا ليس لي سعر وهذه المدية ليس لها سعر"

أخرج دفتر الشيكات ليكتب رقمًا، لكن اليهودي قال وهو يبتسم:

- "لا تحاول.. قلت لك إنها ليست للبيع.."

واستدار ليضعها في الخزانة خلف اللوحة المعلقة..

هنا كان بوريس العجوز قد اتخذ قراره..

لم يره أحد يدخل هنا عندما جاء الليلة ولا يوجد شهود.. إنه وحده مع اليهودي، وقد نال هذه الحظوة بسبب ثرائه ومكانته الاجتماعية..

هكذا اخرج المسدس الصغير من جيبه وصوبه إلى مؤخرة رأس اليهودي.

أما لماذا قام بتثبيت كاتم الصوت قبل هذا، فلأنه لم يستبعد هذا السيناريو منذ البداية..

وهكذا عندما غادر بوريس المكان كانت المدية الفضية قد عادت لأسرتنا العريقة، ومعها قسم الدم.. كان يعرف أن المدية أقوى وأكثر حكمة من أن تكون مدية عادية..

***

قال بوريس لنا وقد أغلق أبواب القاعة بهذا الباب الخشبي الغليظ، والنار تتوهج في المدفأة فتجعلنا نرتجف:

ـ"هذه المدية تمثل الشيء الذي هزم الشيطان.. ولهذا نحتفظ بها ونقاتل ونموت من أجلها.."

هنا دوى صوت الرعد فاهتز القصر، وتعالت دقات قلوبنا...

خيل لنا للحظات كأن الشيطان يعلن غضبه من سقر..

هذه أشياء خطرة جدًا.. التعامل معها مخيف.. لكن الأخطر هو أن بوريس أخبرنا بالسر، وعرفنا أنه لم يعد بوسعنا التراجع..

***

هناك في العراق قرب البصرة كان ذلك اللقاء..

هذه أيام قديمة جدًا.. أيام يعرفها الناس من أسطورة جلجاميش وصديقه إنجيدو، عندما كان اسم المنطقة (بلاد ما بين النهرين) وكانت هنا إمبراطورية أشورية وبابلية وسومرية..

الرجل الذي حكت عنه الأساطير كان ناسكا اسمه (أوتنابشتيم).. إنه الناجي من الفيضان، وهو ذلك الذي طلب الخلود فناله ووقع في الخطأ الشهير عندما لم يطلب ألا يشيخ.. النتيجة هي أنه ظل حيًا لكنه تحول لمومياء. نفس الغلطة وقع فيها أبطال الأساطير الإغريقية من قبل، ووقع فيها معمرو قصص جليفر..

هناك يقف الشيطان والشرر يتصاعد من مخالبه ومن منخريه.. السماء تصطبغ باللون الأحمر، والمواجهة الأخيرة بينه وبين الناسك..

كانت مواجهة محسومة فعلاً... المدية الفضية في يد الناسك

والشيطان يريدها. استطال وتمدد حتى صار بحجم شجرة بلوط عملاقة. انقض على الناسك، لكن هذا الأخير طعنه مرتين بالمدية فاضطر الشيطان لأن يطلق سراحه ويتراجع... الدم يخرج من ثقوب جسده على شكل دخان أزرق مخيف....

رفع الشيطان عقيرته للسماء وعوى كذئب..

الناسك ارتجف رعبًا لكنه كان يعرف أنه لا سبيل للفرار أو التراجع.. يجب أن تصمد..

انقض الشيطان من جديد وتلقى عدة طعنات، لكنه استطاع أن يلف لسانه المشقوق الطويل حول عنق الناسك.. ثم اخترق هذا العنق الطري.. ومن أذن الناسك خرجت همسات الشيطان الهدبية.. خرجت من أنفه وفجوتي عينيه....

وعندما انتهى الشيطان لم يبق من الناسك الذي منح الخلود إلا قشرة خالية هشة..

كانت الريح تهب محملة بالسموم وبنات آوى تعوي، عندما ألقى الشيطان بالقشرة.. وصرخ من فرط القوة.. ثم بحث عن المدية..

لم يجدها!

لقد ضاعت المدية وهي التي صارت له بحكم منطق القوة.. أين هي؟ من جديد راح يعوي كالذئاب.. وتساقطت أشجار الصفصاف واحترقت الأعشاب وهبت الريح.. أما الذئاب ففرت من هذه المنطقة مذعورة...

وهكذا راح الشيطان ينقب عن هذه المدية عبر الزمان وعبر المكان..

بحث عنها في كل العصور.. كان يظهر دومًا في الوقت المناسب ليكتشف أنها اختفت من جديد.. يجب أن نقول هنا إن المدية كانت لها شخصية وحيلة خاصة بها، وكانت تجيد التواري.. تظهر للحظات لتحدث تغيرًا في موازين القوى ثم تتوارى.. ويفتش الشيطان فلا يعرف أين هي.. محارب أخذها وفر أو زوجة خبأتها في صدرها أو تاجر ابتاعها..

بحث مرهق طويل..

الحقيقة التي لم نعرفها ولم يعرفها بوريس هي أن هذه لم تكن مدية خيرة.. لقد كانت مدية الشيطان نفسه وهو يفتش عنها منذ قرون.. لو توقف للحظات ليفكر لأدرك أن المدية جلبت

أنهارًا من الدماء وتلالاً من القتلى عبر التاريخ.. فكيف تكون رمزًا للخير؟

❁❁❁

يسهل على المرء أن يتكلم ويتفلسف ما دامت حكمة بأثر رجعي..

لكن عندما بدأنا الاختبار لم أعرف هذا كله.. في البدء شككت في أن إليزابيث فعلت هذا.. ثم لحق بها ألفونس.. بدأت أشك في الأمر..

قررت أن أتلصص على حقيبة إيرين وجيب كارل. عندما تسللت إلى حقيبة إيرين وفتحتها وجدت المدية الفضية..

أنا أثق بك يا إيرين بشدة لأنني أحبك.. لكن الأمر لا يحتمل الجدال. المدية معك.. والأخطر أنك اجتزت الاختبار، والأخطر من هذا أن إليزابيث لم تجدها عندما فتشتك أول مرة... هل هذا يشير لشيء؟

نعم.. انت سرقت المدية ولديك قدرة على إخفائها في ذات المكان الذي يتم تفتيشه.

لقد أديت دورك جيدًا وفقدت الوعي مرارًا.. لكنك أنت من

ـرق المدية.. هل لي أن أعرف السبب؟

لا يا كارل.. لا تقتلها.. أريد أن أعرف منذ متى هي تتآمر على
ـر أسرتنا ولماذا؟

الشيطان قد تمكن أخيرًا من تحديد مكان المدية وعرف سر أسرتنا، وهذا يعني أن رحلته عبر التاريخ قد بلغت نهايتها ونجحت...

لا تقترب منها يا كارل.. أنت ترى أنها تلهث بلا توقف وأن لسانها يخرج ويدخل بين شفتيها.. كارل.. إن حدقتيها بلون الدم.. إنها تتغير وهناك شرر يخرج من أطراف أناملها.. لشد ما نغير جمالها الذي بهرني أعوامًا لا حصر لها..

كارل.. ابتعد يا أحمـــ.....!

لقد شققت قلبه بضربة واحدة من لسانك يا إيرين!... أنت لست كائنًا بشريًا.. هذه قشرة سكن فيها الشيطان.. أنت قتلت إيرين ثم قتلت كارل الآن..

ـ"هات المدية.. إنها لي!"

يا لصوتك!.. لقد صرت كيانًا شنيعًا فعلاً...

لماذا تعتقدين أنها مديتك؟.. دعيني أسمع قصتك مع ذلك

الناسك (أوتنابشتيم).. فهمت.. ونحن كنا حمقى عندما حسـ ا
المدية ترمز لانتصار الخير على الشر.. بالعكس.. هي تر.
لانتصار الشر على الخير..

ـ"هات المدية.. إنها لي!"

لماذا لا تقتلينني وتأخذينها؟.. سأسمح لنفسي بافتراض أن هنا!
سرًا هنا.. يبدو أنك تتصرفين مثل مصاصي الدماء الذين لا
من دعوتهم بكامل إرادتك. هنا لا تقدرين على انتزاع المدية مني
بالقوة. لابد أن أموت أو تسقط مني لتأخذيها. أليس كذلك؟
هذا هو التفسير الوحيد لكونك لم تقتليني حتى الآن..

لكن بوريس العجوز لم يكن سهلاً..

كان يخشى أن يستولي لص أرضي على المدية، لذا احتاط للأمر..

كان لديه حل أخير هو (الخيار شمشون) في حالة العجز عن حمايه
المدية.. يكون علي أن أزيح هذا القضيب الحديدي جوار المدفأة
نعم.. هذه جدران فولاذية تنغلق علينا من أعلى وتحبسنا في غرفه
مساحتها متران في ثلاثة أمتار. هذا شيء لا يضايق الشياطين
طبعًا.. لا شيء يحميني سوى عجزك عن انتزاع المدية مني..

الآن ترتفع حرارة الجو ببطء.. إنه فرن.. فرن قادر على إذابة الفضة..

الشياطين تحب هذا المناخ كذلك.. إنه بيئتها الطبيعية..

لماذا أفعل ذلك؟.. لأنني أقسمت للعجوز بوريس ولأن شرفي شيء أهم من حياتي.. أنت بوسعك الخروج والهرب متى أردت.. لكن سيكون عليك عمل ذلك من دون المدية..

عندما تبلغ الحرارة أعلى درجة لها، سوف تنفتح الجدران من جديد.. غدًا سيجد رجال الشرطة جثث الآخرين وجثتي متفحمة وفي يدها كتلة من فضة ذائبة.. وسيكون الشيطان قد فقد مدينته الفضية للأبد.



سديم.. سديم.. سديم..

بدا لي الاسم غريبًا.. لكني عرفت أنني وقعت في حبها وحب اسمها..

فيما بعد قيل إن اســم هـذا المرض (نكروفيليا)..ليس هذا دقيقًا.. النكروفيل ينبش المقابر ليخرج جثة يعاشرها.. هذا يثير القشعريرة في نفسي... ليس هذا هو الوضع هنا وأظنك توافقني..

الحب الأول وربما الأخير.. الرجفة الأولى وخفقان القلب الأول...

١ - سديم

صوت ألحان شتراوس العبقرية ينبعث من هذه السماعة العملاقة..

هناك فتاة ترقص وقد سقط شعرها على وجهها بالكامل، ومعنى هذا أنها لا تدرك ما يدور حولها ولا تبالي به.. إنها في غيبوبة كاملة. ومعنى هذا أنها قد اتحدت باللحن ذاته لتتحول إلى ظاهرة فيزيائية..

أقطع شريحة أخرى من اللحم، لكني لا أبتلعها.. في الواقع لا أتذكر ما يجب أن أفعله بها.. أعبث بالشوكة طويلاً وأرفع عيني لأجد ذات الفتاة ما زالت ترقص.. صارت أكبر من الواقع.. صارت ظاهرة كونية كما قلت...

يقول لي عادل والسيجارة تتدلى من فمه:

ـ"أنت شارد الذهن جدًا.. هناك في عينيك كتاب كامل من الذكريات لا تقل صفحاته عن ألفي صفحة.. كم حياة عشت؟"

بالفعل عشت أكثر من حياة.. ألف حياة..

ألتهم قطعة اللحم ومن جديد أنظر إلى المسرح حيث تلك الفتاة ترقص.. تهز شعرها.. لحن شتراوس... هل هو الدانوب الأزرق؟.. لا.. نساء وندسور على الأرجح.. لا.. مارش رادتسكي...

كان نفس اللحن يعزف في تلك الليلة..

في بيتنا كان اللحن يعزف من المذياع، وكان أبي غاضبًا لكن أمي لم تخفض صوت المذياع..

كنت أنا غارقًا في الحب.. كنت أتنفس بصعوبة تحت محيط من الحب عزلني عن العالم الخارجي فلم أعد أرى أو أسمع أو أشم.

كان اسمها (سديم).. سديم اسم من أجمل الأسماء التي سمعتها، ولم أسمعه بعد ذلك سوى مرة أو مرتين برغم أنني في الأربعين من عمري..

سديم.. الفتاة الشاحبة الرقيقة.. الفتاة التي كنت أقابلها في المقابر، وألعب معها ساعات متواصلة...

سديم ذات الأطراف الباردة.. سديم ذات العينين الشفافتين..

منذ البداية كنت أعرف أنها ميتة وأن هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا.. ولو كان حقيقيًا فلا مستقبل له.. كنت ناضجًا وكنت أفهم كل شيء، لكن قلبي ظل أخرق غبيًا يأبى أن يستجيب لأوامري..

كنت عائدًا للبيت بعد مباراة كرة مع الأصدقاء، وكنت أختصر الطريق بأن أجتاز المقابر..

في ذلك اليوم كان البرد شديدًا والغيوم كثيفة جدًا.. لهذا توارى الجميع في بيوتهم يصطلون ويشربون العدس أو يأكلون محشو الكرنب ويتخيلون العاصفة بالخارج..

كنا نحن المجانين الذين قررنا أن نلعب الكرة في طقس غائم فعلاً، وسرعان ما عرفنا أنها فكرة فاشلة عندما بدأ المطر ينهمر.. وازداد الأمر سوءًا عندما شق السماء لسان برق.. اضاءت وجوهنا وأظلمت وشعرنا بالقشعريرة قبل أن يقول مصطفى عامر:

-"لا جدوى.. ألغيت المباراة.."

ألغيت المباراة إذن وتفرقنا.. كل واحد ركض في اتجاه.. بينما أنا أركض وسط الوحل وأغطي وجهي.. كنت ألبس العوينات لأول أسبوع في حياتي، وبدا لي من المستحيل أن أركض وأنا H لبسها لأنها تتغطى بالماء في ثوان، لكنني كذلك لم أستطع الركض من دونها..

كنت في مأزق.. خاصة أنني سأجتاز المقابر والله يعلم كم أن المشي فيها وعر وزلق...

المطر ينهمر خارج القاعة..

ليلة شبيهة بتلك الليلة منذ ثلاثين عامًا... لكن لا توجد هنا مقابر.. هناك حديقة ورجال امن وتماثيل ساحرة وإضاءة ليليه وحسناوات غنوجات ورائحة عطرية غريبة في الجو. يقال إن هناك طاووسًا في الحديقة لكن من المستحيل أن يتركوه وسط هذه الأمطار...

بيت (جلال الشريف) هو قصر في الحقيقة، ولا نطلق عليه لفظة بيت إلا بحكم العادة.. السؤال هو متى يجمع هؤلاء القوم كل هذا المال؟.. ادخرت كل مليم حصلت عليه في حياتي، وبرغم هذا لا أقدر على شراء تمثال واحد من تماثيل الحديقة هذه.. هل معنى هذا أنني فشلت في حياتي أم أن (جلال) نجح أكثر من اللازم؟

هناك برق في السماء كذلك..

معدتي تتقلص.. البرق يجعلني عصبيًا جدًا ولا أعرف السبب..

ثم هذا الألم الغريب في فكي. أعرف هذا الألم الغريب في فكي..

ا، تلك الليلة كان فمي يؤلمني كذلك..

ىعلمت منذ ذلك الحين أن البرق أو العواصف يسببون لي ألمًا في الفك.. هناك من يشعرون بدنو العاصفة من ألم الركبة..

ىنت أشعر بألم الفك وانا أنزلق بين القبور مرارًا.. بدأت أشعر بالذعر وأنا أدرك أنني تورطت وضللت الطريق.. وحل وظلام.. كيف أعود للبيت إذن؟

ثم رأيتها هناك واقفة خلف قبر عال عن الأرض.. كانت تلبس ثوبًا طويلاً وتنظر لي.. العينان الواسعتان الشفافتان..

عرفت كذلك من اللحظة الأولى أنها ميتة.. هذا واضح ولا شك فيه، لكنني لم أشعر برعب.. فقط شعرت بانجذاب هائل لها، ولم أتساءل عن كنهها ولا ما أتي بها هنا.. فقط أذكر أنها راحت تركض بين المقابر وأنا أركض خلفها عالمًا بشكل ما أنها طريقتي الوحيدة للخروج من هنا..

ـ"ما اسمك!؟"

صحت اناديها بصوت غمرته مياه المطر فقالت دون أن تنظر للخلف:

-"سديم!"

-"ماذا؟"

-"سديم!"

بدا لي الاسم غريبًا.. لكني عرفت أنني وقعت في حبها وحب اسمها..

فيما بعد قيل إن اسم هذا المرض (نكروفيليا)..ليس هذا دقيقًا.. النكروفيل ينبش المقابر ليخرج جثة يعاشرها.. هذا يثير القشعريرة في نفسي... ليس هذا هو الوضع هنا وأظنك توافقني..

سديم.. سديم.. سديم...

الحب الأول وربما الأخير.. الرجفة الأولى وخفقان القلب الأول...

وكانت متاعبي في البداية كما تعلم...

جاءت لتجلس معي على المائدة، وبيد واثقة بلا رجفة صبت لنفسها بعض الماء في كأس وقالت لي وهي تبلل شفتيها:

ـ"ماء فقط؟.. لا تشرب؟"

قلت لها وأنا أرمق المدعوين:

ـ"لا أشرب.."

ـ"والسبب؟"

ـ"الدين ليس دينًا فقط.. إنه طريقة حياة.. ينشأ المرء في بيت يتعلم معه أن يغسل يديه قبل الأكل وبعده، ولا يأكل السمك من دون سلطة، ولا يشرب الخمر أبدًا..!.. هي طريقة تربية كما قلت"

ضحكت كثيرًا حتى غلبها السعال، ثم قالت:

ـ"هل قابلت جلال الشريف؟"

ـ"لا.."

ـ"هل أنت من أصدقائه؟"

ـ"لا.. صديقي عادل من أصدقائه، وقد دعاني هنا كما يدعو

الناس بعضهم للسيرك"

قالت بطريقة عابرة:

-"اسمي شيرين.."

-"أعرف هذا.."

-"جلال قريبي"

-"أعرف هذا.."

كان الشعر يغطي عينيها فلا تراهما أبدًا.. فقط تدرك أنهما هناك خلف الستار وانهما تنظران لك..

عينا سديم كانتا كذلك..

غالبًا ما تكونان خلف الشعر فإذا انزاح الستار أدركت انهما شفافتان تمامًا.. كانت خجولاً جدًا خاصة عندما يحدث شيء كريه مثل أن ينفصل إصبع من يدها أو يسقط جزء من الجلد. كانت تداري هذا في خجل برغم أنني أخبرتها مرارًا بأنني لا أبالي..

كانت تقول لي:

ـ"سوف انتهي يومًا.. انت تعرف هذا.."

ـ"لا أرى هذا اليوم"

ـ"التحلل حتمي"

ـ"لكنه بطيء.. سوف الحق بك في القبر قبل أن يسقط لك ظفر آخر.."

وكانت تضحك ثم تدعوني للعب.. تركض بين شواهد القبور وأنا أركض خلفها..

لقد صارت سديم ضرورية جدًا لعالمي. صرت أتأخر عن البيت كثيرًا وصرت أشرد بلا توقف.. عندما آكل أعبث بالشوكة في طعامي ولا ألتهم شيئًا. أمي قالت لأبي وأبي أخبر عمي، وفي النهاية قال الجميع بخبث:

ـ"الحب!.. تالله هو الحب!"

أبي كان سعيدًا لأنني نضجت وكبرت ولأن هرموناتي بدأت تعمل، لكنه نصحني بألا أضيع وقتًا كثيرًا.. الحب قد يبني حياتك وقد يدمرها..

لم أكن أنوي إخفاء أي شيء... قلت له إنها سديم.. قلت إنني

أقابلها في المقابر.. قلت إنها تتحلل وجلدها يسقط.. ذات مرة

وضعت يدي على ظهرها فشعرت بالرئة تحت أناملي من تحت

الثوب. أصابها خجل شديد وطلبت مني ألا أفعل هذا ثانية.

قال أبي في ضيق إنني أخرف..

على أنني عدت له في اليوم التالي ومعي البيانات.. الاسم سديم

فتحي الجواهرجي.. توفيت منذ عام ونصف.. تتحدث كثيرا

عن الغرق. لا أعرف التفاصيل....

سخر أبي مني كثيرًا.. على ان زياراتي للمقابر استمرت فترة

طويلة، وفي النهاية قرر أن يبحث في المقبرة عن هذا الاسم الذي

سمعه. دفع مالاً للحاد الذي جعله يرى القبر.

قال لي أبي إن فريق البيتلز البريطاني وجد مقبرة قديمة عليها اسم

(إليانور رجبي)، فخطر لهم كيف كانت هذه المرأة تعيش حياتها.

كتبوا عنها أغنية شهيرة جدًا، وما زال قوم كثيرون يعتقدون أنها

ما زالت حية، ومن صدقوا أنها ماتت ما زالوا يزورون قبرها..

ـ"الموتى قد يكونون أكثر حيوية من الأحياء.. وأنت قد منحت

سديم هذه حياة خاصة بها"

مل أن اللحاد أخبره أن الفتاة ماتت غرقًا. كانوا أثرياء وكان هناك حمام سباحة في البيت.. القصة الشهيرة عن الأهل الذين يهملون الطفل فيقع في حمام السباحة ليلاً ويموت..

هذا أثار قلق أبي.. من اين عرفت أن الفتاة ماتت غرقًا..؟؟

الطبيب حدثني عن الوساوس وحدثني عن الشخصية الأخرى الموجودة في ذهن كل طفل، والتي يتبادل معها الكلام. لكني كنت غارقًا في الحب ولم أشأ أن أفقدها..

كانت تلك هي الأعوام التي ظهرت فيها أغنية إيزاك هايز "لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكون على صواب" وكانت تناسب الوجيعة بالضبط..

***

والأغنية تتردد الآن..

هذه الليلة فريدة من نوعها.. برغم الفتيات الجميلات والصخب والزحام، ثمة رائحة ما أعرفها.. سوف يحدث شيء مهم..

الأغنية تتردد:

لو لم أرك عندما أريد.. فلسوف أراك عندما أستطيع..

لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكون على صواب

أنا مخطئ لأنني جائع لرقة لمساتك

بينما هناك من ينتظرني في الدار..

ما الذي ذكرهم بهذه الأغنية؟.

الفكرة هنا هي أن موقفي الأخلاقي لم يكن بهذه الدرجة م

السوء.. لكنني كنت أخترق الحاجز الفاصل بين الموت والحياة..

عرفت من يحب فتاة ليست من دينه وكان هذا حاجزًا مهمًا..

هنا نجد حالة فريدة أن يحب المرء فتاة ليست من حاله

البيولوجية!

سديم يا جميلتي.. سديم...

وشيرين تنظر لي ثم تلقي بملعقة من السلطة بين شفتيها وتقول

ـ"أقسم بالله أنك تحب.. هذه نظرات عاشق.. "

غرست الشوكة في السلطة وتذوقتها.. مالحة جدًا.. مالحة جدًا..

شيء آخر كان مالحًا بذات الدرجة.

ربما دموعي وأنا أشرح لأبي أنه ليس بوسعي الاستغناء عن سديم. لن أحكي موضوع الإصبع المتآكل الذي وجدته أمي في جيبي طبعًا.. لم تكن قد سمعت عن النكروفيليا لذا كان الجنون هو الافتراض الوحيد لديها.. أنا جننت بلا شك..

تم الفراق في يناير من ذلك العام عندما قرر أبي أن ننتقل لبلدة أخرى. وقد راق له هذا لأنه سيحل مشكلتي بشكل غير متعمد.

هكذا ابتعدت عن هذه المقبرة ولم أر فتاتي بعد هذا طويلاً، لكنني ظللت أحمل لها ذكرى لا يمكن نسيانها...

وبعد أعوام صرت ناضجًا وصممت على أن أعود إلى المقبرة لأبحث عنها. هذه الذكرى القوية المؤثرة. هل هي هلاوس طفولة فعلاً؟.. يجب أن أعرف..

آه.. أرجو أن تمنحوني لحظة لابتلاع قرص من المهدئ لأنسى...

عندما ظهر جلال الشريف نفسه حرص على أن يبدو وغدًا ثريًا بكل ما في الكلمة من معان.. كان يلبس بزة بدت لي رثه مزرية، وهذا هو الدرس الذي تعلمته منذ زمن: كل بزة تبدو لي رثة مزرية هي في الحقيقة فاخرة جدًا ولا أقدر على شراء زر من أزرارها.. لعل هذه هي أحدث موضة باريسية لهذا الأسبوع..

كان يحمل كأسًا في يده اليمنى وقد دس يده اليسرى في جيب السروال. بالتالي صار من المستحيل أن أصافحه. دنا مني والتمعت عيناه فظهرت أسنانه النضيدة البيضاء.. يمكن أن يصنع ثروة لو عمل كموديل لمعاجين الأسنان..

-"محمود بدران.. الكاتب الصحفي الجرئ"

بدا لي من الغريب أن يعرفني، وهذا يزيد الأمور حرجًا.. أنا جئت كمتفرج من بعيد وآمل ألا يلاحظ أحد وجودي هنا...

لو كان هذا الرجل يقرأ فهو يعرف ما كتبته عنه.. الحق إنني بذلت ما بوسعي كي أهدمه هدمًا، ونشرت عشرات الوثائق التي تدينه.. وثائق حقيقية يفضل اصحابها أن يبقوا في الظل..

وبعد أشهر من النشر المتواصل توصلت إلى أن هؤلاء القوم من أمثال جلال لا يسقطون أبدًا.. إذا أردت ان تتخلص من أحدهم فاذهب واقتن مسدسًا لكن لا تكتب مقالاً.. هذه الأشياء نسعدهم لو أنهم قرءوها أصلاً...

هززت رأسي باسمًا مجاملاً، فقال:

ـ"عادل أخبرني أنك هنا.. صدقني.. أنا أحب الصحافة جدًا... إنها مرآة المجتمع الحقيقية"

من جديد هززت رأسي.. فقال لشيرين:

ـ"أرجو أن تخبري هذا السيد أن ما يكتبه لن يمر في سلام للأبد.. هناك لحظة اكيدة يفقد فيها المرء أعصابه"

راق لي التحدي.. أحب الأشخاص الذين ينزلق لسانهم ويهينونك لأنهم يمنحونك فرصة لعمل شيء.. بينما أسلوبه السابق لا يمكن التعامل معه..

قلت وأنا انظر في عينيه:

ـ"أتمنى أن أعرف ما يعنيه هذا الكلام؟"

ابتلع ما بكأسه بسرعة، وقال وهو يهز خديه كأنما الشراب حريف

المذاق جدًا:

-"الحياة لعبة.. لعبة يجب أن تلعبها ببراعة، وعلى من لا يجيد
اللعب أن يبقوا في بيوتهم.."

وقبل أن أفهم هز رأسه من جديد محييًا وابتعد.. وعلى الفو
تكونت حوله دوامة من المريدين والمعجبين والسكرتارية
والحراس.. الخ...

كانت له رائحة عطر غريبة فعلاً... رائحة رحلت معه عندما
ابتعد... رائحة من تلك التي تشعر أنها رائحة شخصيته ذاته.

كانت رائحة الهواء قريبة من هذا في ذلك اليوم..

هكذا كنت أتشمم الهواء وأنا اتجه نحو القبر الذي أذكره..

كنت في الكلية في ذلك الوقت.. شابًا مفعمًا بالأحلام أقرب إلى
الوسامة، وكنت اعتقد أنني سأغير تاريخ الصحافة في مصر.
هيكل لا بأس به لكنه يستمد قوته من عبد الناصر، ومصطفى
امين اسهل مما يجب.....الخ.. غرور الشباب في صورته الكاملة
الشمس سوف تنحدر للغرب بعد قليل... لكنني تعلمت منا

طفولتي أن أشعر بالألفة مع المقابر ولا أهابها. هكذا رحت أبحث.. أخيرًا وجدت ذلك القبر الذي تناثرت جواره نباتات الصبار.. مقابر أسرة الجواهرجي.. المرحومة سديم فتحي.. توفيت يوم................

جلست جوار القبر...

كم جئت هنا في طفولتي وكم لعبت.. ترى هل حقًا كنت أهذي؟.. هل كنت طفلاً وحيدًا خلق خياله رفيق لعب كما يحدث كثيرًا جدًا؟..

لكني فعلاً أحبها.. أشتاقها.. عزيزتي سديم.. أنا أحبك أكثر من اي شيء، ولسوف تكون قسوة غير عادية أن أعرف أنك وهم، لكن للأسف....

هكذا غلبني البكاء.. جلست على صخرة ورحت أنشج.. أنشج من دون توقف.. وكلما أفقت قليلاً فطنت لحقيقة أنني أبكي.. من ثم أبكي أكثر.. بعبارة أخرى أنا أبكي لأنني أرثي لنفسي لأنني أبكي!

الشمس تنحدر للأفق.. المعجزة التي تحول كل الألوان التي عرفتها إلى

اللون الأرجواني. المعجزة التي تحول كل شيء إلى كآبة..

هنا شعرت باليد على كتفي..

قاسية جافة عظمية.. كانت هناك..

استدرت للخلف لولا أن سمعت الصوت الحازم الذي أعرفه جيدًا:

-"لا تنظر!"

قلت وأنا أرتجف انفعالاً:

-"سديم.. حبيبة قلبي.."

في لهجة عملية قالت:

-"قلت لك ألا تنظر.."

-"لماذا؟"

-"لأنك لن تحب ما تراه.. لقد مر زمن طويل.."

قلت وانا ابتلع دموعي:

-"إذن أنت حقيقية.. لم تكوني وهمًا من أوهام الصبا.."

-"الوهم شيء نسبي. وما يبدو للبعض وهمًا قد يكون الحقيقة

عند آخرين.. لو أن أحدًا رآنا لحسب أنك تكلم نفسك.. لكنك تدرك أنني موجودة.. تشم رائحتي.. يؤلمك كتفك من أناملي العظمية. إذن انا بالنسبة لك الحقيقة ذاتها"

-"هل يمكن أن أستدير؟"

-"لا.. لأنك تفقدني للأبد إن فعلت"

وهكذا جلسنا ربع ساعة في هذا الوقت.. أنا انظر أمامي أو ليدي وهي من خلفي تحدثني.. تحدثني عن ماذا؟. لا أذكر بالضبط لكني كنت سعيدًا منتشيًا.. سديم لم تكن وهمًا على الأقل بالنسبة لي..

ثم ظهر ذلك الكلب..

الكلب المسعور الشرس منتفش الشعر حول العنق، الذي يسيل اللعاب من شدقيه.. ولم يكن ينبح والنصيحة القديمة تخبرك أن الكلاب التي تنبح لا تعض...

كلب من كلاب المقابر يزحف في الظلمة الوليدة نحوي ويزوم...

هكذا انتفضت.. وثبت من حيث جلست برد فعل تلقائي، واستدرت لأكلم الفتاة الواقفة خلفي. هنا رأيت كل شيء وليتني ما فعلت....

من الخير للجميع أن تكون سديم وهمًا.....

❁❁❁

كلب آخر نبح في مكان ما فأجفلت..

كنت جالسًا مع شيرين في ركن شبه مظلم من الحفل، وبرغم أنني لم أشرب إلا عصيرًا فإن راسي كان ثقيلاً بصورة لا توصف..

كنت أراها بصعوبة واسمعها بعسر.. ولو لم ينبح هذا الكلب لربما سقط رأسي على المنضدة..

كانت الإضاءة خافتة مدوخة، ومن بعيد تلك المصابيح المعلقة فوق أعمدة أو تماثيل...

هنا خطر لي خاطر مضحك لكنه وارد جدًا:

-"هل دس لي هؤلاء القوم شيئًا فيما أشربه؟"

هل ينوي الرجل الخلاص مني؟... لا أعتقد.. إنها مجرد مقالات لم تؤذه ولم تسبب له أذى.. إلا إذا كان يملك نفسية طفل لا يطيق اعتراضًا واحدًا. أستبعد هذا فهو بارد ثابت الجنان..

ثم أن التخلص مني سوف يجلب له متاعب لا حصر لها.. هناك من يعرفون أنني هنا..

ماذا يدور هنا؟

أين ذهب عادل؟.. هو جاء بي هنا فمتى وكيف رحل؟

الحقيقة أخطر من هذا.. لا أرى أحدًا من مدعوي الحفل من حولي.. لقد رحل الجميع أو ابتعدوا. كيف حدث هذا ومتى وكيف لم أشعر به؟

الأغنية تتردد:

لو لم أرك عندما أريد.. فلسوف أراك عندما أستطيع..

لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكون على صواب

من الغبي الذي ترك جهاز التسجيل يعمل بينما لم يعد هناك أي شخص في الحفل؟.. لم يعد هناك سواي..

❦ ❦ ❦

أشعر ببرد.. برد شديد.. أنهض مترنحًا فأشعر أن الأرض تذوب تحت قدمي.. هناك الكثير من رغوة الصابون في كل مكان.. قدمي تنفتح كلما حاولت أن أقيمها...

مددت يدي لشيرين وقلت بصوت كأنه من قاع بئر:

"ساعديني ي.."

نهضت وابتعدت بضع خطوات للخلف لتكون نائية عني وقالت:

"اسمع.. بالفعل أنت تحت تأثير مخدر.. أنا دسسته لك في العصير.."

"والسبب؟"

ثم فطنت إلى أنه سؤال أبله.. أنا أكره الأسئلة الغبية.. لماذا يدس لي عدوي اللدود مخدرًا في شرابي ويتخلص من كل ضيوف الحفل؟.. فلتجب أنت.. لا شك أن ضيوف الحفل قد تلقوا أوامر صارمة بالرحيل أو نقلوهم لمرحلة أخرى من المرح بينما بقيت أنا...

أين الهاتف المحمول؟.. جربته من قبل فوجدت أن الشبكة لا تعمل هنا.. ولاشك أنهم يعرفون هذا...

قالت شيرين:

"أنا أكره ان أراك تموت، لكن جلال الشريف قد أعد لك نهاية دامية.. لا استطيع أن أساعدك فأنا أعمل عنده... هو يسمع كل ما أقوله لك الآن.. في الواقع هناك كاميرا تنقل له المشهد كاملاً.. هو قال لك إن الحياة لعبة وكان يعني ما يقول.."

الحياة لعبة.. وطبعًا يسهل ان تقول هذا لو كنت أنت الطرف الرابح.. لو كنت آمنًا تراقب ما يحدث وفي يدك كأس من الشراب..

"هل سيطلق النار على رأسي ويدفنني في الحديقة؟"

"لا.. لديه أفكار أفضل.. إنه يريد أن يراك مذعورًا تجاهد من

أجل حياتك.. لو استطعت النجاة حتى الفجر فأنت حر، وإن كان يعرف أنك لن تبلغ عما حدث لك، وإن لم تستطع فهذا حظك السيئ.."

كان عقلي ملبدًا بالغيوم.. أمرر كل ما يقال ثلاث أو أربع مرات حتى أفهمه، كأنها تلك الشرائط المشفرة على السلع التي يمررونها على جهاز قراءة السعر.. أحيانًا يفعلون ذلك ثلاث مرات..

كانت تقول:

"سوف أختفي أنا.. بعدها سوف يبدأ حفل الصيد.."

"صيد؟"

"صيدك طبعًا!"

***

كنت أجري مذعورًا في المقبرة شاعرًا بالذعر.. عارفًا أنني تجاوزت الخطوط الفاصلة بين العالمين، وإنني سأدفع الثمن من كوابيسي ما بقي لي من عمر.. ألم في كتفي حيث كانت تطبق يدها..

لقد تغيرت سديم.. تغيرت كثيرًا...

ننت أسمع صوتها يتردد في ذهني:

"أنا أحببتك.. ولم أحسب أنني سأفقدك بهذه البساطة.. محمود.. محمود"

كنت أردد: من الخير لسديم أن تكون وهمًا.. من الخير أن تكون وهمًا...

كنت الهث وأبكي والدمع يجعل الرؤية مستحيلة.. اتعثر في الحجارة.. في شواهد القبور.. منذ متى يضعون 60 شاهدًا على كل قبر؟.. ما كل هذا العدد؟...

كنت خائفًا..

ثم توقفت..

شعرت بالخجل من نفسي.. أنا لست طفلاً.. لن أتخلى عنها لمجرد هذا التغير البيولوجي في ملامحها. لقد أحببتها وأنا طفل، ولم تكن مثالاً للفتنة وقتها...

منذ صباي كنت أعشق (سديم).. ماذا قد تغير؟.. أنا أتصرف كمن تصاب حبيبته بحرق في وجهها فيتخلى عنها بكل قسوة...

هكذا توقفت وفكرت في أن أرجع. لكني شعرت بشيء غريب أمامي..

كان هناك... لا أعرف ما هو بالضبط لكنه كان يسد طريقي..
تبينت أطراف العباءة الرمادية الممزقة المليئة بالبقع.. الوجه الذي لا أريد أن أراه.. القامة العملاقة التي تتجاوز ثلاثة أمتار.. صوت التنفس العالي الشبيه بالخوار..

سمعت عنه كثيرًا لكني لم أره من قبل. الآن وهو يسد الطريق أمامي أدركت أنني في مأزق حقيقي.. كان هو الرهبة لو صار لها وجه وصوت..

تراجعت للخلف في رعب..

وفجأة سمعت صوت سديم يقول لي في حزم:

"قف خلفي!"

تراجعت للخلف ووقفت أرتجف وأنا أرقب صراع الإرادات في الظلام وفي ضوء القمر بين الاثنين.. الكلاب تنبح من بعيد.. النجوم تهوي في السماء، وهي تتقدمني وأنا أمشي خلفها.. تمر جوار الشيء وكأنها تقول له إنني في حمايتها..

كنت أرتجف كطفل بينما هي تحميني.. وبرغم هذا كله لم أنظر لها قط.. خشيت أن ألقي نظرة ثانية..

لو كانت سديم وهمًا فخوفي حقيقي..

***

كنت خائفًا بذات الدرجة وأنا أركض..

برد.. برد.. برد....بررر بررر..

أين ذهبت شيرين؟.. لا أعرف.. كأن الأرض ابتلعتها..

لا يجسر جلال على قتلي.. لماذا يفعل ذلك أصلاً وأنا مجرد كاتب؟.

لكنني سمعت عن نزوات هؤلاء القوم.. قد يفجر أحدهم رأسك لأنك انتقدت ربطة عنقه.. بالنسبة لهم نحن صراصير..

كنت أجري بلا هدف.. لا أعرف مما أهرب.. ما هو الخطر؟..

أنا في حديقة قصر شاسعة.. ظلام.. مصابيح في كل مكان.. تماثيل... أعتقد أن هناك كاميرات في كل مكان. هناك الكثير من الحراس طبعًا لكنه لا يريد أن يفسد متعته بسرعة..

الغريب أنني لا أعرف أين أجد سقفًا.. الحديقة مترامية لكن لابد من بناية أو شيء هنا أو هناك.. شيء أتوجه له..

لو كان تفكيري صافيًا لوجدت حلاً بسرعة، لكنني تحت تأثير مخدر كما قلت، وهذا ضاعف تأثير أنني أحلم..

لماذا اهتممت بجلال لهذا الحد؟.. حقًا لا أعرف السبب.. ربما
كان الحقد الطبقي وربما هو الشرف المفرط.. المهم ان هذا الرجل
كان يمثل كل ما أمقته في العالم.. وقد فعلت كل ما أستطيع لم
أدمره..

الآن أنا تحت رحمته تمامًا..

توقفت تحت مصباح في الحديقة وقلت لنفسي:

"يجب أن تفيق.. مشكلتك هي أنك لا تصدق أنه يمكن أن
يقتلك.. يجب أن تصدق هذا يا صاحبي.. إنه يملك النفوذ
والمال.. يمكن أن يدفنك في الحديقة ويأتي بعشرات الشهود
يقسمون أنه كان معهم ساعة الوفاة، وجيش من المحامين
يجعلون أسرتك تدفع ثمن الشك في رجل أعمال شريف مثل
جلال.. يجب أن تتماسك.. يجب أن تؤمن أنك في خطر داهم"

ظلام.. مصابيح في كل مكان.. تماثيل... نباح كلاب..

هنا تصلب شعر رأسي..

الكلاب!... هذه هي وسيلة القتل!

5 - سديم

برد.. برد.. برد.

من القسوة أن يموت المرء بينما البرد يلتهم أطرافه.. كنت آمل في ميتة مشمسة دافئة نوعًا...

نباح الكلاب من بعيد وأنا أركض مذعورًا..

❀ ❀ ❀

الكلاب لم تكن تنبح في تلك الليلة منذ أعوام، بل كانت تزوم.. وكانت سديم تتقدم المشهد.. الأسمال التي تلتف بها تتطاير في ضوء القمر الشاحب.. كانت تتقدمني بخطوات بطيئة. برغم كل شيء كانت فيها لمسة من فتاة صغيرة لعوب.. كأنها صورة ساحرة تم تشويهها وحرقها..

الكلاب كانت تحيط بنا في دوائر وهي تنبح.. ثم تتراجع للخلف دون أن تبعد عيونها وتنفتح الدائرة... سديم تصدر صوت هسيس غريبًا.. أعرف هذا لأنها تتقدمني لكن لا أنظر لها أبدًا.. أكتفي بالنظر إلى قدمي؛ لأني لو رفعت عيني لرأيت..

وكنت أعرف أن الكلاب تراها جيدًا.. أنا أراها جيدًا.. الناس لا

يرونها على الأرجح...

كانت تحكي لي عن أشياء....

عن الطفلة الساحرة سديم التي تلهو في حديقة الأسرة ليلاً..

عن الأب طيب القلب الذي يجلب لها لعبة قطار ودمية تتكلم..

ماما.. بابا.. عن الأم الرقيقة التي تتظاهر بالحزم أحيانًا...

عن الأخ الأصغر المزعج... عن الحياة الكاملة التي فرت من أناملها..

-"أنا أحبك يا محمود"

ولأنها تحبني تحميني من كل كلاب المقابر ذات الشعر المنتصب حول العنق.. تحميني من الزئير الغاضب الخفيض..

في ليلة أخرى هاجمني لص قرب المقبرة..كانت هناك يد قوية امتدت لتحيط عنقي من الخلف، وشعرت بالمعدن البارد تحت ذقني وسمعت صوتًا لاهثًا في أذني:

"نقودك بسرعة.."

سمعت صوت فحيح غريب أتى من مكان ما..

مددت يدي الراجفة في موضع الحافظة من سترتي، وحاولت أن

أخرج الحافظة لولا أن تخلت عني تلك القبضة.. ولما نظرت رأيت هذا الوغد مكومًا على الأرض.. لقد قتله الفحيح الغامض..

رأيت الخيال المميز لسديم في الظلام.. لا أعرف إن كان رآها أم لا لكنه بالتأكيد سمعها.. فهي صاحبة الفحيح... وكانت تقول:

"معذرة.. هذه من حيلنا المعروفة!

* * *

أخيرًا رأيت ثلاثة كلاب تركض نحوي في حديقة القصر الشاسعة.. كلاب جلال الشريف السوداء من طراز (روتوايلر) التي تبدو كالبلطجية الخارجين من السجن.. كتلة عضلات حية تركض نحوي.. لابد أن جلال هذا مجنون.. لن يستطيع أي حارس أن يسيطر عليها في الوقت المناسب..هذه عملية إعدام وليست تخويفًا.. رفعت يدي محتجًا كما كنا نفعل ونحن أطفال.. كأنني أقول: مش لاعب يا كابتن.. دي مش طريقة..

لابد من شجرة في مكان ما.. لكن لم أجد شجرة.. وجدت ثلاثة مقاعد تحت عمود إضاءة، فأمسكت بأحدها ورفعته.. إن القوة العضلية لهذه الوحوش تكفي لإطارة المقعد من يدي فورًا..

يجب أن أتماسك..

كلب رابع آت من بعيد..

وثب كلب باتجاهي فتراجعت لأجد أن الآخر ينهي ونه طاشت..

سقطت على الأرض وسقط المقعد من يدي، ولا أعرف كيف وجدت الإلهام...

الهسيس..

الهسيس الذي أطلقته سديم في تلك الليلة وجعل الكلاب تتراجع... إنني قادر على أن أفتعله بحنجرتي..

وعندما نهضت على قدمي فوجئت بأن الكلاب تتراجع.. لا تبعد عيونها عني لكنها تقف صفًا وتتراجع للخلف... هذه حيلة تعمل..

لم أنظر للخلف ورحت أركض.. لكنني كنت أعرف أنها لا تقتفي أثري.. أصوات أقدامها ثقيلة جدًا ولا يمكن ألا تسمعها فوق العشب الرطب..

توقفت ونزعت سترتي.. ألقيت بها بعيدًا وكذا فعلت مع ربطة عنقي..

الحذاء.. سوف أتخلص منه.. الجورب..

إن هناك أشياء كثيرة تحمل رائحتي في عدة مواضع.. وإن كنت فعلت هذا بسبب الحر وليس التضليل.. البرد الذي كان يقتلني تحول إلى حر يقتلني كذلك...

"توقف!"

ورأيت من بعيد حارسين يركضان نحوي.. عرفت الرأس الصلعاء والأناقة المفرطة في الظلام... لم يكونا مسلحين.. لماذا يحمل شخص بهذا الحجم سلاحًا؟.. رحت أركض وأنا أعرف أنهما يركضان خلفي، وكنت سريع الحركة لذا عرفت أنني سأتعبهما قليلاً.. من بعيد أرى حمام السباحة العملاق يسبح في الأضواء وتطفو فوق مياهه البالونات الملونة من بقايا الحفل...

"الفحيح يا محمود.. جرب الفحيح!!"

أي فحيح؟.. ثم تذكرت... اللص يلف ذراعه حول عنقي وسديم تطلق ذلك الصوت الغريب.. معذرة.. هذه من حيلنا المعروفة!...

أطلقت الفحيح.. وللحظة تصلب الرجلان وهما يراقبان ما أفعل... لا يفهمان سر هذا الخبال الذي أصابني فجأة... ثم

بلغت التردد الصحيح والنغمة الصحيحة.. عندها رأيت ا..

أرجلهما تتخاذل..

يسقطان.. لكنهما ينهضان ثانية وقد أمسك كل منهما برأسه..

ليست حيلة ناجحة جدًا....

ومن بعيد أرى المزيد من الرجال قادمين.. معهم كلاب.. وقفت حيث أنا وقد أدركت أن المزاح انتهى على الأرجح. وسط الرجال كان أحدهم يتقدم في ثبات وهو يضع يديه في جيبيه.. مثالاً للسيطرة وقوة الشخصية..

كان هو جلال ذاته..

كانت عيناه تلمعان..

هكذا كانت عيناه تلمعان بعد انتهاء الحفل..

سديم الصغيرة الجميلة تركض في حديقة دارها.. الكل بالداخل يمرحون، وعمو جلال الشاب يمشي وسط الأشجار.. هناك تعريفات كثيرة للنجاح لكن من بينها أن يكون عندك قصر مثل هذا.. ستعرف أنك قد بلغت القمة.. ستعرف أنك لا تملك أرزاق

الناس لكن تملك حياتهم كذلك...

هنا يرى الغزال الرقيق الطفل يجري.. وحده..

ينظر لها بعض الوقت ثم يناديها.. سديم..

"عمو جلال.."

ثم رأت عينيه...

كانت عيناه تلمعان بذات البريق.. كان يريدها...

سديم تصرخ وتركض في الحديقة خائفة.. سديم تنادي أباها.. جلال يحاول اللحاق بها.. يا لك من حمقاء.. سوف يجذب صراخك الجميع...

في النهاية تمكن منها.. وضع يده على فمها.. نظر حوله.. لن تخرس أبدًا.. لن تخرس.. لماذا يا سديم؟.. ترين أنني ضحية.. حتى عندما ألقيت بك في حمام السباحة البارد ورحت اضغط رأسك تحت مستوى الماء كنت أنا ضحية.. أنت جعلتني أفعل ذلك..

لقد صرت جثة طافية يا سديم.. أنا آسف.. الغلطة غلطتك...

البقاء لله يا فتحي بيه.. كلنا سنلقى النهاية ذاتها...لو أردت أي شيء اتصل بي.. هل حقًا تريد بيع هذا القصر؟.. سأجد لك

زبونًا مناسبًا..

تماسك.. تماسك..

***

-" تماسك يا أستاذ محمود.. أنت رجل ناضج.. سوف نتفاهم"

ثم أخرج سيجارًا وأشعله ليبدو وغدًا.. نفث الدخان بكثافة بينما الرجال يحيطون بي..

تراجع بظهره قليلاً ليصير بيني وبين حوض السباحة حيث تسبح البالونات. فجأة حدث كل شيء..

فجأة انشق الماء ليخرج هذا الشيء المبتل.. الشيء الملفوف في أكفان.. شيء أعرفه جيدًا.. فجأة التفت الذراع حول جلال..

فجأة جرته الذراع إلى حمام السباحة...

صرخ في هلع.. لكن الحقيقة أن كل شيء تم بسرعة إلى درجة أن الرجال لم يتحركوا.. ظلوا يراقبون المشهد في رعب.. حتى الكلاب تراجعت للخلف بلا صوت...

الماء انتثر... الماء يفور... جلال يصرخ كأن تمساحًا يمسك به بين فكيه..

في النهاية ساد السكون.....

وعندما ساد السكون بدا الرجال كأنهم جنود مات قائدهم ولم يعودوا على استعداد للقتال لحظة واحدة أخرى... ومن بعيد جاءت الفتاة شيرين وكانت تبكي.. لقد انتهت المسرحية نهاية دامية حقًا..

***

أحبك يا سديم..

وأنت تحبينني حقًا..

هناك أجزاء فهمتها وأجزاء لم أفهمها بعد. مثلاً فهمت لماذا بدأت أهتم بجلال وأكتب عنه.. أنت أوحيت لي بذلك.. كان هذا هو الانتقام. لكن ما لم أفهمه بعد هو هل كان هذا القصر هو قصر أبويك فعلاً؟.. لم أستطع التأكد من هذه النقطة، ولم أعرف إن كان هذا هو حمام السباحة الذي مت فيه أم لا.. لقد استطاع جلال أن يخفي التاريخ القديم لهذا القصر..لكن لو كان هذا هو القصر ذاته فأعصاب الرجل قوية جدًا، دعك من أنني لا أفهم لماذا تركته كل هذه الأعوام واخترت الليلة.. ما لم يكن خوفك

علي جعلك تفعلين ما لم تعتادي فعله، وتعبرين الحدود المحرمة بين العالمين..

لماذا لم تساعديني وأنا في الحديقة؟.. يبدو أن سبب هذا هو أنك مرتبطة بمياه حمام السباحة فقط، على أن ما تعلمته منك أفادني كثيرًا..

الحراس لم يفهموا شيئًا ولم يروا ما حدث جيدًا.. قالوا إن جلال بيه أصابه الهلع فجأة وسقط في حمام السباحة...قد أكون أنا محقًا وتكونين أنت من فعل هذا، وقد يكونون هم محقين وأنا مخرف كبير..

ما أعرفه يقينًا هو أنك لي وأنني احبك..

يومًا ما سيتم اللقاء النهائي بيننا وتتحطم كل الحواجز..

يومها هل ستعرفين وجهي؟.. هل ستتذكرين اسمي؟ هل ستعنين بي في رحلتنا المرعبة عبر الظلمات، كما فعلت بياتريس مع دانتي في (الكوميديا المقدسة)؟..

سوف نرى.. سوف نرى..



مع الوقت كان يدرك أكثر فأكثر أنه في مأزق.. هذه الشقة ليست على ما يرام، والأسـوأ من هـذه الشقة هـذه اللوحة المائية التي لا تكف عن التغير..

هل اللوحة تتغير فعلاً ؟.. ربما يخيل له ذلك.. ربما كانت اللوحة تعبيرًا عن حالته النفسية لا أكثر. هذا وارد..

هناك غرفة الصالون.. كل شـيء يقول إن اللوحة تحذره من دخولها، وهذا سبب كاف كي يجرب حظه. سوف يتوكل على الله ويأخذ نفسًا عميقًا ويتجه إلى هناك.

عندما كان محمود ينظر للوحة رسمها فان جوخ بتلك الطريقة النقطية والخطوط الملتفة الدوامية، كان يشعر بأن جوخ رسمها وهو يمر بحالة صرع متقدمة. الجديد هو أن حالة الصرع هذه صارت قابلة للانتقال عبر الأجيال والأزمنة. صار محمود يشعر بأن الصرع يداهمه هو الآخر كلما أمعن النظر في هذه اللوحة، وفيما بعد رأى الجنرال النازي الذي يصاب بالصرع عندما يرى لوحات فان جوخ، في فيلم (ليلة الجنرالات).. فهم المشهد على الفور برغم أن أمه لم تفهمه وكانت تشاهد التلفزيون معه.

المرض النفسي ينتقل بالفيروسات والبكتريا كأي مرض آخر. حقيقة ليست علمية ولا يرضى عنها أي طبيب، لكنها عملية لو شئت الدقة. الجنون معد والعصاب معد والهستيريا معدية.

ضع نفسك في ذلك المصعد الضيق المعطل جوار تلك السيدة الهستيرية التي لا تكف عن الصراخ موشكة على الاختناق.. بعد دقائق سوف تنقل لك فيروسات الهستيريا.. بعد دقيقة أنت هستيري مثلها ومعد.. أنت تصرخ وتوشك على الاختناق..

يؤمن محمود إذن أن فيروسات الصرع انتقلت عبر الأزمان.. ومن خلال خطوط فان جوخ لتصيب بالعدوى كل من يقف

أمام هذه اللوحات الرائعة..

هذا ما عرفه محمود.. وهذا ما نسى أنه يعرفه..

***

عندما ماتت خالة محمود، كان عليه أن يذهب لدارها لينتقي الأشياء التي سوف يتخلصون منها. عندما يموت المرء بلا ولد ولا زوج فإن ممتلكاته مشاع. ثمة جو من الانتهاك في هذا كله، مع لمسة مؤسية.

أعطته أمه المفتاح الذي تحتفظ به، وطلبت منه أن يبحث جيدًا ويقرأ الفاتحة لخالته. وراحت تنهنه على سبيل أداء الواجب نحو ضميرها.

كان محمود محاسبًا شابًا في الخامسة والثلاثين، لا يكاد يعمل ولا يكاد يكسب مالاً. وكان يأمل لو كانت خالته قد تركت له مالاً.. أي مال.. لكن من الواضح أن ميراثه الوحيد هو تلك (الكراكيب) في شقتها.. الكراكيب التي لا يريدها أي واحد آخر..

قرأ الفاتحة في سره وهو يولج المفتاح في باب الشقة..

الظلام. رائحة الموت والهواء الحبيس الذي سره أن يجد شخصًا يتبادل

معه الكلام (أو الصمت). اتجه للنوافذ ففتحها.. ونظر حوله..

لقد تكاثف الغبار على منضدة الطعام.. على المقاعد. على الأطباق التي تركها آخر من كان في الشقة حيث هي. لقد كان يلعب في هذا الركن، وفي هذا الركن هشم كوبًا وتلقى علقة ممتازة.. هنا كانت خالته تلاحقه. شابة جميلة مليئة بالحيوية..

تنهد وقرر أن يقوم بمهمته الصعبة بسرعة..

أولاً عليه أن يتخلص من هذا الخوف الطفولي.. هو وحده في شقة امرأة متوفاة.. امرأة متوفاة لم يعرف أحد سبب وفاتها قط، وقيل إن جثتها متخشبة بطريقة غير معتادة.. امرأة عاشت معظم حياتها وحيدة إلا أنها كانت تربي ابن قريبة لها لأنها لا تنجب.. لما توفي الزوج كان عمر الصبي عشرة أعوام، وقد ظلت تربيه كأنه ابنها حتى؟....

حتى فر من البيت ولم يسمع عنه أحد شيئًا بعد هذا..

عندما تمشي وحيدًا في شقة امرأة متوفاة لها هذا التاريخ، فأنت غير ملوم.. غير ملوم لو توقعت أن تقابلها أو تخرج لك من غرفة النوم لتقول شيئًا.. أو تطل برأسها من المطبخ وتنظر لك بحدة..

تبًا.. هذه الخواطر لا تزيده شجاعة كما هو واضح..

قال لنفسه: خالتي تحبني. خالتي لن تؤذيني حتى وهي في صورة شبح..

هنا تحرك شيء في المطبخ فانتصب شعر رأسه وراح قلبه يخفق بلا توقف..

تماسك يا أحمق.. أنت في الخامسة والثلاثين لكن قلبك واهن، وأنت تعرف هذا. يمكن أن يتخلى عنك بسهولة.. لن تموت بهذه البساطة لمجرد أنك جبان وأن فأرًا تحرك في المطبخ..

هرع للمطبخ وأضاء النور الكهربي. وجد مكنسة لم تمس منذ وفاة خالته.. أطبق عليها أنامله وراح ينظر حوله. هنا رأى ذلك القارض اللعين يفر من فوق النملية العتيقة، فينحدر للأرض ويغادر المطبخ مسرعًا..

لم يكن محمود يخشى الفئران.. لذا أراحه أن يرى هذا القارض الصغير.. شيء طبيعي على الأقل..

هنا رأى درجات السلم الخشبي.. السلم الذي يستند إلى الجدار ويستند أعلاه إلى صندرة مفتوحة أو (علية).. لابد أن هذا الأخ

المغطى بالفراء جاء منها. نظر محمود حوله فرأى مصباحًا صغيرًا يعمل بالكحول أقرب إلى (وناسة) صغيرة على رف النملية أشعل عود ثقاب وحاول أن يوقد الفتيل فاستجاب..

توكل على الله وتسلق السلم وهو يحمل الوناسة في يد ويتمسك بيد..

لا تسقط فتحطم ساقك.. لا أحد يعرف أنك هنا.. حتى أمك لا تعرف أنك اخترت اليوم للقيام بهذه المهمة..

على باب الصندرة راح يتشمم رائحة الغبار والعطن.. ثم تمسك بحافة الباب ودلف إلى الداخل..

الظلام دامس لكن الوناسة تصنع بقعة ضوء لا بأس بها..

انحن.. انحن... خيوط العناكب تلتصق بشعرك.. كثيرة وسميكة حتى يبدو أن هناك عنكبوتًا عملاقًا من أفلام الخيال العلمي في مكان ما..

ماذا يوجد هنا؟.. هنا فونوغراف قديم.. هنا حقائب مليئة ببذلات مغبرة عتيقة.. هنا مرايا مهشمة.. هنا ألبومات صور عتيقة امتلأت بصور بنية خشنة على طريقة (سفوماتو) وبالطبع تحتاج إلى عمر آخر كي تراها جميعًا.. لن ترى سوى كمية طرابيش

هائلة على كل حال.. سبحان الله..نفس المكان دائمًا وفيه نفس الأشياء.. لا شيء يتغير..

لكن عينيه توقفتا على أشياء على الجدار..

دنا بالضوء من الجدار.. هناك الكثير من الغبار، لكنه يرى لوحة.. لوحة رسمت بألوان الماء (أكواريل). لا يميز ما فيها لكنه يحبها..

هل يوجد شيء آخر؟.. آنية.. صناديق فيها حلي... بالطبع ليس له أن يأمل أن يجد جوهرة منسية تغير حياته للأبد.. الحلي زائفة طبعًا لكنه سيجمعها في كيس.. ربما وجدت أمه في بعضها ذكريات حميمة..

من جديد عاد ينظر للوحة..

يجب أن يرى ما فيها..

لكن لينزل من الصندرة أولاً ويراها في ضوء مناسب..

هكذا تناول اللوحة من على الجدار وألقى على الصندرة نظرة قبل أخيرة.. سوف يعود لكن بعد ما يفرغ من البحث في الشقة..

يا لخيوط العناكب!

كانت تلتصق بثيابه وشعره.. كان الغبار يغطي حاجبيه وأهدابه،..
عرف هذا عندما رمش بعينيه فصارت الدنيا كلها بلون التراب..

راح يسعل.. وبصق عدة مرات غير مبال بأن الأرض اتسخت
البصقة مع كل هذا التراب تنظف مكانها!...

هكذا جلس في الصالة على الأريكة المتسخة وراح يحاول تأمل
اللوحة في الضوء القادم من الشارع..

كانت في إطار.. وكان الزجاج مهشمًا متسخًا.. حاول أن يمسحه
بخرقة عدة مرات. في النهاية أدرك أنه يرى رسمًا بألوان الماء
(أكواريل) متوسط المستوى.. رسمًا من الطراز الذي يميز من لم
يؤتوا موهبة شامخة، لكنهم قادرون على استخدام أيديهم جيدًا..
كان هناك واد يتلوى.. وكان هناك بيت من طوب.. وكانت
هناك فتاة حسناء تطل من نافذة في برج في أعلى البيت.. صورة
رأى مثلها كثيرًا خاصة ما يمثل الحسناء الألمانية طويلة الشعر
(رابونزيل)... أما شكل الوادي وشكل البيت فيدلان على أن
من رسم الصورة لم ير أي واد من قبل.. هو يرسم ما انطبع
بشكل طفولي في خياله.

نظر للتوقيع فرأى اسم (حسام).. حسام هو الصبي الذي كانت خالته تربيه..

لبس الرسم سيئًا بالنسبة لصبي في الرابعة عشرة أو أقل.

لكن ما أثار دهشته هو أن الصورة شدته لها بقوة لا توصف.. الرسم ساذج أو هو - على الأقل - لا يوحي باحترافية من أي نوع، وبرغم هذا هو يشعر بلذة ما ذات طابع غريب آثم كلما نظر له. هناك ذكريات معينة مبهمة يدغدغها فيه النظر لهذا الوادي.. النظر لهذا البرج.. كأنه يذكرك بأشياء عشتها في زمن ما في مكان ما..

جفف محمود العرق على جبينه..

شعر بأن يده ترتجف بلا توقف.. خطر له أن العرض الذي يعرفه قد انتقل له. الصبي لم يكن على ما يرام عقليًا.. هذا واضح. وقد نقل فيروسات الاضطراب النفسي للرسم بلا شك.. الفيروسات أصابت صاحبنا..

وضع اللوحة على المنضدة وقرر أن يأخذها معه للبيت متى فرغ من مهمته..

الآن يجب أن يبدأ.. هناك أشياء عديدة صالحة للتخلص منها.

سوف يضعها جميعًا في كومة في الصالة بانتظار العودة مع حمالين
وسيارة نقل..

تسلق للصندرة عدة مرات وجلب الكثير من الأسطوانات
العتيقة والحلي الزائفة والثياب المتسخة.. لم يعد التنفيض يجدي
مع حالة ثيابه وشعره، بل يجب أن ينزع ثيابه على باب الدار
ويتخلص منها..

ثمة أشياء مسلية فعلاً.. هناك لعبة تمثل كلبًا خشبيًا لو ضغطت
على قاعدته أقعى على يديه وراح يحرك ذيله أو أذنيه. كانت عنده
يومًا ما وضاعت ولعلها ذات اللعبة...

لو كان هنا شاي أو إمكانية صنعه لكانت الساعات القادمة مسلية..

قرر أن ينزل بعد قليلا إلى المقهى المجاور ويشرب شايًا وربما حجرًا
من الدخان.. لكن ليس الآن.. فيما بعد عندما يشعر بالإنجاز..

راح يدندن بصوت عال وهو يكمل البحث:

ـ"هيلا هوب هيلا... صلح قلوعك يا ريس..."

مجلات ميكي القديمة.. بالتأكيد لا تخص خالته ولا تخص الصبي..
هو يذكر هذه المجلات ويذكر غلافها وربما القصص فيها.. كانت

له.. نسيها هنا يومًا ما بعد ما فرغ من القراءة، ولم ترحمها الخالة.. امتدت يد آلة النسيان لها فألقتها في الصندرة..

ما أجملها وما أعذب الذكريات برغم كل هذا الغبار.. ربما بفضل كل هذا الغبار...

سوف يأخذ هذه المجلات معه في رحلة العودة للبيت..

وابتسم في سخرية... لم تترك له خالته سوى الذكريات العذبة، لكنها لم تترك له مليمًا.. هو قد سئم الانتظار وسئم العواطف.. يريد أن يتحرك..

ريهام.. ريهام كانت هي المختارة وكانت هي الواعدة.. كانت تحمل الوسادة الأبدية الكونية التي سيريح عليها رأسه المنهك... لكنه كان مفلسًا تقريبًا ولم يستطع شراء الوسادة ولو بالأجل.. وهكذا توارت ريهام..

إنه قد تقدم في العمر.. للأسف ليست سنًا مناسبة للبدء.. كان عليه أن يبدأ قبل الثلاثين، واليوم لم يعد من أمل سوى أن يجد تلك الزكيبة المليئة بالماس في درج خالته ويبيعها.. طبعًا لا توجد زكيبة كهذه وهذا معناه أنه لن يظفر هنا سوى ببعض الذكريات..

صداع... هل حان وقت الشاي؟

مر من أمام اللوحة من جديد.. وألقى نظرة أخرى...

هنا رأى شيئًا لم يتبينه في اللحظة الأولى. كان شيء قادمًا في الأفق البعيد.. شيء لا تستطيع تبين معالمه لكنه لا يبدو بشريًا.. تذكر صورة مماثلة في كتاب أطفال قديم لزوجة ذي اللحية الزرقاء وهي واقفة في البرج تستغيث.. السبب طبعًا أن ذا اللحية الزرقاء ينتظر نزولها من البرج ليذبحها..

الفتاة في الصورة تلوح بذراعيها في رعب..

هل كان هذا كله موجودًا؟.. بالتأكيد كان موجودًا لكنه يشعر بأنه يراه لأول مرة.. غريب حقًا ما يحدث لقدرتنا على الملاحظة أحيانًا، ولعل أغنية شادية الرائعة (دور عليه تلقاه.. يا اللي عنيك شايفاه وبرضه بتدور) تلخص الموقف فعلاً..

الباب يدق.. هل هو يتخيل أم أن هذا صحيح؟

خرج إلى الصالة وقلبه يتواثب في صدره.. قلبه واهن ولا يحب المفاجآت..

وقف خلف الباب واستمع جيدًا ثم مد يده للمزلاج وأزاحه..

ادار المقبض وهو يتوقع أن يرى وجه البواب أو وجه الكواء أو...

لا شيء من هذا..

السبب أن الباب لم ينفتح. حاول عدة مرات بلا جدوى وأدرك أن الباب ملتصق أو محشور.. قال بصوت عال وهو يدق الباب:

ـ "الباب مغلق.. ادفع من ناحيتك"

سمع صوتًا مكتومًا... ربما هو أقرب لزئير أو سعال مكبوت.. وشعر أن هناك من يدفع بلا جدوى..

لابد أن لسان كالون (اللاتش) تهشم بالداخل. معنى هذا أنه حبيس الشقة، لكن لا مشكلة.. بوسعه دائمًا أن يحطم الباب بكتفه أو ينادي البواب من النافذة ليفتح له. عليه الآن أن يواصل عمله.. لماذا لم يحضر الهاتف الجوال معه؟

متضايق هو لأن مهمة شرب الشاي والتدخين صارت صعبة فعلاً..

عاد لداخل الشقة وهو يفكر: من كان القادم؟.. لماذا لم يتواصل معه؟

هذه الجالسة في الضوء الخافت قرب باب غرفة النوم. هي خالته طبعًا.. هذا واضح وكان يتوقع شيئًا كهذا منذ جاء هنا..

سيدة مسنة بقميص نوم رث ذات شعر أشيب مشتعل حول

رأسها.. تجلس هناك على حافة أريكة وتنظر له...

خالتي.. كنت أعرف أنك قادمة لي..

هل تذكرين من أنا أم أن القبر جعلك تنسينني؟.. لو كنت نسيت فأنا في ورطة حقيقية..

مشى نحو الشبح الجالس وقلبه يتواثب في ضلوعه..

لكن شيئًا كان يخبره أن العجوز لن تؤذيه.. لن تفعل..كانت تحبه فعلاً، وعلى الأرجح لن تفعل سوى أن تشكو له، أو تصارحه بشيء يعذبها..

⁂

وقف على بعد خطوات منها ونبضه يتسارع..

لا تفكر في الموقف الآن.. لا تحاول تبين أبعاد الواقعة الغريبة..

لو أدركت فجأة أنك تقف أمام شبح فسوف تجن، كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة.. توم يمشي فوق الهاوية في ثقة ويسر، فإذا نظر لأسفل واكتشف فجأة أنه يمشي فوق الهاوية صرخ وسقط من علٍ..

أنت لا تخاطب شبحًا.. هذا الواقف أمامك ليس شبحًا... لا

تعتقد هذا..

كانت تنظر له، وإن ظل وجهها في الظل.. هذا التأثير الشهير.. ربما هي تنظر للجهة الأخرى.. لن يتبين الفارق لأن (وضع ثلاثة أرباع) الأمامي والخلفي يتساويان في الظل..

فجأة بدأت شجاعته تتخلى عنه.. بدأ يتراجع مبتعدًا عن غرفة النوم.

وقف في وسط الصالة محاولاً ألا يبعد عينه عن الشبح الجالس هناك.. محاولة إبعاد عينه في حد ذاتها جعلت عينه تذهب هنا وهناك....

هنا وقعت عينه على اللوحة..

لابد أن هناك شيئًا غريبًا أو قد تعاطى مخدرًا ما.. لقد تغيرت الصورة أكثر.. الشيء القادم في الأفق صار الآن يملأ اللوحة تقريبًا وهو ينظر لأعلى نحو الفتاة الواقفة في البرج. كان شيئًا مشعرًا غامضًا يشبه تلك الصور البلهاء التي يرسمها من يزعمون انهم رأوا الساسكواش في أمريكا الشمالية.. بالتأكيد هو مخيف.. لا شك في هذا....

كان باب البيت في اللوحة مفتوحًا، وأدرك أن هناك جزءًا من منضدة عليها شرشف أحمر يبرز من وراء الباب.. كل شيء في

اللوحة يدل على أن الساسكواش سوف يدخل من هذا الباب بعد لحظات..

رفع محمود عينه..

هنا وجد أن السيدة الجالسة قرب غرفة النوم ليست هناك.. لقد رحلت كما هو واضح.. رحلت أين؟.. إلى مكان آخر في نفس المكان.. إلى موضع آخر في ذات الموضع..

أدرك أن باب غرفة النوم موارب.. الضوء الخافت يتسلل إلى هناك.. يرى منضدة عليها شرشف أحمر يبرز طرفها هناك. منضدة في غرفة نوم؟.. غريب هذا..

اتجه للباب ووقف للحظة عنده يتشمم الهواء.. ثم أزاحه ببطء.

هناك مصباح.. أضاءه واستطاع أن يرى الغرفة بشكل أوضح.. هناك فراش تم رفع حاشيته.. حاشية مقلوبة بتلك الطريقة التي تميز أسرة المستشفيات عندما يموت المرضى.. وهناك منضدة أحضرها أحدهم للغرفة ومن الواضح أنها لم تكن تنتمي لهذا المكان... هناك خزانة ثياب مفتوحة.. ثياب رثة ملقاة هنا وهناك، منها ثياب لا تخص خالته بالتأكيد.. هذه ثياب شاب

مراهق بالتأكيد.. ثياب حسام...

يجب تفتيش خزانة الثياب بعناية.. تلك الأدراج الخفية التي تحوي ثروة من المجوهرات.. هي هناك دومًا في الأفلام، فماذا عنها هنا؟

هكذا راح يعبث في الخزانة.. ثم انحنى وراح يفتش تحت الفراش،،

نهض وجفف العرق على جبينه و..

شيء تحرك في الصالة.. لا شك في هذا..

ليس شيئًا بالضبط.. بل هو (أحد).. له طول وعرض وارتفاع (أحد).. هو ليس في الشقة وحده..

هناك عصا غليظة يبدو أنها كانت تخص خالته.. وجدها مستندة إلى الكومود فهرع يمسكها.. لا بأس.. لها ثقل وطاقة وضع تغري بأن تتحول لطاقة حركة.. سلاح لا بأس به..

وقف يستجمع شجاعته خلف إطار الباب للحظة، ثم هرع خارجًا من الغرفة..

لا أحد في الصالة.. هذه الشقة تعبث معه وعبثها مرهق

للأعصاب فعلاً..

هناك أشياء تتحرك وأشباح ولوحة.. ماذا عن تلك اللوحة اللعينة؟

ألقى نظرة على اللوحة من جديد فأثار ذهوله أنها تغيرت من جديد..

هذه المرة كانت الفتاة الحسناء تقف متصلبة خلف باب غرفة، وهي تحبس أنفاسها كما هو واضح وتحاول أن تلتصق بإطار الباب.. في يدها عصا عملاقة. في الخلفية هناك قاعة خافتة الإضاءة يمشي فيها ذلك الساسكواش.. واضح تمامًا أنه يفتش عنها وأنه لن يستغرق وقتًا طويلاً حتى يجدها.. سوف يرى هذا الباب ويدلف منه وعندها.........

فجأة قف الشعر على رأسه..

ما هذه اللوحة وما قصتها بالضبط؟

منذ قليل رأى أن الوحش يقف أمام غرفة فيها منضدة عليها شرشف أحمر.. نفس ما رآه في غرفة النوم، وفي الوقت ذاته مر شيء ما أمام الغرفة.. فهل كان الوحش؟

مشهد الفتاة التي تقف متصلبة وراء الباب والعصا في يدها.. ألم يكن في ذات الوضع منذ خمس دقائق؟

اللوحة اللعينة تعبث به.. هذا واضح..

نظر للوحة من جديد.. ليته يستطيع أن يلاحق التغيير، لكن هذا مستحيل.. لابد أن يأتي التغيير في لحظة لا يراه فيها أو تبتعد عيناه.. هذه المرة يرى الساسكواش غاضبًا وغضبه مجنون.. إنه يمزق أشلاء الفتاة والدم يتناثر في كل مكان.. لابد أنه دخل الغرفة ووجدها...التنفيذ ساذج واللوحة نفسها بلهاء، لكنها برغم هذا دموية مخيفة توحي بجنون راسمها..

لن أنتظر لحظة أخرى في هذا البيت المجنون..

هرع إلى النافذة الموصدة وعالج الكالون ليفتحها.. يرى الشارع الآن ويرى السيارات ويشم الهواء ويشعر أنه أفضل حالاً..

ـ"باسيونيه!!"

ينادي البواب بسيوني بأعلى صوته.. لكن لا رد..

ـ"باسيونيه!!"

بنغمة أعلى.. لا جدوى. هناك ضوضاء في الشارع على كل حال. وجد كوبًا متربًا على مائدة الطعام فالتقطه وقذفه من النافذة ليتهشم على الإفريز.. لو لم يسمع بسيوني هذا الصوت فهو أصم

والمشكلة كبيرة..

ثم نظر للخلف فأدرك أن غرفة الصالون الداخلية مضاءة..

متى؟؟؟

هو لم يدخلها ولم يلمس مفتاح النور فيها.. خالتي.. لا تعبثي معي أرجوك.. أنا خائف وقلبي ضعيف.. تعلمين هذا جيدًا...

عندما عبر الصالة ألقى نظرة أخرى على اللوحة فوجد أن ألوانها ذابت لتصنع مشهدًا جديدًا.. هذه المرة كانت الصورة معكوسة.. الساسكواش يقف وعلى وجهه ضحكة شيطانية والدم يسيل من ركن فيه، وهو يلتصق بإطار باب غرفة بها قطع أثاث مغطى.. ما بدا منه مكسو بالأويما.. في الصالة خافتة الإضاءة ترى الحسناء تمشي وهي لا تعرف ما ينتظرها وراء باب تلك الغرفة بالذات..

أويما؟... صالون؟

لو صدق محمود اللوحة الظالمة لقال إنها تنذره من دخول الصالون. الشيء ينتظر هناك يا أحمق..

ماذا يفعل؟.. سوف يظل هنا وينادي البواب حتى يشاء الله...

لكن.. كيف يثق بأن يعطي ظهره لهذه الصالة الملغومة ويصرخ

باتجاه الشارع؟... لماذا ماتت خالته؟.. ما الذي رأته بالضبط وجعلها تلفظ أنفاسها متخشبة؟

***

ـ"باسيونيه!!"

هكذا راح يكرر النداء من النافذة.

مع الوقت كان يدرك أكثر فأكثر أنه في مأزق.. هذه الشقة ليست على ما يرام، والأسوأ من هذه الشقة هذه اللوحة المائية التي لا تكف عن التغير..

هل اللوحة تتغير فعلاً؟.. ربما يخيل له ذلك.. ربما كانت اللوحة تعبيرًا عن حالته النفسية لا أكثر. هذا وارد..

هناك غرفة الصالون.. كل شيء يقول إن اللوحة تحذره من دخولها، وهذا سبب كاف كي يجرب حظه. سوف يتوكل على الله ويأخذ نفسًا عميقًا ويتجه إلى هناك.

لقد رأيت الحسناء تمشي في الصالة غافلة بينما الوحش ينتظرها في الصالون. ماذا لو كنت انت الفتاة؟.. ربما أنت الوحش؟

مد عنقه ليبقي نظرة داخل الغرفة المضاءة.. تبًا لمصابيح

الفلورسنت هذه.. الغرفة أمامه بالفعل ورائحتها هي رائحة الموت. رائحة الغبار.. دعك من الأثاث المغطى بالقماش بتلك الطريقة الكئيبة التي تذكرك بالأماكن المهجورة..

لا يوجد شيء.. هناك نافذة موصدة بعناية وعليها ستائر متسخة لا يمكن معرفة لونها القديم..

هذه هي الغرفة التي وجدوها ميتة فيها. كالعادة هناك خادمة ما تأتي ثلاثة أيام في الأسبوع لتنظف الشقة وتبتاع الخضر. وكالعادة تصل هذه الخادمة فلا يفتح لها أحد الباب، ثم بعد محاولات جهيدة تجد نسخة من المفتاح لدى البواب.. تفتح الشقة.. في غرفة الصالون تجد الخالة على الأرض متخشبة وقد فتحت فاها في صرخة صامتة.. الطبيب الشرعي قال إن الوفاة حدثت منذ زمن، وكان على التصلب الرمي أن يزول.. هذا لغز غير مفهوم....

ما الذي وجدته السيدة في غرفة الصالون أو ما الذي حدث لها فجعلها تصرخ؟.. لماذا تخشبت؟..

تبًا!.. هذه الأفكار سوف تدفعك للجنون فعلاً... قرأ ذات مرة قصة لهـ. ج. ويلز عن الرجل الذي بات ليلة كاملة في الغرفة

الحمراء، فكاد خياله يقتله.. وفي الصباح أدرك أن الغرفة مسكونة فعلاً.. مسكونة بالخوف ذاته..

هذه الشقة مسكونة بالخوف هي الأخرى في كل ركن..

ما الذي وجدته السيدة؟

أزاح الغطاء قليلاً عن قطع الأثاث. لم تكن كلها من طراز الصالون المزدان بالأويما. هناك أريكة عريضة قبيحة الشكل لكنها عملية جدًا. لدى محمود أريكة كهذه في بيته ويعرف أنها تستخدم كأريكة وكفراش.. وعندما تفتح فأنها تكون صندوقًا للخزين كذلك..

أشياء كهذه قد تفوت رجال الشرطة الذين لم يأتوا ليفتشوا الشقة أو يحققوا في جريمة قتل. لقد كان عملهم روتينيًا وأتموه بسرعة.

فتح الأريكة بعناية وبالفعل وجد أنها صندوق مفعم بأشياء عديدة.. اشياء تحتاج لشهر كامل من الفحص. لو خرج من هنا فسوف يعود مع خمسة أو ستة رجال..

هناك كراسات مغبرة متراصة، وهناك جهاز مذياع قديم، وأعداد من مجلة (هو وهي) التي كانت منتشرة في زمن خالته.

الكراسات. ماذا فيها؟

هناك رسوم.. رسوم بالقلم الرصاص الملون أو الباستيل وهناك رسوم بالأكواريل. ليست رائعة لكنها ليست سيئة كذلك، ويمكن القول إنها تخص ذلك الفتى حسام..

فتيات.. خيول.. مناظر طبيعية..

هناك مظروف مغلق عليه اسم.. دكتور (كمال عطية) – دكتوراه في الأمراض العصبية والنفسية.. زميل كلية (....) بباريس...

فتح الخطاب.. كانت بداخله ورقة بالإنجليزية وقد كتبت على عجل تقول:

"تحتاج حالة الشاب حسام عبد العزيز إلى رأي ثان وثالث. على قدر علمي يسهل أن تصنفه كشخصية سايكوباثية، لكن الامور أعقد من هذا. يعبر عن نفسه بالرسم كثيرًا وهذه علامة صحية، وأعتقد أن رسومه جيدة جدًا.. لكن قسوته على الحيوانات لا توصف.. كما أنه يتحرش بالفتيات، ولا يكف عن إهانة قريبته التي تقيم معه وترعاه كأم.. وأحيانًا يضربها بقسوة. يتكلم كثيرًا عن عبادة (بعل) وعن انه ابن بعل الأكبر، وأحيانًا يزعم أنه

شيطان. قريبته متأكدة من أنه جرب التهام الحشرات وجرب اللحم النيئ.. تؤكد أن خزانته مليئة بقطط ميتة يقوم بتحنيطها. لا أفهم جذور هذه الحالة ولا كيف بدأت، لكنني أحتاج إلى رأي آخر، وإنني لأقترح عرض الحالة على د. عزيز اسكندر لدى عودته من الولايات المتحدة في نوفمبر القادم. إن تشخيص الحالة كمس شيطاني سهل بالنسبة للعامة، لكن الطبيب النفسي يبحث عن أسباب ودوافع وتشخيص صحيح، وأعتقد أن د. عزيز يملك الإجابة عن أسئلة كثيرة؛ مثل منشأ هذه الشخصية السايكوباثية وجذورها"

كان محمود يحاول أن يفهم. لكنه على يقين من شيء واحد هو أن خالته لم تفهم حرفًا من هذه الرسالة، وهذا لأنها لا تجيد الإنجليزية، وإن أجادتها فلسوف يستحيل إقناعها أن الصبي ليس ممسوسًا. لا يمكن أن تكون هذه الرسالة هي سبب موتها ذعرًا.

هذا الفتى المريض نفسيًا كان مولعًا بالرسم.. وتلك اللوحة اللعينة رسمها يومًا ما..لا شك أنها تحمل الكثير من جذور المرض النفسي..

أين اللوحة بالمناسبة؟

خرج إلى الصالة وهو يشعر بإرهاق شديد.. اتجه إلى النافذة

وأطلق صيحة

-"باسيونيه!!"

أخرى على سبيل أداء الواجب، ثم بحث عن الرسم.. لقد تغيرت اللوحة من جديد.. هذا حقيقي.. هذه المرة يرى رجلين يلتحمان وامرأة تصرخ.. رجل قوي ضخم اصلع الرأس له شارب كث، وفتى نحيل ضعيف، لكن الفتى يحمل خنجرًا.. ما معنى هذا؟ هذا البيت عبارة عن أسئلة بلا أي أجوبة.. لا شك أنه سيدفعه للجنون..

هناك غرفة واحدة باقية.. لا يعرف ما يوجد فيها.. عليه ان يدخل ويفتش وبعد هذا يجد طريقة للفرار. هكذا اتجه ليفتح الباب الأخير. كان الظلام دامسًا بالداخل واصطدم بقطعة اثاث.. لما استطاع بلوغ مفتاح النور أدرك أنها أقرب لغرفة نوم أخرى.. هناك فراش مغطى. لم يكن يدخل هذه الغرفة لدى زيارته لخالته إلا نادرًا جدًا ومن المنطقي أن المدعو حسام كان ينام هنا..

أما ما اصطدم به فهو آلة خياطة مغطاة.. آلة عتيقة تدار بدواسة قدمين.

لقد تحركت قليلاً من موضعها فانكشف جزء من خشب الأرضية..

لسبب ما اتجه للصالة وبحث عن اللوحة ثم حملها في يده عائدًا للغرفة.. لقد تغيرت الصورة فعلاً.. يمكنه أن يرى الرجل الضخم الأصلع يقف والصبي ميت على الأرض والسيدة تمسك براسها صارخة. صورة بليغة جدًا على الطراز الباروكي يمكن أن تضع عليها بالونات الحوار: لقد قتلته.. لم أقصد ذلك.. أنت قد جلبت علينا الخراب.. منك لله.. الخ..

أدرك أن الرجل الضخم يقف في هذا المكان بالذات.. جوار الفراش...

نظر لخشب الأرضية.. المهشم..

رجل أصلع ضخم له شارب كث....

خاله!...

خاله الذي ذهب لأوروبا واختفى تمامًا... لا أحد يعرف عنه شيئًا ولا أحد يذكره..

والفتى الميت على الأرض.. اليس هو حسام؟

اللوحة المائية تحكي قصة رهيبة إذن... الخالة التي أصابها الرعب

من ربيبها الشيطاني..تتصل بأخيها ليأتي ويساعدها.. مشاده عنيفة بين الفتى والأخ الغاضب.. تهديد بالسكين.. الخال القوي الغاضب يقتل الفتى..

يقتله.. هنا بالذات..

في هذه الغرفة!...

وقف محمود في الغرفة التي بدأت الظلال تزحف عليها..

كان يفكر في عمق..

القصة إذن واضحة جدًا واللوحة تحاول أن تخبره بكل شيء.. الفتى لم يفر من البيت ولم يختف في ظروف غامضة.. الفتى قد قتل. قتله خال محمود في مشادة عنيفة، والسبب أن الفتى شيطاني غريب الأطوار.. كائن مخيف لا يمكن فهمه.. ربما هو شخصية سايكوباثية فعلاً وربما هو ممسوس.. لقد فات أوان معرفة الحقيقة..

لقد مات الفتى.. وما فعلته خالة محمود هو أنها أخفت حاجياته والأوراق في تلك الأريكة وفي الصندرة.. لكن اللوحة تحمل طاقة غير عادية.. اللوحة تحاول أن تتكلم... اللوحة تحكي قصة..

ماذا يوجد تحت هذه الأرضية الخشبية؟

من الظريف أن تحاول التخمين..

كنز علي بابا؟.. حذاء سندريلا؟.. حذاء الطنبوري؟... طاقم أسنان هتلر؟.. مجوهرات لوكريشيا بورجيا؟

هناك في المطبخ سكين عملاقة. رآها عندما كان هناك.. أعتقد أنها تصلح..

هلم يا محمود.. إن الليل يتوغل ولم يعد هناك الكثير من الوقت لتعرف فيه الحقيقة.. إن القصة توشك على الاكتمال.. على الأرجح سوف ينفتح الباب تلقائيًا إذا وجدت الحل..

هكذا جلب السكين ثم عاد.. جثا على ركبته وراح يعالج الأرضية.. حاول جاهدًا رفع قطعة الخشب.. صبرًا.. في مثل هذه المواقف لابد أن تتكسر السكين ويطير النصل في عينك.. هذا حادث ينتظر أن يحدث..

يجب أن....

هنا وُضعت اليد على كتفه.. يد ثلجية جافة قاسية.. استطاعت برودتها أن تصل لجلده عبر الثياب.. للحظة دارت الدنيا من حوله وظهرت بقعة سوداء في منتصف الكادر، ثم راح يتنفس

بعمق حتى استعاد تنفسه.. من الغريب أن قلبه ما زال صامدًا

نظر خلفه فلم ير أي شيء.. أسلوب الأشباح التي تتحرك خارج نطاق الرؤية.. أسلوب بريطاني شهير في قصص الرعب.. على كل حال هو يدرك الآن أن هذه الشقة تعج بالأشباح، وأنها تتحرك فيها بحرية تامة.. صار من السخف أن تتكلم عن شيء آخر..

واصل انتزاع خشب الأرضية.. أخيرًا بدأ يلين.. قطعة خشب مهشمة تتزحزح.. استطاع أخيرًا أن يرى ثيابًا.. ثيابًا أتلفها القدم وإن كان قد تم لفها في لفافة صغيرة.. كانت ملوثة بدم جاف عتيق أسود.. مد يده جاهدًا حتى أخرج اللفافة كلها..

فردها في حذر عالمًا أنه على الأرجح سيجد يدًا مبتورة متعفنة.. لكنه في الضوء الخافت رأى أنها تحوي خنجرًا.. خنجرًا شرير الشكل ملوثًا بالدم..

كان يلهث بلا توقف..

هذا سلاح الجريمة طبعًا.. بهذا السلاح قتل الفتى في تلك المشادة.. كان في يده وانتزعه الخال منه بسهولة. روح الفتى الشريرة ظلت تسكن البيت وتسكن اللوحة. ربما هي كذلك في

مطاردة أبدية مع روح الخالة..

هذا هو السلاح.. لكن أين الجثة إذن؟...

يمكن تصور سيناريو ريا وسكينة.. حيث يتم تمزيق الجثة ودفنها تحت أرضية الغرفة ثم وضع الخشب من جديد. لكن هذه الفكرة لا تبدو معقولة لسببين.. أولاً هو لا يتخيل خالته متورطة في عمل إجرامي بهذا التعقيد وهذه البشاعة.. إنها مجرد خالة كخالة أي واحد آخر.. خالة ممن يشهقن عند وضع خلطة الملوخية ويجدن عمل محشو الكرنب.. خالة من هذا الطراز لا يمكن أن تقف لتراقب أخاها وهو يمزق شابًا ويدفنه.. أين؟.. في بيتها بالذات!!

السبب الثاني هو أن هذه شقة سكنية..سوف تسبب الرائحة فضيحة لا شك فيها.. حتى في زمن ريا وسكينة كانت الرائحة قاتلة واضطر القتلة لإشعال البخور طيلة اليوم..

أين الجثة؟

هناك احتمال آخر هو أنه تم تمزيقها ثم نقلت في أكياس على دفعات.. إلى كومة قمامة في شارع بعيد أو تم التخلص منها في

مصرف.. فضل الخال أن يدفن سلاح الجريمة هنا لأن الجث
تظهر دائمًا في النهاية.. لا تتوقع أن الخنجر سيبلى.. ثم فر إلى
الخارج وترك أخته في الشقة المرعبة..

مزيد من الاستنتاج يدفعك للاعتقاد أن شبح القتيل جعل حياة
المرأة جحيمًا.. كان يطاردها في كل مكان. النتيجة أنها سقطت
ميتة وعلى وجهها أمارات الهلع...

إذن لماذا تحدث أشياء غريبة هنا؟.. ما معنى الساسكواش الذي
يتحرك في كل مكان؟.. لماذا تتكلم اللوحة طيلة الوقت؟.. لماذا
هو حبيس؟

ترى ماذا تقوله اللوحة الآن؟

عاد يتأملها شاعرًا برهبة حقيقة.. منذ فترة جلس شاب مراهق
أمام هذه اللوحة ورسمها، لكنه في الوقت نفسه زرع فيها جزءًا
من خواطره وروحه الشريرة.. النتيجة أن ألوان الماء تذوب في كل
لحظة مثل (الكاليدوسكوب) لترسم شيئًا جديدًا..

هنا رأى مشهدًا جديدًا.. هناك جثة ملقاة في مكان فسيح.. لو
أردنا الدقة لقلنا إنها ملقاة في صالة شقة..

ما هذه الجثة الجديدة وماذا تحاول اللوحة قوله؟

خرج إلى الصالة من جديد..وقرر أن يواصل الصراخ في النافذة.. سوف يلقي بأشياء أثقل.. ربما مفعد كامل يسقط في الشارع ويجذب المارة.. بعضهم سيصعدون للشجار معه لكنهم بذلك ينقذونه..

الضوء خافت فعلاً...

هنا رأى في ركن الصالة ذات السيدة.. السيدة التي لا يمكن تبين وجهها.. السيدة التي يعتقد أنها خالته... مرعبة فعلاً لكنه لا يجرؤ على الدنو أكثر أو محاولة التفاهم معها..

استدار للخلف فرأى للمرة الأولى في الضوء الخافت ذلك الفتى النحيل الذي يزحف في الظلال.. كأنه لا يراه ولا يعبأ به..

يمكن القول بلا جهد إن هذا هو حسام..

الشقة مزدحمة بالأشباح فعلاً كأي حافلة ساعة الذروة.. لابد من الصراخ.. لابد من طلب العون..

لكنه إذ توغل في الصالة أكثر رأى القدمين في ركن مظلم.. يسهل ألا تلاحظهما في البداية.... رأى الجسد الممدد على الأرض..

رأى الوجه الذي بدا عليه الهلع... كل هذا كان في الصور...
يميزه بسبب رداءة الرسم..

ثم أنه عجز عن تخيل ذلك...

هذه المرة لم يكن هناك مجال للشك أو الحيرة...

هذا محمود.. محمود بالذات دون سواه...

بعبارة أخرى هو يرى جثته على بلاط الصالة.. لقد مات..

وقف محمود يرتجف ويفكر.. بالفعل لم يعتد أن يصمد قلبه كل هذا الصمود.. قلبه واهن وبالتأكيد تخلى عنه في وقت مبكر. على الأرجح عندما رأى شبح خالته جالسًا على باب غرفة النوم..

كان عليه أن يشك في هذا منذ البداية..

لماذا عجز عن فتح الباب؟.. لماذا لم يسمع أحد صراخه؟.. لقد فقد الكثير من وجوده المادي وإن ظل قادرًا على انتزاع الأرضية وأشياء أخرى.. وعلى الأرجح سيفقد هذه القوة عما قريب..

ربما لهذا السبب بالذات كشفت اللوحة أسرارها له بالذات..
لأنه صار شفافًا بشكل ما..

لقد صار قادرًا على رؤية الشبحين بوضوح تام..

والآن هو يعرف ما سيحدث عندما تتصاعد رائحة العفن بعد يومين، ويجد رجال الشرطة جثة شاخصة البصر مذعورة في ذات الشقة اللعينة.. لن يفهم أحد أي شيء... غالبًا لن تقدم لهم اللوحة المائية إجابات.. سوف يجدون الخنجر الدامي وربما يخمنون ما حدث..

سوف تنغلق الشقة على ما فيها ويخشاها المستأجرون بتاريخها الملوث.. لكن هناك ثلاثة أشباح سوف تجول فيها للأبد... شاب ممسوس أو سايكوباثي.. ورجل في منتصف العمر.. وسيدة مسنة قتلها الرعب.. وكومة من العاديات ولوحات الأكواريل..

إن المستقبل يبدو واعدًا بالفعل.



الثقوبة

لا يدري متى ولا كيف كفت نعيمة عن زيارته ليلاً.. افتقدها بعض الوقت ثم نسى الأمر تمامًا.. الموضوع لا يتردد في الدار. فقط فهم شيئًا عن خادمة سيئة الأدب عملت في دارهم فترة.. خادمة من الطراز الذي لا يبالي بتلويث براءة مراهق في الثالثة عشرة من عمره.. جاءت ورحلت (في ستين داهية).. تساءل في سره عن حقيقة القصة.. إذا كانت في دارهم فلماذا لم يطردوها بدلاً من استشارة الطبيب والمشعوذ؟.. أم أنها كانت في البداية ورحلت ثم ظل طيفها يزوره ليلاً ليغتصبه؟

في مراهقته اعتاد زيارتها عندما تدنو عقارب الساعة من الثالثة بعد منتصف الليل.. الظلام والضوء الخافت القادم من المصباح الواهن في الصالة، والرجولة المترددة التي تتحسس خطواتها الأولى في درب مجهول.. والنساء كائنات غامضة ديناصورية تأتي وتذهب إلى عالم الأحلام. هناك يرقد في الظلام وصدره يعلو ويهبط.. ربما تغلبه سنة يستفيق منها مذعورًا فينظر إلى الساعة السابحة كسفينة فوسفورية في بحر السواد.. الثالثة.. ثم يسمع صرير الباب ويحتله السلويت الرشيق المميز لها..تخطو خطوة وينغلق الباب ويشم عطرها المميز وعالم الأنوثة الغامض الساحر الذي ينبعث منها، حتى خطرت له فكرة راقت له: إنها الأنوثة ذاتها وقد تجسدت..

يأيها الرمز المقدس القادم من عوالم الحلم.. التحم بي. فليكن صمتك صراخًا وليكن صراخك همسًا.. فلتفترسني أنفاسك الحارة.. إعزفي بي.. مزقيني.. القي بي كالشيء على أعتاب الأبدية.. تاتا تاتا... يدك البضة تقود خطواتي المتعثرة عبر طرق الرجولة الوعرة..

ـ"قلت لي ما اسمك؟"

ـ" نحيمة.."

فكان يضحك ويهتز صدره حتى يسعل.. النطق الذي يستبدل
بالعين حاء.. النطق الذي تسرب إلى حلقك ذاته فصرت تنطق
حرف العين مشينًا مهينًا..

ثم تلثم عينه المغمضة وتهمس:

ـ "يا حبة عيني.. يا عصفوري.."

ويأتي الصباح فيجد نفسه ملقى كالشيء فعلاً.. الفراش ميدان
حرب والملاءة على الأرض وقدماه على الوسادة.. وينفتح الباب
وتدخل أمه لتوقظه للمدرسة فيصيبها الهلع من منظر الغرفة.

وفي المدرسة يتذكر مذاق (نعيمة) فيبتسم خفية، ثم يسقط
رأسه الثقيل المنهك على صدره ويشخر.. يشخر بينما المدرسون
يصرخون غضبًا.. يشخر بينما درجاته تتهاوى من حالق.. يشخر
بينما أبوه يتساءل عما دهاه..

فقط في الليل تظهر هي على باب الحجرة وتبدأ دورة جديدة من
الشهوة والنشوة والألم والإرهاق والندم..

الشيخ الذي فحصه كان خبيث الرائحة والنظرات والأفكار،
وإن تظاهر بغير هذا.. كيف يخدعهم بينما نظراته تفضح كل

شيء؟.. فقط تلمس جبينه وغمغم بما يبدو لمن يسمعه من بعيد

ايات قرآنية، وقال:

ـ"جنية اسمها (نعيمة).."

ثم يسأله:

ـ"هل تقضي وقتًا طويلاً في الخلاء؟.. هل تطيل النظر لجسدك العاري في المرآة؟.. هل أهنت الخبز أو اللبن؟"

ـ"لا.."

لكن الرجل لا يتقهقر.. إنه يتلمس جبينك ويكرر:

ـ"جنية اسمها نعيمة"

وتبدأ محاولات العلاج القرآني.. هذا الرجل لا يحفظ سورة كاملة واحدة من القرآن لكنه يخدع الجميع.. إنه يكلمها.. بحركات تمثيلية يضرب على خاصرتك حيث تستقر هي.. يحكي قصصًا لا نهاية لها عن الجنية التي تشاجرت مع ملك الجان فقررت أن تتسلى على شاب غرير هو أنت بالذات.

لكن (نعيمة) أتت في الموعد... لم تتخلف عن موعدها قط.. يا أغنية الأنوثة التي تتردد على شفتيك الجافتين فترويهما..

الطبيب النفسي الذي رآك حكى لأبيك عن الكبت وعن ..
المراهقة.. عن براكين الرجولة التي تتفجر وكيف يعمي ومبه.
العيون فلا ترى إلا (نعيمة).. نعيمة لم توجد قط ولن توجد أبدا
إن هي إلا عاصفة جاءت ولسوف ترحل بعد ما تأخذ وقتها.
لا يدري متى ولا كيف كفت نعيمة عن زيارته ليلاً.. افتقدها
بعض الوقت ثم نسى الأمر تمامًا.. الموضوع لا يتردد في الدار
فقط فهم شيئًا عن خادمة سيئة الأدب عملت في دارهم فترة
خادمة من الطراز الذي لا يبالي بتلويث براءة مراهق في الثالثة
عشرة من عمره.. جاءت ورحلت (في ستين داهية).. تساءل في
سره عن حقيقة القصة.. إذا كانت في دارهم فلماذا لم يطردوها بدلا
من استشارة الطبيب والمشعوذ؟.. أم أنها كانت في البداية ورحلت
ثم ظل طيفها يزوره ليلاً ليغتصبه؟

لا يعرف..

فقط جرفته الحياة معها.. وجاء اليوم الذي وجد فيه أنه يدرس
الكيمياء في بريطانيا. ما زال بالنسبة لنفسه ذلك المراهق التعس
الذي يتحسس خطاه على درب الرجولة، لكنهم يعاملونه
كطالب علم ناضج فلابد أنه كذلك..

،ان وحيدًا.. تعسًا.. قلقًا.. يرتجف بردًا وقد تسرب الضباب
،ن منخريه ليبطنه من الداخل بلون العاصمة البريطانية الرمادي
الكئيب.. لذا شعر بالرضا عندما عادت (نعيمة)..

انفتح باب غرفة نومه في تلك الشقة الرخيصة التي تدفع ثمنها
إدارة البعثات، ومن جديد رأى (نعيمة) على الباب.. إنها هي..
لا يمكن أن يخطئ هذا القوام الفارع الجميل.. الأنوثة الخالصة
التي قدت من مقلع الخليقة..

إنها تدنو منه.. تهمس:

ـ"أوحشتني.."

ـ"وانت كذلك.."

تلثم عينه المغمضة وتهمس:

ـ"يا حبة عيني.. يا عصفوري.."

فليتطاير الضباب الرمادي خارجًا من منخريك.. فليتسرب عطرها
ليبطن كل شيء بداخلك.. هناك تحت الكبد.. هنا حول القلب..
هنا جوار طحالك بقعة فارغة.. يجب ان تملأها..

وفي الصباح ينهض من نومه ليجد أنها قد رحلت.. لم يرها في

ضوء الشمس قط.. لكنه الموعد المقدس كما اعتاده في صباه.

تتكرر الليالي الصاخبة، والإرهاق باد على وجهه يراه أستاذه البريطاني (همفري)، ومع الإرهاق شحوب واضح.. أنت على غير ما يرام يابني.. يجب ان يفحصك الأطباء.. أنا اعرف دائي إنها (نعيمة)..

تحكي له كل شيء على سبيل تسليته، فينظر لك في قلق بضع دقائق ثم يقول مفكرًا:

ـ" لا أعرف كيف تفسرون هذه القصص، لكن عندنا أسطوره مماثلة في عالمنا الغربي.. هناك فتيات يأتين للرجال ليلاً ليضاجعنهم ويحملنهم معهن إلى الجحيم.. نطلق عليهن اسم الثقوبات Succubus.. يفسر علماء النفس هذا بالكبت الذي يجعل الرجل يتخيل أوهامًا شبقية، لكن هذا المعتقد كان شائعًا في العصور الوسطى.. هل تعرف اسم ملكة الثقوبات؟"

هز رأسه في غباء فأردف الرجل:

ـ"اسمها (ناهيما Nahema)!.. هل يذكرك الاسم بشيء؟"

وضحك ضحكة قلقة ذات معنى (أو لعلها بلا معنى)..

الوجدان الجمعي للشعوب واحد وهو ما يشير إلى تقاربها وتلاحمها في فجر التاريخ.. هكذا قال الخواجة (يانج) وهكذا خطر للفتى وهو يسترجع القصة.. في مصر عندنا الجنية التي تأتي ليلاً لتتزوجك، وفي أوروبا هناك الثقوبة التي تأتي ليلاً لتستنزف قواك..

(ناهيما).. (نحيمة).. (نعيمة).. هل هي مصادفة؟

ثم توقف. جلس في فراشه وأضاء النور.. "يا حبة عيني.. عصفوري..".. كانت تناديه بهذا الاسم.. كان أغبى من اللازم فلم يسأل نفسه السؤال الوحيد المنطقي: لماذا لم تقل (حبة حيني.. حصفوري) ما دامت عاجزة عن نطق الحاء؟.. معنى هذا أن اسمها (نحيمة) فعلاً..

أطفأ النور وراح يتأمل في الظلام.. النهم المجنون إلى ارتشاف بحر لا نهاية له.. (أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تداني؟...)... المراهق الأخرق الصغير وحده في الفراش ينتظر.. إنه الكبت.. خادمة؟.. أم انهم قالوا هذا؟.. أم أنه تخيل أنهم قالوا هذا؟..

ملكة الثقوبات شخصيًا تأتي إليك.. إنها تقود الرجال إلى الهلاك الأبدي.. أنت تذبل يا صديقي.. تذبل.. ابنة ملك الجان قررت أن

تتسلى عليه.. إنه الكبت.. العطر الذي يبطنك من الداخل ويطرد ضباب لندن.... اليد الحانية التي قالت لك (تاتا تاتا) واقتادتك لتعبر عتبات المراهقة... ماذا يهم؟

إنها الثالثة.. مقبض الباب يدور وينفتح.. السلويت المميز يظهر على باب الغرفة..

أغمض عينيه وانتظر القبلة الدافئة على جفنيه..



حقيقة ما حدث

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

المعتاد في هذه الأمور أن تضيع الحقيقة بين عـدة أطـراف، وكـل طـرف يؤمن أنه يحتكرها.. لكني أرجـوك أن تعرف شـيئًا واحـدًا: هناك حقيقة وأنـا من يملكها.. صحيح أن هناك نقاطًا بالغة الغموض في القصة، لكن هذا لن يدفعك لتركي وسماع الأطراف الأخرى.

1 - الضابط

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

المعتاد في هذه الأمور أن تضيع الحقيقة بين عدة أطراف، وكل طرف يؤمن أنه يحتكرها.. لكني أرجوك أن تعرف شيئًا واحدًا: هناك حقيقة وأنا من يملكها.. صحيح أن هناك نقاطًا بالغة الغموض في القصة، لكن هذا لن يدفعك لتركي وسماع الأطراف الأخرى. دعك من أنني أمثل القانون وسلطته ومن الطبيعي أن تصدقني أنا ولا تمنح أذنك لهؤلاء المخابيل..

عندما اتصل بي الجيران، كان علي أن أسرع..

أنا (علاء السخاوي).. ملازم حديث التخرج صغير السن قليل التجارب، ومن يعرفونني يقولون إنني مندفع.. ثم يضحك رئيسي الضابط المحنك حتى تهتز بطنه الكبيرة ويسعل، ويقول:

ـ"كلنا نبدأ بهذه الطريقة.. كلنا نتحمس أكثر من اللازم في البداية، ثم نتعلم كيف نهدأ.. لعلها السينما.. ربما"

ربما كان الأمر كذلك.. على كل حال آمن الجميع أنني سأرتكب

غلطة قاتلة ويضيع مستقبلي..

عندما أطلقت الرصاص على الرجل كنت أرى إنني أقوم بواجبي.. وكنت أعرف أنني لو لم أفعل سيمزقني تمزيقًا.. من يدري؟.. ربما كنت مخطئًا..

ما أعرفه يقينًا هو أن الجيران اتصلوا بي..

تكلموا عن صراخ المرأة وربما صراخ طفل، وقد هرعت إلى العنوان المذكور في سيارة الدورية. كان العنوان يقع في منطقة منعزلة من المدن الجديدة. لن أذكر الاسم حتى لا أسبب حرجًا لأحد. إنها من تلك المدن الخالية الفاشلة تمامًا.. حيث تجد الشوارع مقفرة تجوبها كلاب ضالة، ويتكلم الناس عن (السلعوة) ولا يجرؤ طفل على النزول للشارع بعد السابعة مساء..

الجيران قالوا لي إن الصوت يأتي من الطابق السفلي.. هناك شقة موصدة.. دققت الباب عدة مرات مع رجلي الشرطة اللذين كانا معي.. لم يرد أحد..

لكني سمعت صوتًا مكتومًا..

هكذا قررت أن أفعل كما يفعل رجال الشرطة في السينما اندفعت بكتفي لأهشم الباب وساعدني الشرطيان طبعًا..

كانت الرائحة شنيعة بالداخل.. أعمتنا للحظات حتى لم ندرك أين نحن، ثم بدأنا نفهم أننا في شقة واسعة جدرانها بلا طلاء. لا يوجد بلاط أو سيراميك.. باختصار هي شقة في مرحلة ما قبل التشطيب...

الصوت كان قادمًا من وراء ذلك الباب في طرف الصالة وكان مغلقًا..

نظرت للرجلين وبللت شفتي السفلى بلساني.. قلبي يتواثب كالطبل بين الضلوع. اتجهت إلى الباب الموصد وعرفت بالفطرة أن علي ان اقتحمه مباشرة ولا أنتظر أن يفتحه أحد..

ركلت الباب بقوة.. هنا انفتح فجأة..

وأدركت أن هذا قبو.. درجات تقود لمكان متسع له سقف خفيض.. الجدران من الأسمنت والإضاءة كئيبة واهنة..

هناك فراش خال ليس عليه أحد وليست فوقه حشية...

ثم استطعت أن أرى أفضل فرأيت المرأة التي ترتدي قميصًا ممزقًا.. بالواقع لم تكن ترتدي غيره.. وقد زحفت جوار الجدار وراحت تبكي بلا توقف.. وضع جنيني يوحي بصدمة عصبية قوية..

ثم رفعت رأسي فرأيت الرجل.. ومن حسن الحظ أني فعلت ذلك هنا والآن..

كان يركض نحوي وهو يحمل مثقابًا كبيرًا.. مثقابًا يتصل بسلك كهربي طويل.. المثقاب يدور.. وررررررررررر! ورررررررررر!

الرجل شعره ثائر ولا توجد شعرة واحدة جوار الأخرى.. قميصه ممزق دام..

له هاتان العينان الشفافتان متسعتا الحدقتين اللتان تراهما لدى المجانين.. حافي القدمين... وأدركت أن ساقه جريحة وملتهبة بشكل شنيع، لكنه كان يستعملها بكفاءة على كل حال..،

وررررررر! ورررررررررر!!

هرع رجل من رجالي يبحث عن القابس لينزع الكهرباء عن هذا السلاح القاتل، لكن الوقت لم يكن كافيًا.. إن المثقاب يحلق في

الهواء نحوي.. يريد أن يمزقني.. سوف يخترق لحمي ويصل إلى نخاع العظام، وسوف يستغرقون ساعة وهم يحاولون انتزاعه..

لم يكن الوقت كافيًا لأي شيء سوى أن أنزع المسدس من قرابه.. أسدده نحو الرجل.. أطلق الرصاص..

باو! لقد طار للخلف مترين واصطدم بالجدار خلفه، ثم سقط على الأرض..

عندما دققت النظر فيه أدركت أن هناك ثقبًا مرعبًا في صدره.. سوف يموت على الأرجح..

كان هناك على الأرض ينظر لي في ثبات، لكنه كان يرتجف كورقة. كان يدرك أن الحياة تتسرب منه بلا توقف...

كان يردد بلا توقف:

ـ"مصطفى مات.. مصطفى مات!"

من هو مصطفى؟.. على ما أذكر قال الجيران إن اسمه عباس.. وعلى كل حال لا أعتقد أنه يتكلم بصيغة الشخص الثالث كما يفعل طرزان في القصص (طرزان يشعر ببرد.. طرزان غاضب)..

بحثت من حولي.. لا يوجد خطر داهم آخر...

لكني ألقيت نظرة على الجدار فرأيت بقعًا من دم.. هذا الدم لا يمت بصلة للرجل.. يخيل لي أن هناك أجزاء من نسيج بشري ملتصقة بالبقع، وربما كنت واهمًا...

ثم رأيت الجثة.. وعرفت مصدر الدم.. بل وعرفت مصدر النسيج...

جثة طفل في الخامسة أو السادسة من العمر. هناك كانت ملقاة جوار الجدار بينه وبين الفراش.. الوضع الذي كانت عليه جعل رؤيتها عسيرة من دون تفتيش مدقق..

لا أريد وصف المشهد البشع، لكن يكفي أن أقول لك إن طريقة القتل كانت بدائية جدًا.. على الأرجح تم الإمساك بقدمي الصبي وتطويحه ليضرب رأسه الجدار.. طريقة شنيعة، ويجب ان أذكرك ان مبتكرها كان موشى ديان في مذبحة دير ياسين..

حول الجثة كان هناك الكثير من الريش.. ريش أسود كبير يذكرك بريش النسور.. هل كان هناك نسر في هذه الغرفة، أم أنهم كانوا

يطهون بطة سوداء؟.. لماذا لا يوجد موقد في القبو؟

ابتلعت ريقي وقلت لرجالي:

ـ"الإسعاف قبل كل شيء.."

وزحفت حتى بلغت المرأة... كانت تداري وجهها بقوة في ثنية ذراعها، قد حاولت أن ألقي عليه نظرة فلم أر إلا أنها متوسطة الجمال، في الثلاثين من العمر... إن الخوف يشوه وجه الإنسان بقسوة، فلربما في ظروف أخرى وجدتها فاتنة..

سألتها عما جرى فلم ترد..

ـ"من الذي قتل الطفل؟"

ولم أسأل بالطبع إن كان هذا ابنها أم لا. الإجابة واضحة...

لم ترد.. ظلت ترتجف...

هذا الشيء الذي تطبق عليه يدها الأخرى.. ما هو؟..

مددت يدي وبشيء من غلظة نجحت في أن أفتح قبضتها.. تخلت يدها عن التمثال الصغير المغطى بالدم.. تمثال يمثل إنوبيس إله التحنيط عند الفراعنة، وهو أقرب إلى رجل له رأس ابن آوى..

لمثال في حجم قبضة يدك.. القرى المحيطة بالأقصر تنتج هذه القطع بالجملة..

سمعت صوت سيارة الإسعاف وصوت المحفة..

نهضت وألقيت نظرة، فقال أحد المسعفين وهو يغطي جسد الرجل:

ـ"ما زال حيًا... يبدو أن الرصاصة لم تمس عضوًا حيويًا..."

ـ"الحمد لله.."

المشكلة هي أنني أريد لسانًا واحدًا.. أريد شخصًا واحدًا يمكنه أن يتكلم ويشرح لي ما يدور هنا..

عندما دنوت من الفراش رأيت مشهدًا عجيبًا..

هناك حبال غليظة ممزقة.. حبال مربوطة في أركان الفراش الأربعة.. القصة تتضح إذن...

الزوج السادي المريض نفسيًا يستمتع بتقييد زوجته للفراش.. ربما لمجرد التعذيب وربما لأن هذا يجلب له لذة جنسية. عرفت وحشًا قيد عروسه الجديدة للجدار وظل يجلدها ليلاً نهارًا لمدة ثلاثة أيام لمجرد أن هذا يثير شهوته، حتى اكتشف أنها أسلمت الروح...

الزوج قيّد زوجته في هذا القبو على هذا الفراش..

لا شك في هذا.. على الأرجح ظلت الزوجة في هذا الوضع ..

أيام، ثم جاء ابنها الصغير وراح يعوي مذعورًا.. لم يتحمل الر..

كل هذا الصراخ.. سوف يجلب الجيران كما أنه يحطم الأعصاب..

في النهاية أمسك الرجل بالصبي من ساقيه وهشم رأسه في الجدا..

ترى هل فك أصفاد الزوجة قبل هذا أم بعد هذا؟.. لا.أعرف.

لكن الزوجة على كل حال قد توحشت عندما رأت ما حل

بابنها.. أمسكت بهذا التمثال الصغير وهوت به على رأس

معذبها لكنه لم يفقد الوعي.. هذه هي اللحظة التي جئت فيها..

اللحظة التي جاء فيها بالمثقاب لينهي مأساتها.. لكن رصاصتي

أنا هي التي أنهت مأساته..

والريش الأسود؟.. على الأرجح كان يمزق طيورًا حية أمامها

ليفزعها.. هذا هو الاحتمال الوحيد عندي..

إنني فخور بما قمت به.. لقد جئت في الوقت المناسب وتصرفت

بشكل ممتاز، وعندي شهود على إنني لم اطلق الرصاص جزافًا. لكن

ينقص الأمر أن أسمع اعتراف هذا الرجل الوغد وشهادة الزوجة..

تقرير الطب الشرعي سوف يغير الكثير كذلك..

سوف أنتظر على أحر من الجمر.. أريد أن أعرف ما دار في القبو فعلاً في الأيام والساعات الأخيرة الماضية.. ربما لو جئت أنت هنا غدًا لسمعت ما سيقوله الزوج..

2 - الزوج

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

دعكم من كل هذا السخف الذي سمعتموه.. أنتم تعرفون ان رجال الشرطة يلفقون كل شيء،، ويكتبون الاعترافات كأنهم يكتبون قصائد حب، ثم يرغمونك على التوقيع فإن لم توقع علقوا زوجتك عارية من مروحة السقف وهددوك باغتصابها. الكل يوقع في النهاية وتضيع الحقائق..لكني أنا سوف أقدم لك الحقيقة.

انس ما سمعته أمس.. واستمع لي أنا...

أنا عباس الزيني.. موظف صغير في إدارة الكهرباء وأزيد من دخلي عن طريق ممارسة النجارة في البيت.. لدي طاقم من المناشير والمبارد ولدي مثقاب وما يلزم من معدات.. صحيح أن هذا لم يجعلني ثريًا لكنه على الأقل يترك بعض المال في جيبي دائمًا..

أنا أكره ذلك الشيء الذي يعيش هنا وأخافه كثيرًا.. مصطفى كذلك يكرهه..

نحن نعيش في بقعة معزولة، ويمكن القول إن هذه المجتمعات الجديدة فاشلة تمامًا.. من السهل أن تقتل إنسانًا وتمزقه وتشويه

وتأكله دون أن يشعر بك أحد، وعند الثامنة مساء يصير الشارع مخاطرة حقيقية..

دائمًا هناك مساجين فروا من سجنهم.. دائمًا هناك سلعوة.. دائمًا هناك أسطورة مخيفة ما..

عندما تعيش في مكان قفر كهذا فأنت تأمل أن تعيش مع شخص تحبه، لكني في الواقع لا أملك أي حب نحو زوجتي تلك العجفاء الجاهلة السقيمة شديدة الغباء.. وجهها الكالح يجلب لي الغم... لقد انتهى حبي لها حتى أنني لا أفهم كيف أصابني الخبال منذ خمسة أعوام فنمت معها وظفرنا بهذا الطفل..

مصطفى صديقي.. مصطفى ينصحني بكل شيء.. صحيح أنه أعور وصحيح أن نصف وجهه محترق.. وصحيح أنه لا يأتي في كل وقت.. وصحيح أن أحدًا لا يراه معي لسبب لا أفهمه، لكنني أثق بمصطفى فعلاً.. إنه أخ لم تلده أمي..

قرص آخر.. لا تلمني من فضلك.. سيجارة محشوة أخرى.. لا تنظر لي بهذا الشكل. المخدرات مؤذية لكنها تجعل الحياة محتملة..
في صباي كسرت ساقي وأعطوني دواء لأنام.. اكتشفت أنه مهما كان الألم قاسيًا فالنوم ينهي كل شيء.. يختصر الألم.. الموت

كذلك يحل مشاكل كثيرة، لكن لا عودة منه وهذا يخيفني..

أنا أتعاطى الكثير من المخدرات.. أعترف بهذا.. لكن تزوج زوجتي، وعش مثلي في هذا المكان الكئيب، وجرب فقري ثم أعطني درسًا أخلاقيًا..

لا أعرف متى بدأت أشك في الصبي.. ابني...

بالنسبة لمعظم الناس يبدو صبيًا عاديًا.. لا شيء يخيف فيه.. لا شيء يجعلك تستيقظ مفعمًا بالرعب غارقًا في العرق..

لكني أكثر حساسية من سواي.. هناك أولاً تلك النظرة الوقحة في العينين.. ينظر لك في ثبات طويلاً ولا يرمش بعينه مما يدفعك إلى الجنون.. يوترك.. يربكك..

ثم يفتح فمه في شبه ضحكة وتتدلى شفته السفلى.. هذا يحطم أعصابي نهائيًا..

مصطفى كان يقول وقتها:

-"يا ابن الـ....."

أحيانًا كنت اصحو من النوم وهو راقد جوار أمه، أتكلم عن ابني وليس مصطفى طبعًا.. فأرى ان عينيه مفتوحتان في جشع

وأنه يرمقني في ثبات! هذا الشيء لا ينام...

أحيانًا عندما يكون وحده أسمعه يتكلم بصوت كصوت الرجال بالضبط... هناك ستة أشخاص في داخله... ربما سبعة..

لم أستطع قط أن أقنعها بذلك.. كل الأمهات لا يرين أي خلل في اطفالهن، وامرأتي كانت عديمة الخيال ضيقة الأفق..

من أين وكيف أصابه المس؟

سألت في ذلك أحد المشعوذين، فقال لي إن عملاً شيطانيًا مدفونًا في موضع ما.. وهذا العمل قد سهل مس الشياطين للصبي..

دفعت للمشعوذ مبلغًا من المال، فجاء وراح يفتش في البيت ومن حوله، ثم نصحني بأن ابحث عن العمل مدفونًا قرب شجرة متحللة على أطراف المدينة.

ذهبت هناك وحفرت بعض الوقت، فكان ما خرج لي تمثالاً من حجر أسود يمثل رجلاً له رأس كلب.. كلب طويل الخطم منتصب الأذنين.. ربما هو ذئب..

أعتقد أن هذا التمثال فرعوني.. لقد رأيت شيئًا كهذا من قبل..

قال المشعوذ إن هذا التمثال هو العمل ذاته، وطلب مني أن

أحتفظ به.. مع وعد بأن الصبي سوف ينجو من المس...

قال لي (مصطفى) إن علي أن أدمر التمثال نفسه.. لكن أنى لي أن أد، ، وهو من حجر ثقيل؟، ولو كان هذا مطلوبًا لطلبه المشعوذ مني..

هكذا أخفيت التمثال في القبو وانتظرت أن تنفرج الغمة.

الصبي كان مخيفًا فأصبح مريعًا..

جاءت اللحظة الكبرى عندما كنت أمشي في الدار في الظلام، وهنا شعرت بتلك الأسنان تنقض على ساقي.. أسنان حادة قاسية..

الوغد زحف على الأرض وانقض علي.. كان ينشب أنيابه في ساقي كأنه ثعبان، وقد رحت أركل وأحاول التملص لكنه كان متمسكًا بقوة.. هكذا اضطررت إلى ان أضرب ساقي بقوة في الجدار فسقط هذا أرضًا..

ليلتها والليالي التالية لم أنم...

كانت حرارتي ترتفع.. أعرق بغزارة... لعابي يسيل من فمي... أتبول كثيرًا جدًا... حملني جارنا عبد الجواد على دراجته إلى المستشفى ولم أحك شيئًا عن عضة الصبي لي، لكنهم لم يصنعوا لي شيئًا.. أعطوني مضادًا حيويًا وحقنة تيتانوس وطلبوا مني الانصراف..

لم أنم.. التوتر يتزايد.. هناك وحش تحت سقف داري وأمه لا تعترف بذلك.. ومن الجلي أن عضته سممت بدني تمامًا...

وفي يوم غائم كئيب قال لي مصطفى إن علي أن أفعل شيئًا..

"وماذا أفعل يا أخي؟.. لن تصدق امه حرفًا.."

ـ"لم أطلب أن تؤذيه.. أريدك فقط أن تمنعه من إيذائنا."

ـ"وكيف؟"

ـ"أنت تعرف أنه سيتحول لشيطان ويحلق ليملأ الأرض جورًا.. يجب أن تمنعه"

ـ"وكيف؟"

سأقيده للفراش بالحبال.. سأمنع عنه الطعام...

وهكذا انتهزت فرصة ذهاب زوجتي للسوق وجررت الوغد الصغير إلى القبو حيث أحكمت وثاقه إلى فراش بلا حشية نقلته هناك..

راح يعوي كالذئاب لكنني لم أرفق به.. لا أرفق بالشياطين...

رحت ألوح بالتمثال أمام وجهه لعله يفيق.. لكنه ظل ينظر لي بتلك النظرة الوقحة..

ثم أغمضت عيني وفتحتها لأجد أنه تحرر!

نعم.. تحرر.. الحبال ممزقة وهو يقف هناك في ركن المكان.. لقد استطال وصار مريعًا كالغيلان.. كل ما فكرت فيه صحيح.. كل ما خشيته يتحقق..

مصطفى قال لي إن علي أن أقتله الآن قبل أن يهجم.. لكني لن أجرؤ..

هنا فرد الصبي جناحيه. كانا مغطيين بالريش الأسود كأنه غراب عملاق. لقد اكتمل تحوله وتهيأ ليحلق كما توقع مصطفى..

يجب أن استجمع شجاعتي.. نجاة العالم تتوقف على تصرفي في اللحظات القادمة..

جثوت على ركبتي واعتصرت ساقيه..

حاول أن يركلني.. حاول أن يغرس مخالبه في جسدي، لكني رفعته بقوة لم أحسبها عندي وضربت رأسه في الجدار بقوة.. مرة.. مرتين.. ثلاث مرات..

الدم ينفجر..

الريش يتناثر في كل صوب من حولي..

برافو يا عباس.. انت شجاع يا عباس.. أنت تجيد القتال يا عباس...

مصطفى يشجعني بلا توقف..

لكن النساء بلهاوات ولا يفهمن هذه الأمور.. لقد انقضت علي صارخة تعوي كأنها تحترق في الجحيم:

ـ"ماذا فعلت أيها المجنون؟؟.. "

تهوي على رأس مصطفى بشيء ثقيل لا أعرف ما هو.. التمثال!..

لقد وجدته!

الريش يطير في كل مكان.. يضايقني... يملأ منخري..

أضربها فترتطم بالجدار وتبكي! لم أرد أن أؤذيها لكنها تعطل عملي فعلاً...

عرفت أن الشيطان قادم الآن لينتقم مني..

لقد دمرت خطته للسيطرة على العالم..

إنه يلبس ثياب ضابط شرطة.. ومعه خادماه يصيحان بي..

أين المثقاب..؟.. أقسم أنني سوف أثقب هذا الرأس حالاً لتخرج منه الحمم والشرور..

وررررررررر! ورررررررررر!

سوف أقتل الشيطان....

لكن الشيطان كان أسرع مني.. إنني أطير لأرتطم بالجدار.. ما

هذا الشيء الساخن في صدري؟. لماذا يتفجر الدم منه؟

رباه!.. أنا أموت!.. الشيطان قد ثقب قلبي....!

لكني سوف أصمد.. سوف أعود للحياة، ولو مت فلسوف

يبقى مصطفى ليكمل ما بدأته أنا....

هذه هي الحقيقة كلها... وكما قلت لك لا تصدق أحدًا غيري...

ربما كانت شهادة زوجتي مفيدة لك كذلك...

لو أنك جئت هنا غدًا لسمعت مثلي القصة من شفتي زوجتي..

3 - الزوجة

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

كل ما فات كلام فارغ... الحقيقة هنا في صدري..

لا تصغ لشهادة ضابط فهم يكذبون بلا توقف.. لا تصغ لشهادة زوج فهم يهذون بلا توقف.

أنا راوية عبد السميع... 29 سنة.. لم أستكمل معهد الخدمة العامة قط..

ربما لم أكن متعلمة جدًا أو مثقفة كما تفترضون من راوية قصة، لكن دعوني أؤكد لكم أنني أملك الغريزة.. الغريزة التي تملكها أي قطة وأي أنثى أرنب.. وبالتالي أعرف كيف أحمي اسرتي جيدًا.. هذه أشياء لا يتعلمونها في الجامعة..

زوجي متوسط التعليم مثلي، لكنه يزيد من دخلنا عن طريق بعض أعمال النجارة الخفيفة، وقد ظفرنا بطفل جميل. أقصد كان جميلاً...

بدأ كل شيء عندما كنت أنتظر عودة زوجي من عمله، وكنت قد طهوت بعض المحشو وغطيت الحلة وأعددت الخبز والمخللات، عندما سمعت صوت عواء ونباح..

خرجت لألقي نظرة على الشارع، فوجدت زوجي يتعا ،
صراعًا عنيفًا مع كلب..

كان الكلب يتمسك بساقه منشبًا أنيابه..

زوجي يتلوى، والكلب منفوش شعر العنق شيطاني النظرا
يزوم بلا انقطاع بتلك الطريقة المخيفة التي تجيدها الكلاب
وكان يتمسك بقوة غير عادية ولعابه يسيل أنهارًا...

زوجي يحاول أن ينفضه عنه بلا جدوى...

هنا هرعت أنا وتناولت حجرًا ضخمًا على الرصيف وجريت نحو الكلب وهويت به على رأسه.. لا لم يمت.. تخلى عن ساق زوجي ونبح مهددًا في وجهي ثم بادر بالفرار.. لقد فهم أنه لن يكسب هذه المعركة..

على الرصيف رقد زوجي يتفحص ساقه التي تحولت إلى خرقة مهلهلة..

ـ"مسعور.. هذا واضح"

قالها وهو يمسح اللعاب الكثيف المختلط بالدم..

ـ"المستشفى.. نادي عبد الجواد.."

جريت أنادي عبد الجواد جارنا.. وساعدنا زوجي على أن يجلس في مقعد الدراجة الخلفي بعد ما ربطنا ساقه، وانطلق عبد الجواد بالدراجة قاصدًا المستشفى الحكومي القريب... أما أنا فقد احتضنت الصغير وهرعت ألحق بهما..

عندما عاد زوجي لم يكن شيء قد تغير..

قال له الطبيب في المستشفى ألا يخشى شيئًا... ليرقب الكلب وليرَ إن مات في الأيام القادمة.. لا داعي لأخذ اللقاح... فقط قاموا بخياطة الجرح، وهو ما عرفت فيما بعد أنه خطأ جسيم.. عضات الحيوانات لا تخيط وإنما تغسل بالصابون والماء فقط..

لكن الأطباء يعرفون أفضل من سواهم. هذا مؤكد أو هكذا ظننا..

وقد عاد زوجي مضمد الساق ليأكل المحشو والمخلل وينام.. فقط في تلك الليلة ارتفعت حرارته كثيرًا.. لكن الأمور صارت أفضل في الأيام التالية، وبالطبع لم نر الكلب ثانية..

مرت أسابيع.. ربما أربعة أو خمسة..

ثم بدأت أعراض غريبة تظهر على زوجي..

ترى من هو مصطفى ولماذا يناديه بلا توقف؟

كان ينام كثيرًا جدًا.. احيانًا كان ينام وهو جالس إلى منضدة الأكل... يعرق كثيرًا جدًا جدًا. ثم صار لعابه وفيرًا.. أحيانًا يسيل من دون علمه على جانبي فمه.. غزير كثيف كأنه التهم مجموعة من المناديل الورقية المبتلة..

لاحظت كذلك أنه يتألم بشكل واضح كلما شرب الماء، حتى أنه كان يقرب الكوب من فمه في حذر وهو يرتجف.. ويحاول أن يمتص منه الماء امتصاصًا، ثم حصل على شفاط من محل عصائر فراح يستخدمه في الشرب ولكن الألم لم يختف....

بدأ يصير محمومًا. وكانت هذه الحمى تظهر ليلاً.. وعندها كان يبدأ في الهلوسة ويحكي عن أشياء لا وجود لها..

ثم لاحظت أن الجرح القديم الذي سبب، ذلك الكلب يزداد سوءًا.. جربت أن أغير عليه بنفسي وسكبت، عليه الكثير من ماء الأكسجين والسافلون.. لكنه كان يتدهور..

في تلك الليلة قال لي وهو يرتجف:

-"لا جدوى يا راوية... الكلب كان مسعورًا وقد نقل لي الداء.."

لم أفهم فعاد يقول:

ـ"السعار.. الكلب.. أطباء المستشفى كانوا جهلة ولم يعرفوا ما يفعلون.. لقد طمأنونا بشكل زائف بينما كان يجب أن آخذ اللقاح.."

قلت له وأنا موشكة على البكاء:

ـ"سوف نذهب للمستشفى حالاً.."

ـ"لا جدوى من هذا.. هذا الداء لا علاج له.. معنى ظهور علامات هو الموت الأكيد.. لا أريد (بهدلة).. لا أريد مصاريف أضافية"

ـ"سنذهب للمستشفى المجاني"

ـ"لا يوجد علاج مجاني في مصر.. هذه أكذوبة صدقناها.. لن أكسب شيئًا سوى أنني سأصير فرجة لدى الجيران والأصحاب وأنا لا أرغب في أن تكون هذه نهايتي.."

الطفل كذلك راح يعوي كأنما أصابه مس من جنون.. يعوي..

جو الخبال المخيم على المكان انتقل له..

ثم بدأ زوجي يقنعني بخطته التالية.

سيكون علي أن أربطه للفراش بالحبال.. أطعمه واسقيه لكن لا أطيع أي رغبة أخرى له، ولا أصدق حرفًا من الأكاذيب التي

سيمطرني بها..

ـ"المريض يتحول إلى كلب مسعور ويعض الآخرين ويجعلهم مثله.. ويفترس اللحم النيئ"

لهذا يجب أن أكون قاسية وأن أتركه يعاني فلا أشفق عليه لحظة..

لم يكن هذا الكلام دقيقًا، بل هو أقرب إلى خرافات العامة حول داء الكلب، وهذا ما عرفته فيما بعد، لكنني صدقته في حينها لأن الظروف لم تكن تسمح بغير هذا...

قيدته بحبال غليظة في الفراش بحيث صار كالمصلوب.. لدينا حبل من ليف ممتاز يصلح لهذا الغرض...

ورحت أحاول أن أطعمه وأسقيه..أبتعد عن مجال فمه حيث يمكن أن يوجه لي عضة نكراء شرسة.. كما رحت أحاول أن أسليه بأن أجلس جواره واحكي عن أشياء.. عن صديقاتي.. عن أسرتي.. عن السوق وما تغير من أسعار.. عن تمثيليات التلفزيون... وكنت كذلك أرحمه فأذب عن وجهه الذباب أو أجفف عرقه أو أحك الموضع الذي يريد أن يحكه في جسده..

كان أصدقاؤه يسألون عنه، ورفاق العمل يأتون ليعرفوا

أين هو، فكنت أقول لهم إنه في قريته بالمنوفية يحاول أن يحل مشاكل عويصة تتعلق بالقيراطين اللذين يملكهما..

كنت على وشك الانهيار.. كان الضغط العصبي يفوق تحملي.. ولولا أنه أرغمني على ألا أتكلم أو اطلب عون أحد لوقفت في الشارع وشققت ثيابي ولطمت الخدين..

لا اتحمل اكثر من هذا يا رب..

لكن الخلاص كان هو وفاته.. وأنا لا أتعجل اللحظة التي تجعلني أرملة وتجعل ابني يتيمًا.. سوف أصبر.. سأصبر..

لقد مر أسبوع.. أسبوع كامل على هذا الكابوس.. أطعمه وأسقيه وأرعاه لكنه لا يظهر أي علامة على أنه سيتحسن...أو سيموت..

متى ينتهي هذا؟

يجب أن أقول هنا إنني منعت ابني من النزول للقبو منعًا تامًا، كما إنني قلت له إن أباه مسافر..

لكن الوضع لم يدم كما كان..

لقد ذهبت للسوق لابتياع بعض لوازم الدار.. قلبي مثقل والدرب مظلم، لكن يجب أن أقوم بما يجب أن أقوم به.. لابد من

قيادة سفينة الأسرة وسط هذه الصعاب. لما عدت للبيت تو -ه
إلى القبو مباشرة فوجدت زوجي راقدًا على الفراش من دو
حبال!.. الحبال ممزقة كلها وهو حر تمامًا.. لكنه كان نائمًا وبدا لي
أنه لا يرغب في أن يفعل ما هو أكثر... لقد تحرر ثم عاد للنوم
إذن الحبال لا تحميني ولا تبقيه في مكان واحد..

هناك شيء مرعب.. هل تراه؟

لدي بطة سوداء.. أربيها في عشة صغيرة اصطنعتها لها في الشرفة،
ومعها بعض الدجاج. من أين جاء هذا الريش الأسود إذن؟
الريش الذي يتناثر في كل مكان ويغطي الأرضية..

الجواب واضح تمامًا.. لقد مزق الحبال ثم انقض على البطة
ومزقها.. لحم نيئ.. هو قالها من قبل، لكنه اليوم ينفذها..

بقع دم على الجدران... ما مصدرها؟..

ربما كان السبب ذلك القربان الحي الذي ضحى به منذ قليل..

كان علي إذن أن أعيد تقييد زوجي للفراش. لقد كان محقًا عندما
تحدث عن خطورة موقفه وطلب مني هذا الطلب. إنه خطر على
نفسه وعلى الآخرين ويجب أن يبقى في مكان واحد إلى أن يموت..

او ـ المزيد من الحبال، ووقفت جواره وبدأت أعيد ربط معصمه

ال الئمة الفراش الأولى.. للأسف يبدو أنه لم يكن نائمًا جدًا...

افب ركلة هائلة في معدتي.. ركلة أطاحت بي إلى الجدار..

ء ا.ما سقطت على الأرض استطعت أن أرى ساقين صغيرتين..

ا ى معصمًا صغيرًا.. أرى رأسًا ملوثًا بالدم.. كيف لم أر هذا في

او ل مرة؟

يبدو أن زوجي لم يكتف بتمزيق البطة..

صرخت وأنا أراه يهبط من على الفراش.. يتقدم نحوي واللعاب

يسيل من بين شدقيه. نظرة مجنونة مفترسة لم أرها من قبل إلا في

عيون الكلاب المسعورة..

كانت نهايتي دانية.. لذا أغمضت عيني وعرفت ما سيحدث..

لكن...

من أين جاء هذا التمثال الفرعوني الصغير؟.. كان بجواري على

الأرض.. صغير لكن له ثقلاً.. وأدركت أن بوسعي أن أضرب

به.. سوف يؤخر نهايتي بضع ثوان.. هكذا أطبقت قبضتي عليه

وصممت على أن أموت بثمن باهظ...

هنا سمعت صوت اشخاص يتكلمون.. كان هناك ضابطا ورجلا شرطة... زوجي يحمل المثقاب وينقض به على الرجال كان يعرف أنه سوف يستعمله يومًا ويخترق به جسد لص أو بلطجي يعتدي على دارنا، وها هو ذا يحقق حلمه اليوم.. الآن... هناك طلقة رصاص.. جسد زوجي يطير في الهواء ليرتطم بالجدار..

لقد مات..

اللحظة التي كان يجب أن تأتي منذ أسابيع. لقد مات أخيرًا حاملاً معه ذلك الداء الوبيل.. بعد ما سلبني أثمن شيء أملكه في هذا العالم.. ابني..

لا لم يمت زوجي..

عرفت أنه لم يمت بأثر الطلقة التي مزقت صدره.. إنه سيعيش.. صدقوني... هذه هي حقيقة ما حدث.. وكما قلت لكم: لا تصغوا لشهادة ضابط فهم يكذبون بلا توقف.. لا تصغوا لشهادة زوج فهم يهذون بلا توقف.



فهرس المحتويات

أكواريل

هذة قصص متفرقة
تتحدث عن الخوف..كل الخوف..ولا
شيء سوى الخوف.
سوف نعرف كل شيء عن
القصيدة التى تكمل نفسها،
والرواية التى تكتبها
أرواح الموتى، و الطبيب الذي
تزوره جثث ضحاياه فى عيادته
الخاصة.
سنعرف سر المدية الفضية عبر
العصور، وقصة الحب بين شاب
مكتمل الرجولة و جثة متعفنة.
سنعرف قصة اللوحة التى تتغير
كل دقيقة، و زيارات (ناحيما)
الليلية..

سنعرف الكثير مما لا ينبغي ان
نعرفه، وإذا عرفناه لا نتكلم عنه.



تصميم الغلاف: صالح محمد

